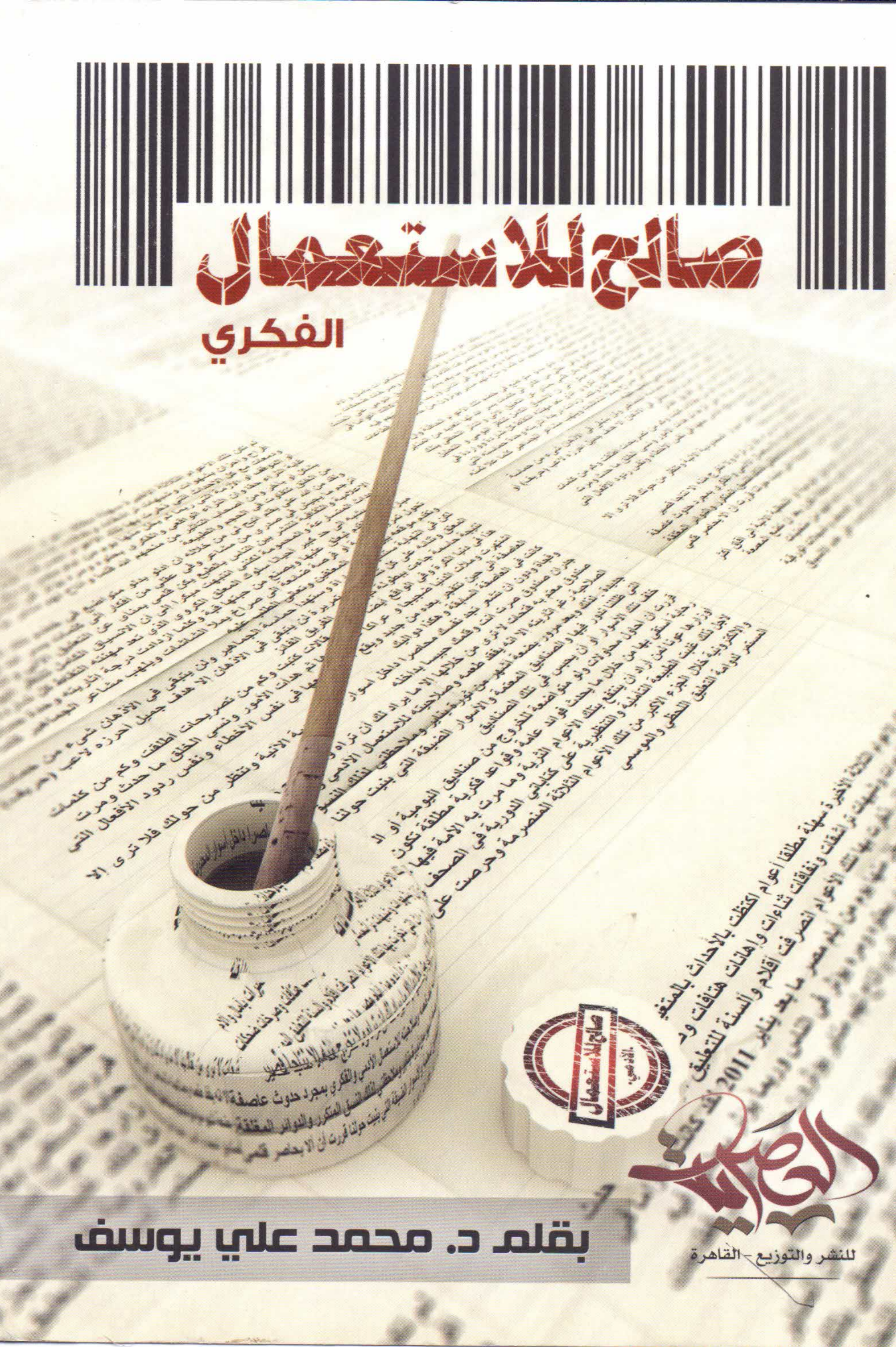

صالح للاستعمال
الفكري
بقلم د. محمد علي يوسف
للنشر والتوزيع - القاهرة

لقد كانت أعواما في غاية الثراء

كم من مقالات كتبت وكم من تصريحات أطلقت وكم من كلمات اشتهرت وملأت الدنيا ضجيجا وعراكا على إثرها ثم هدأت الأمور ونسي الناس ما حدث ومرت العاصفة إلى حين...

ثم تتفجر بعده من جديد ويقع الناس معها في نفس الأخطاء ونفس ردود الأفعال التي كانت في العاصفة السابقة ولا يلتفتون إلا لذلك الحدث الذي تحت أقدامهم

ودون أن تشعر تجد نفسك محاصر داخل أسوار المحدودية الآنية وتنظر من حولك فلا ترى إلا جدران صندوق صرت أنت وقلمك حبيسا بداخله صندوق معتم به فتحات لا ترى من خلالها إلا ما يراد لك أن تراه ولا تخرج منه إلا نتاجا قصير الصلاحية رغم إثاريته إلا انه يفقد طعمه وصلاحيته للاستعمال الآدمي والفكري بمجرد حدوث عاصفة جديدة

وبعد انقضاء تلك الأعوام والأحداث أعدت النظر في كل ما كتبت

فوجدت كثيرا منها لم ينته تاريخ صلاحيته

وجدت العديد من الأفكار والتنظيرات والخواطر والأطروحات المطلقة لم تزل بعد صالحة للاستعمال الفكري

ستجد بين يديك في هذا الكتاب تأملات لأحداث جسام

وستجد ردود على شبهات

وستجد نقدا لمشكلات وآفات فكرية وأخلاقية رأيت أنها ظهرت وعمت لدرجة احتاجت لعلاجها

ستجد هنا تنهيدات حزينة وزفرات مهمومة

وستجد ابتسامات متفائلة

وآمال طامحة

هذه الوريقات التي بين يديك تحمل عصارة فكرية لأعوام ثرية امتلأت بالسعادة والحزن والخوف والأمل

ربما قد لا يجمعها إلا شيء واحد فقط

أنها لم تزل بعد صالحة

صالحة للاستعمال الآدمي



د. محمد علي يوسف





صالح للاستعمال الفكري

رقم الإيداع

٩٨٦ / ٢٠١٤



للنشر والتوزيع - القاهرة

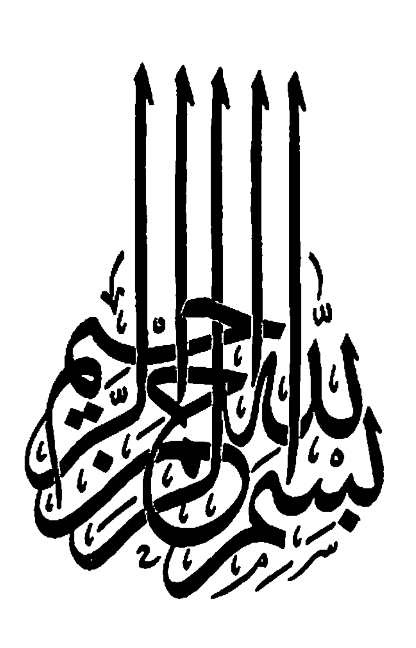
١٠ ش البيطار - خلف الجامع الأزهر
جوال: ٠١١١٤٢٣٦٤٠٤ - ٠١٠٠٥٢٣٦٤٠٤
E-mail:Al3asrya@live.com



صالح للاستعمال الفكري

بقلم

د. محمد علي يوسف


بسم الله الرحمن الرحيم

صالح للاستعمال الفكري
(مقدمة الكتاب)

لم تكن تلك الأعوام الثلاثة الأخيرة سهلة مطلقا

أعوام اكتظت بالأحداث

بالمتغيرات

بآمال وآلام

أفراح وأحزان

بشهوات وشبهات

تراشقات ونفاقات

ثناءات وإهانات

هتافات وصرخات

ضحكات...

ودمعات

مع كل الأحداث التي ذخرت بها تلك الأعوام

انصرفت أقلام وألسنة للتعليق اليومي على الحدث أو الموقف أو الأزمة التي ربما لم يخل منها يوم من أيام مصر ما بعد يناير ٢٠١١

لقد كانت أعواما في غاية الثراء حقا

وإن الثراء الواقعي والفكري بحلوه ومره يؤثر في الناس وربما يؤثر بعضهم فيه بشكل أو بآخر

ومن أصحاب التأثير من منحهم الله قلما وأتاح لهم منابر يؤثرون من خلالها في قطاعات من الخلق تتفاوت في الحجم والطبيعة

ولقد من الله علي بقلم أتيح لي من خلاله أن أدلو بدلو متواضع في خضم تلك الأعوام الحافلة وأن أترجم ما يجيش في صدري من مشاعر وفي عقلي من أفكار إلى كلمات يسر الله لها العديد من المنابر الإعلامية والثقافية لتنشر بين الناس

بالطبع يكن قلمي بمنأى عن التعليق الآني والتأثر اللحظي بتلك الأحداث المتسارعة والمحمومة

لكنني انتبهت مبكرا إلى أن الانسياق الكامل للنظر اليومي والتحليل المباشر يشبه إلى حد كبير أحيانا سلوك المعلق الكروي الذي تعد مهنته التقاط كل شاردة وواردة في مباراة كرة القدم ليعلق عليها ويصنع من حبتها قبة وكلما ازدادت درجة إثاريته وحدة حماسته التي تحول تمريرة عادية أو

فرصة ضائعة إلى صراخ يملأ الشاشات ويلهب مشاعر الجماهير كلما علا ثمنه وتقدم موقعه بين معشر المعلقين وتعالى الطلب عليه

لكن في النهاية ستنتهي المباراة وستهدأ حماسة الجماهير ولن يتبقى في الأذهان شيء من حماسة المعلق وثنائه على كل تسديدة أو تمريرة

لن يتبقى في الأذهان إلا هدف جميل أحرزه لاعب (حريف) أو نتيجة حاسمة جاءت ببطولة كبرى إلى الفريق الفائز

هذا في دنيا الكرة

وفي الواقع أيضا

كم من مقالات كتبت وكم من تصريحات أطلقت وكم من كلمات اشتهرت وملأت الدنيا ضجيجا وعراكا على إثرها ثم هدأت الأمور ونسي الخلق ما حدث ومرت العاصفة إلى حين تتفجر بعده من جديد ويقع الناس معها في نفس الأخطاء ونفس ردود الأفعال التي كانت في العاصفة السابقة وهكذا دواليك

وفجأة ودون أن تشعر تجد نفسك محاصرا داخل أسوار المحدودية الآنية وتنظر من حولك فلا ترى إلا جدران صندوق صرت أنت وقلمك حبيسا بداخله

صندوق معتم به فتحات لا ترى من خلالها إلا ما يراد لك أن تراه ولا

تخرج منه إلا نتاجا قصير الصلاحية رغم إثاريته إلا انه يفقد طعمه وصلاحيته للاستعمال الآدمي والفكري بمجرد حدوث عاصفة جديدة

لذلك وبعد مرور بضعة أشهر من ثورة يناير وملاحظتي لذلك النسق المتكرر والدوائر المغلقة التي ظللنا ندور فيها والصناديق المعتمة والأسوار الضيقة التي بنيت حولنا قررت أن ألا يحاصر قلمي خلف تلك الأسوار أو أن يحبس في تلك الصناديق

قررت أن أحاول محاولات ولو متواضعة للخروج من صناديق اليومية أو اللحظية الآنية إلى آفاق أكثر رحابة أستقي بها من خلال ما يحدث فوائد عامة وقواعد فكرية مطلقة تكون بعد أن تضع المعمعة أوزارها عونا لمن أراد أن ينتفع بتلك الأعوام الثرية وما مرت به الأمة فيها من منحنيات

لأجل ذلك غلبت الطبيعة التأملية والتنظيرية على كتاباتي الدورية في الصحف والمجلات الورقية والإلكترونية خلال الجزء الأكبر من تلك الأعوام الثلاثة المنصرمة وحرصت على عدم الانسياق المستمر لدوامة التعليق اللحظي والموسمي

وبعد انقضاء تلك الأعوام أعدت النظر في كل كتبت واستثنيت منه كل ما له علاقة مباشرة بحادث عارض أو موقف موسمي فوجدت أنه قد تبقى ما يزيد بقليل عن مائة مقالة متفاوتة في الطول رأيت أنها لم تنته

صلاحيتها بل لم تزل صالحة للاستعمال

صالحة للاستعمال الفكري والاستعمال القلبي

ستجد بين يديك في هذا الكتاب الذي يغلب عليه الطابع الفكري تأملات هادئة لأحداث جسام ومنحنيات مرت بها الأمة تم تناولها بمنظور مطلق وبإسقاط مختلف

وستجد ردودا على شبهات اشتهرت بين الناس ولاكتها الألسنة والأقلام وأيضا مشكلات وآفات فكرية وأخلاقية رأيت أنها ظهرت وعمت لدرجة احتاجت لعلاجها

وستجد تعقيبات على مواقف حرصت كل الحرص ألا تكون آنية أو موسمية ولكنني اخترت أن انتقي هنا منها ما وجدته فارقا في المسار الفكري العام لأمتنا

وستجد هنا تنهيدات حزينة وزفرات مهمومة وستجد ابتسامات متفائلة وآمال طامحة

وستجد باقي المقالات المائة في الكتاب الآخر الذي يحمل اسما شبيها لكن يغلب عليه طابع مختلف

طابع يخاطب القلب ويحاول أن يزيل عنه ما لحق به من ران الواقع ويخاطب النفس ويعالج بعض آفاتها التي أظهرتها الشدائد والمتغيرات

ويخاطب الفطرة والروح ويلفت الانتباه إلى خطورة المآل الديني والأخلاقي لما جرى في تلك الأعوام الحافلة

هذه المقالات المائة في الكتابين تعد عصارة أعوام صاخبة حافلة امتلأت بالسعادة والحزن والخوف والأمل

نعم هي مقالات متنوعة متعددة المواضيع ربما قد لا يجمعها إلا شيء واحد فقط

أن صلاحيتها لم تنته بعد وأن فحواها لم يزل بعد صالحا للاستعمال القلبي والفكري

صالحا للاستعمال الآدمي.



١. ثمن الخوف

بشفتين مجعدتين لم تنجح أكثر من خمسة عشر عملية تجميل فى إعادة رونقهما تحدثت.

وبصوت واهن قالت:

«كان عمري فى ذلك الحين ١٢ عاماً، وكان ذلك اليوم صحواً، فجأة رأيت صاعقة من البرق أو ما يشبه عشرات الآلاف من الصواعق تومض في لحظة واحدة، ثم دوّى انفجار هائل، بعدها ساد المكان ظلام دامس، وعندما أفقت وجدت شعري ذابلاً، وملابسي ممزّقة، وكان بعض جلدي يتساقط عن جسدي، ولحمي ظاهر وعظامي مكشوفة.

الجميع كانوا يعانون من حروق شديدة، وكانوا يبكون ويصرخون ويهيمون على وجوههم وكأنهم طابور من الأشباح.

لقد غطّى مدينتنا الظلام والموت بعد أن كانت منذ قليل تعجّ بالحيوية، حتى الحقول احترقت ولم يعد ثمة ما يذكرنا بالحياة، أعتقد أنني محظوظة لمجرد بقائي حية».

هكذا كانت شهادة إمرأة يابانية من القلائل الذين نجوا من انفجار

«هيروشيما». أو ما يعرف بقنبلة «الولد الصغير» كما سمّاها صانعوها.

الأمر لم يبدأ فى ذلك اليوم بل بدأ قبله بأعوام، وتحديدًا قبله بست سنوات وأربعة أيام

بدأ بمجرد رسالة مكتوبة، خطها أحد أكثر عقول القرن العشرين عبقرية، وأرسلها بإيعاز من عبقرى آخر إلى رئيس تلك الدولة القوية.

وذلك العبقرى الآخر هو «ليو زيلارد» أحد أهم العقول الفيزيائية فى العالم فى ذلك الوقت، والذى جمعته صداقة قديمة بـ«ألبرت أينشتاين» -كاتب الرسالة - نجح من خلالها «زيلارد» فى تخويف «أينشتاين» وبث فى نفسه أن النازيين على وشك الوصول إلى طريقة عملية لتحويل معادلته العبقرية إلى سلاح بشع.

ذلك الخوف والهلع دفع «أينشتاين» لتحذير الرئيس الأمريكى «فرانكلين روزفلت» فى رسالة شاركه فى صياغتها «زيلارد»، ناصحًا الإدارة الأمريكية بالتقاط زمام المبادرة والبدء فى تفعيل معادلته الشهيرة واستغلالها في صناعة ذلك السلاح المدمر.

وبالفعل بدأ مشروع «مانهاتن»

وتمكن الأمريكيون من تصنيع القنبلة بعد أعوام من العمل المضنى والبحث الحثيث، وجرت تجربة عملية ناجحة للقنبلة فى صحراء «نيو ميكسيكو».

لكن ألمانيا النازية استسلمت ولم تتمكن من تصنيع القنبلة، وصار استسلام الامبراطور اليابانى «هيروهيتو» مسألة وقت كما يؤكد الكثير من المحللين الذين رأوا أن الحرب العالمية الثانية قد انتهت فعليًا.

إذن فقد زال الخوف من وصول الألمان أو اليابانيين لسلاح دمار شامل.

لكن آثار الخوف أو التخويف لم تزل.

لم يقاوم الأمريكيون إغراء القوة الغاشمة والحسم السريع والمبهر للحرب، وربما تجربة السلاح الجديد على البشر بعد أن جربوه على الجمادات، وألقي «الولد الصغير» على اليابان.

كثير من المبررات قيلت وتم تزيين ذلك الفعل بدوافع عديدة ومزاعم تدور حول كون اليابان لم تكن لتستسلم أبدا وأنهم كانوا سيواصلون الحرب بعد هتلر لأعوام يقتل فيها آلاف الأبرياء إلى آخر تلك المزاعم والمبررات التي لم تنف الحقيقة المرة

حقيقة أنه فى ثوانٍ معدودة قد قُتل سبعون ألف إنسان ومثلهم أو أضعافهم لقوا حتفهم على المدى البعيد، بسبب الآثار المدمرة لقنبلة «هيروشيما»، التى تبعتها بعد أيام قنبلة «الرجل البدين» كما أسموها والتى كانت من نصيب سكان «نجازاكى»، نظرًا لغيوم كثيفة جعلت قائد الطائرة

التي حملت القنبلة يغير وجهته ويلقيها على رؤوس أهل «نجازاكى» بدلا من مدينة «كوكورا» كما كان مقررًا لها.

ربما كانت ألمانيا بالفعل فى طريقها لصناعة القنبلة الذرية

إلا أنها فى النهاية لم تفعل

ولم يعد من مبرر للخوف.

لكن تجار الخوف لابد دائما أن يكملوا تجارتهم وعليهم أن يجنوا أرباحهم

وقد كان.

«لو علمت أن المطاف سينتهي بأبحاثي لهذه النتيجة لفضلت أن أكون صانع أقفال»

هكذا قال «أينشتاين» بعد أن رأى ما فعله «الولد الصغير» و«الرجل البدين»

وهكذا ندم...

لكن ندمه الذى أعلنه مرارًا واعترافه بخطأ الرسالة يوما ما التى أرسلها للرئيس الأمريكي روزفلت لم يغير شيئًا من واقع أن رسالته كانت البداية لكل ما حدث، والمحرك الأول لذلك الدمار الشامل الذى يهدد العالم إلى اليوم.

الدمار الذى كان بدايته الخوف...

الخوف الذى قد يكون سلاحًا أشد تدميرًا من القنابل إذا أجيد توظيفه،

والبعض يجيدون استثمار سلاح الخوف ويتقنون تجارة التخويف وصناعة «البعبع».

ومن خلال الخوف يستطيعون التحكم فى الناس

وعن طريق التخويف يتمكنون من قيادتهم

وبالتفزيع يمكن التغاضى عن أى شىء وعن كل شىء.

إن الإنسان خُلق هلوعًا بطبعه، ومن ثم تكون المهمة أسهل على كل من اتخذ التخويف سبيلاً للسيطرة، فتارة يكون التخويف من المؤامرة، وتارة أخرى يكون التخويف بالفزاعات والأشباح القادمة.

وتحت ستار الخوف يحدث أي شىء ويُقبل كل شىء.

حتى لو ثبت بعد ذلك أنه لم يكن خوفًا فى محله، أو لم يكن مبررًا كافيًا لما ترتب عليه من آثار ونتائج، ومهما ندم من كانوا حطبًا لنيران الخوف، فإن آثاره تبقى

وندوبه تدوم

وآلامه لا تزول

وفي النهاية المتاجرون به هم فقط من يجنون أرباحه، بينما من انساقوا خلفه هم وحدهم من يتجرعون مرارات تلك الآلام

وهم وحدهم يدفعون الثمن...

ثمن الخوف.



٢.دول أعداء الوطن

«دول أعداء الوطن»

كان ذلك هو جواب جناب الصول على سؤال أحمد سبع الليل، العسكري الريفي البسيط القادم من أغوار الصعيد السحيقة ليقضي فترة تجنيده بالسجن الحربي

سأل ذلك السؤال بعد أن تعجب من كم التعذيب والإهانة الذي رآه في أول لحظاته داخل هذا المكان الكئيب لدرجة إجبار المساجين على تناول غذائهم المكون من رغيف من الخبز دون استعمال أيديهم فينحنوا لأكله من الأرض كما تفعل البهائم

- مين دول يا سعادة الصول؟!

- دول أعداء الوطن

- أعداء الوطن؟! ويتوكلوهم؟! ده حتى اللقمة خسارة في جتتهم

هكذا تحمس المجند وقرر أن «يجوِّد» تعامله مع (أعداء الوطن) اللي اللقمة خسارة في جتتهم حتى بلغ به التجويد والمبالغة في التنكيل ب(أعداء

الوطن) أن قضى أحدهم نحبه على يديه

ثم جاءت اللحظة الحاسمة التي سيتغير فيها المنحنى ويفهم أحمد ماذا يحدث

«أستاذ حسين أفندي؟!!!!»

هكذا صاح في دهشة صاعقة وقد تسمرت العصا الغليظة في يده التي كاد أن يهوي بها على رأس الشاب المثقف بلدياته حسين ابن الحاج وهدان

ذلك الشاب الذي طالما جلس سبع الليل بين يديه مشدوها ليتعلم ولينهل من ثقافته وفهمه

الآن يراه ويتعرف على شكله في صعوبة من خلف عاصفة الغبار وطبقة الدماء المخلوطة بالعرق التي تغطي وجهه على إثر حفلة الاستقبال التي تعد من بروتوكولات السجن الحربي في ذلك الزمان

تجمد المشهد الذاهل لثوانٍ معدودة ثم تفجر من جديد حينما كادت بعض الهراوات أن تهوي على رأس الأستاذ حسين أفندي مرة أخرى

هنا تصدر المجند الأسمر ليتصدى بجسده لضربات زملائه صائحا

- نزل إيدك

نزل إيدك يا جدع إنت وهو

حسين أفندي لايمكن يكون من أعداء الوطن أبدا..

- إضرب يا أومباشي

هكذا صاح الباشا مدير السجن بصوت هادر من فوق صهوة جواده

- ده حسين يا سعادة الباشا

آني عارفه

أصل إحنا الاتنين من بلد واحدة ومولودين في جمعة واحدة وأبوه الحاج وهدان راجل يتحط على الجرح يبرد وعارف ربنا ومتقي

حسين ابن الحاج وهدان لا يمكن أبدا يكون من أعداء الوطن

ده هو اللي فطمني وقال لي على مهمتي في الجيش

- اضرب يا عسكري

- أضرب آه لكن حسين ابن عم وهدان لأ

حسين ابن عم وهدان

لأ لأ

تلاشى صوت المجند في خضم الضربات التي هوت عليه وعلى الشاب المثقف بلدياته من قبل زملائه فقد صار سبع الليل في لحظات من ذلك الصنف

من أعداء الوطن....

كان هذا المشهد من فيلم البرىء أحد أهم المشاهد لا أقول في تاريخ

السينما المصرية بل في تاريخ مصر نفسه

إنه مشهد عالق في ذهني منذ أيام الصبا أعدت صياغته أدبيا ليلخص بكلمات بسيطة ماهية السيطرة على عقلية المجند البسيط أحمد سبع الليل ليستطيع التكيف مع تلك المهمة الثقيلة

مهمة ضرب أبناء الوطن!!

ولأن الأصل في مهمة أي جيش أن يواجه العدو الخارجي ذا اللسان والشكل والوطن المختلف فإن المهمة تكون ثقيلة إذا طلب منه أن يواجه بني وطنه

لذا فلابد من تغيير الوصف

لا ينبغي أن يسموا في تلك اللحظة -أبناء الوطن بل يستبدل الوصف بآخر يبرر قمعهم وإراقة دمائهم

إنهم إذاً أعداء الوطن!!

خونة .... مارقون .... مخربون

هكذا دون تفصيل ولا تمييز ولا تحقيق ولا محاكمة

إن أي طاغية أو مستبد في الدنيا لابد له من وجود عدو يتم ذكره دوما في توجيهات و تحذيرات وتعليمات القادة

إن ثقافة (أعداء الوطن) التي كان يُلَقنها أحمد زكي في فيلم البرىء

والتي كانت تجسيدا سينمائيا لواقع أليم شهدته مصر في الخمسينات والستينات هي أخطر ما يمكن أن يغرس اليوم في نفوس الناس و يجعلهم يستحلون دماء بعضهم البعض

ولم أكن اتصور أن يحدث هذا يوما فأنا من أشد الرافضين لفكرة تناسخ التجارب سواء الزمانية أو المكانية

إلا أن الامر لم يكن كما كنت اعتقد قط

ما كنت أظن يوما ان الفيلم الذي احترق وعرض مائة مرة يمكن ان يصدقه الناس من جديد

لقد كنت واهما..

ورغم اختلاف الظروف والأزمان والعوامل المحيطة إلا أن العقول على ما يبدو هي هي والشيطان هو هو والطغاة كما هم

وما كان يُصدَّق في الخمسينات يبدو أنه يمكن أن يُصَّدق اليوم

الاختلاف فقط يكون في الآلة لكن مبدأ الطغاة واحد على مر الأزمان

﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾

﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾

هكذا يغرس التصور وهكذا يستخف الناس ويطيعون ويصدقون

وإذا كانت عقول قد صدقت يوما ما إفكاً في الصديقة بنت الصديق فلا

عجب أن تصدق أن المعارض أو المختلف هو من أعداء الوطن

ويستحق أن يعامل كما يعامل أعداء الوطن

أو في الحقيقة كما كان يعامل أعداء الوطن

زمان حين كانوا أعداءً للوطن!!



٣.زومبي

تتكرر في السينما الأمريكية فكرة معينة تم ويتم تناولها في العديد من الأفلام حتى صارت «تيمة» معروفة وثابتة وصار لها مصطلح محدد يعبر عن مجموعها

إنها أفلام الكارثة الملحمية

تلك الكارثة التي سيطرت على خيال المؤلفين كونها لابد واقعة لتدمر أغلب صور الحضارة والإنسانية على الأرض ولا تبقي إلا نذرا يسيرا من البشر يواجهون تلك الكارثة محاولين إنقاذ العالم أو على الأقل منازعين من أجل البقاء رغم وجود كافة الظروف المهيئة لفنائهم مع باقي سكان الكوكب

وتتنوع الكوارث في تلك الأفلام فما بين نيزك عملاق يسقط على الأرض إلى غزو الفضائيين أو الإيليانز من سكان الكواكب الأخرى ذوي البشرات الزرقاء والعيون الجاحظة وأسلحة الأشعة مرورا بفكرة الزلازل الشاملة والبراكين المدمرة وانتهاء بحرب عالمية نووية تقضي على أغلب صور الحياة المتحضرة التي نعرفها اليوم

لكن من أكثر تلك الأفكار الخيالية تداولا في هذه الأفلام فكرة التحول والتوحش التي تصيب سكان الكوكب فتحولهم إلى فيضان مريع من المتوحشين الغاضبين والشرهين للدماء واللحوم البشرية أو تجعلهم طوفانا من الموتى الأحياء (الزومبي) كلما عض أحدهم آخر انتقل الفيروس الغامض لينتشر بين الجميع عدا أبطال الفيلم طبعا حيث تقتضي الحبكة أن يظلوا في صراع مع الكارثة الكابوسية حتى نهاية الفيلم الذي ينقضي غالبا بسقوط أغلبهم وبقاء أقواهم أو أكثرهم ذكاء الذي يصل في آخر لحظة إلى الحل ويوقف انتشار الكارثة او يجد سبيلا للتعايش معها والحفاظ على ما تبقى له من تحضر وإنسانية

فكرة خيالية بعض الشيء أليس كذلك ؟

نوع من الفنتازيا المثيرة التي تضمن لحظات من التشويق تدوم لساعتين هي عمر الفيلم لا تلبث إلا أن تزول تدريجيا مبقية قشعريرة باردة تنتاب المرء من حين إلى آخر كلما تذكر مشاهده الدموية البشعة واسترجع تلك اللحظات الجنونية التي انتابت سكان الأرض في الفيلم

لكن هل دار بخلدك قط وأنت تشاهد فيلما من هذا النوع أنك قد ترى شيئا شبيها بهذا في واقعك وحياتك اليومية؟!

هل تصورت من قبل أن تنتاب جل من حولك حالة من الوحشية

والغضب والكراهية تنتشر انتشار النار في الهشيم وتأكل أخضر مودتهم ويابس حسن معاملتهم ليتحولوا بين عشية وضحاها إلى مخلوقات تنهشك أو تتمنى فناءك بل ربما سعت إلى ذلك؟!

لا أظن

لا أظن أن هذا قد حدث لك قط أو حتى تخيلت حدوثه في أسوأ كوابيسك

إنها مجرد فانتازيا

خيال خصب من مؤلف ذكي ومخرج بارع لكنه مستحيل الحدوث

مستحيل أن يذبحني جاري أو يفرح لذبحي

أو ينهشني أخي أو يرضى بنهشي

أن يلعنني صديقي أو يسعى لنبذي وإفنائي من الحياة

أي فيروس هذا الذي قد يحول هؤلاء الطيبين إلى وحوش ضارية أو يؤدي بأولئك الأهل لأن يصبحوا تلك الكائنات القاسية التي تنسى كل فضل وتكفر بكل سابقة ود بل يتحول كل ذلك الفضل والود والألفة إلى نقيضه وطرفه فتسعد تلك الكائنات بمصيبتي وتلعن مودتي وتزدري صحبتي ولا يشبعها إلا لون دمي

إنه مجرد خيال يستحيل طبعا أن يحدث في دنيا الواقع!!

هي فقط فانتازيا حولتها إمكانيات هوليود إلى واقع مؤقت سرعان ما يزول ويذوب بعد انقضاء الساعتين

لا داعي إذن للانقباض والتفكير في ذلك الكابوس المستحيل

فهي محض (تخاريف) لن تصير واقعا قط

طبعا طبعا

لا يوجد تحول ولا متحولين والبشر لا يتحولون أبدا إلى مجموعة من (الزومبي) للدماء شرهين وللضحايا تواقين

لن تزول إنسانيتهم قط ولن تضمحل فطرتهم مطلقا ولن يتحولوا أبدا

أليس كذلك ؟!

❋ ❋ ❋

٤. ولكل سنمار جزاؤه

على قبابه الذهبية انعكست أشعة الشمس لتلقي أضواءها المبهرة على الأبراج الشاهقة لذلك القصر المنيف الذي لم يُر مثله في تلك البقاع من قبل

نظر إلى القصر مشدوها فاغرا فاه وقد أذهلته روعة البناء وبديع زخارفه وانعكاساته الأخاذة

انبهار يعتريه رغم أنه هو مصممه ومهندس بنائه

انبهار جعله يتذكر تلك الأعوام التي قضاها في تزيينه والإشراف على إنشائه حجرا حجرا

عشرون عاما من الجهد المضني قضاها في صبر وجلد ليخرج هذا الصرح العظيم

عشرون عاما مرت عليه ثقيلة طويلة شاقة ما يخفف من مشقتها إلا المكافأة الأسطورية والجزاء الجزيل والمجد الخالد الذي يُمني ويذكر نفسه به كلما ثقل عليه العمل لإنجاز ذلك القصر الذي يراه الآن ماثلا أمام عينيه

سيقف التاريخ طويلا أمام اسمك يا «سنمار» حينما يُذكر ذلك البناء

بل إن شئت الدقة فقل هذه التحفة المعمارية الحضارية المذهلة

إنه قصر «الخورنق» الشهير

- ما هذا الجمال أيها المهندس

حقا لقد تفوقت هذه المرة على نفسك

هكذا صاح من خلفه منبهرا بالقصر المشيد

التفت ليرى محدثه فإذا به النعمان نفسه يقف خلفه فاغرا فاه أيضا لا يستطيع أن يرفع بصره الذاهل عن تحفته المعمارية

إنه النعمان بن امرء القيس اللخمي ملك الحيرة بشحمه ولحمه وجاهه وصولجانه

هو مليكه وسيده الذي كلفه بتلك المهمة منذ سنوات طويلة

ها قد حان الوقت وها هي نظرات الإعجاب تتقافز من عيني سيده

وها هي نفس مليكه بعمله تطرب وأساريره لتحفته تتهلل

هلم بنا سيدي ندور في أرجاء قصرك لتزداد به إعجابا ولتطيب به نفسا

دار «سنمار» -المهندس الشهير- في جنبات القصر مع سيده ومليكه النعمان وكلما تجولا في أرجائه كلما تحول انبهار النعمان إلى وَلَهٍ وعشق لتلك التحفة غير المسبوقة

وَلَه وعشق ممزوج بفخر وتيه كلما تخيل استعلائه على الملوك والعظماء بهذا الصرح التاريخي المهيب

إنه لا يكاد يصبر على تلك اللحظة التي سيرى فيها وجه سابور أمير الفرس وابن كسرى حين يطالع هذا القصر الذي يفوق قصر أبيه بالمدائن

لطالما راوده في أحلامه ذلك القصر الذي سيخلد مجده

وها هو أروع مما تصور وأعلى وأعظم بنيانا مما تمنى

لكن سرعان ما تحول العشق في صدر النعمان إلى قلق وانقلبت الآمال والأماني إلى هواجس وشكوك.

إنه قلق الامتلاك وهواجس ضياع ذلك السبق

ما الذي يمنع سنمار أن يبني قصرا مثل هذا أو حتى أفضل منه لغيره من الملوك والسلاطين ما داموا سيدفعون إليه الأموال ويجزلون له العطايا

ما الذي يضمن له أن يظل قصره الذي لم تكد تمر لحظات على امتلاكه له هو وحده الأعظم والأعلى ذكرا

هكذا حدثته نفسه المستكبرة

وهكذا تحولت نظرات الامتنان والتقدير إلى شك وطمع

وهكذا البشر عامة والطامعون الشرهون المتكبرون منهم خاصة

لا تملأ أفواههم إلا حفنة من تراب

وقف سنمار إلى جوار سيده بأعلى شرفات القصر متهللا مسرورا بما أنجز

هل قد حانت لحظة الجزاء وجزيل العطايا من ملك اشتهر بالغنى الفاحش والكرم؟!

- مالي أراك ساهما يا سيدي

هكذا سأله سنمار وابتسامة متلهفة مستجدية تتراقص على شفتين لا تدريان ما ينتظر صاحبهما بعد لحظات

- هل هُناك قصر مثل هذا القصر؟

سأله النعمان

فأجاب سنمار: كلا

فأردف الملك: هل هناك بنّاء غيرك يستطيع أن يبني مثل هذا القصر؟

قال سنمار: كلا

ثم استطرد مختالا: أما والله لو شئت حين بنيته جعلته يدور مع الشمس حيث دارت

هنا تأكدت شكوك النعمان

هناك إذن ما هو أفضل

يستطيع هذا المهندس أن يصنع قصرا أعظم

لا مفر إذا

لثوان لم يدرك سنمار ما يحدث

أوحقا يدفعه الملك؟!

أوحقا يلقي به النعمان من حالق؟!

هل هذا جزاؤه الذي طالما انتظره وتمناه وعمل لأجله ؟!

لم يصدق سنمار ما حل به إلا وآلام رهيبة تتصاعد من عظامه المتكسرة إلى رأسه الذاهل وقد استقر مهشما في فناء القصر وتحت ظلال أبراجه الشاهقة التي نافست في علوها يوما طموحاته وآماله

«جــزاني...

لا جــــــزاه الله خيـرا إن النعمان شرا جزاني

رصصت بنيانه عشرين حجة فلما أتممتـه عنـه رمــــاني»

هكذا ردد سنمار وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة

وهكذا عرف الذي كان ينتظره جرَّاء خدمة النعمان

عرف جزاءه

جزاء سنمار

وكل سنمار



٥. في بلاد العميان

كان يظن في البداية أنه سيتصدر المشهد

كان يعتقد أنه سيملك القوم عملا بقاعدة «الأعور وسط العمي مفتح»

و هو ليس بأعور بل هو مبصر تمام الإبصار

إنه الوحيد في تلك القرية الذي يرى وتعمل عيناه بكفاءة كاملة

لا شك أنه سيتزعمهم ويتقدمهم جميعا بتلك المزية

لكنه لم يلبث أن اكتشف حقيقة الأمر وأدرك أنه كان واهما

إنهم يريدونه مثلهم

بل لن يقبلوه إلا لو كان مثلهم

أعمى!!

إن طول فترة مباشرتهم للظلام جعلتهم يبغضون الضياء ولا يتصورون أن يكون من بينهم من يبصر ذلك النور أو يرى الدنيا بلون آخر خلاف اللون الحالك الذى يغشى مدينتهم الكئيبة

لذلك عاملوه كالمجنون الذي يهذي ولا يعقل

بل تمادوا أكثر

لقد طالبوه أن يفقأ ذلك العضو الغريب الذى يجعله مختلفا عنهم ويجعله يقول أشياءً ويرى أمورا غير التى ألفوها واعتادوا عليها وذلك إذا ما أراد التعايش معهم

لقد طلبوا منه أن يفقأ عينيه

و لقد كاد أن يفعل

الضغط الدائم والاستهجان المتواصل والرفض المستمر لما يقول ويرى جعله يقدم على تلك الخطوة ليستطيع الاندماج مع سكان تلك القرية التى ساقه القدر إليها ليفاجأ بأن كل سكانها من العميان

والقاعدة تقول «اللى زى الناس ما يتعبش»

لكن بطل القصة التي كتبها هربرت جورج ويلز فى مطلع القرن الميلادى الماضى تراجع فى آخر لحظة

لقد قرر مبصر الرواية الاحتفاظ بعينيه في اللحظة الأخيرة

قرر ألا يكون إمعة

قرر ألا يطمس بصره ليكون مثلهم ويعيش في سلام بينهم

لقد قرر أن يبصر ويرى

ويظل يبصر ويرى

حتى لو كان ما يراه مختلفا.....

للأسف كثير من مبصرى اليوم لم يفعلوا مثله

لقد قرر كثير منهم أن يركعوا للضغط وينحنوا للموجة

قرروا أن يخوضوا مع الخائضين حتى لو خالف ذلك ما يرونه ويعتقدونه

حتى لو خالف ذلك ضمائرهم ومبادئهم إن كان قد بقى منها شيء

هان عليهم أن يطمسوا النعمة التى أنعم الله عليهم بها فقط ليكونوا مثل الغير

نعمة البصر

والبصيرة....

رضوا بالظلام وليله الحالك فقط ليكونوا مثل غيرهم فصاروا عميانا بين العميان

❋ ❋ ❋

٦. ميتة برجر

تخيل لو أتى على الناس زمان اضطروا فيه لأكل الميتة!

لعلك سترد قائلا: عادى وماذا فى هذا؟!

لقد أباح ربنا هذا الأمر فى الاضطرار

وأنا سأقول: صدقت، ليس لدى مشكلة فى ذلك ما دامت الضرورة مقدرة بقدرها ومنضبطة بضوابطها

المشكلة التى لدىَّ فيمن يأكلها وينسى أنها ميتة

أو يُغفل فى خطابه بيان أن ما يفعله استثناء وليس أصلا

والأخطر والأبشع أن يخرج من يُنَظِّر لأهمية وفوائد أكل الميتة ويروج للناس فكرة أن أكلها أمر عادى وطبيعى بل وجميل ومفيد وأفضل من الطعام الطبيعي كمان

أسمعك تقول: وما له؟! إذا كنا كلنا عارفين إنها ميتة، وأن هذا خطاب استثنائى أو تورية ومداراة لكى تدور العجلة وتسير الأمور فماذا فى هذا؟

وذلك قد يكون صحيحا بالنسبة لك ولى وبالنسبة لزيد وعبيد الذين يعرفون الآن أنها ميتة، لكن حدثنى عمن سيأتى بعدنا..

حدثنى عن ولدى وولدك وابنتى وحفيدتك..

حدثنى عن الميتة حين توضع بعد فترة ومع مرور الوقت بين قطعتين من الخبز المنتفش المغطى بطبقة من السمسم وبينهما «الكاتشب» والمستردة والخس والمقبلات..

حدثنى حين تباع الميتة «سبايسى» و«أوريجينال» بعد عمر طويل من تمييع وتعميم خطاب الاستثناء والمبالغة فى التبرير وعدم تسمية الأشياء بأسمائها

حدثنى عن «الميتة برجر!!»

و«الميتة برجر» ليست فكرة خيالية أو بعيدة عن الواقع الإنسانى، بل هى فى الحقيقة عادة بشرية حين يتحول الشىء إلى أصل تصعب الحيدة عنه، ويتعود المرء على الخلل ويستمرئ غير العادة حتى تصير عادة طبيعية ليس فيها شىء

وتلك مشكلة تعميم خطاب الاستثناء وعدم بيان كونه استثناءً حيث تذوب الفوارق وتضيع الثوابت وتطمس المفاهيم ويصير الحرام حلالا والحلال حراما بل ومستحبا في بعض الأحيان

كم من أمور كانت مستغربة فى أولها مستهجنة فى بدايتها ثم تحولت مع الوقت وقلة النكير إلى أمور عادية.

يقول سيدنا أنس بن مالك ﷺ: إنكم لتعملون أعمالا هى أدق فى

أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله من الموبقات».

تخيل!

لم تمر أعوام بعد وفاة النبى ورغم ذلك استهان الناس بأمور كانوا يعتبرونها من الخطورة بمكان فى العهد الأول

ولنا عبرة وعظة فى القصة التى أوردها البخارى عن سيدنا عبد الله بن عباس والتي تحدث عن حقيقة «ودّ» و«سواع» و«يغوث» و«يعوق» و«نسرا» - تلك الأصنام التى كان يعبدها قوم نوح - فأخبر أن هذه الأسماء كانت لرجال صالحين عابدين لله ولما ماتوا اقترح البعض أن يتخذوا على أماكن عبادتهم أنصابا تذكرهم بصلاحهم وعبادتهم فيعبدوا الله مثلهم

فلما تعاقبت الأجيال ونسخ العلم ونسى الناس أصل تلك الأنصاب وعبدوها،

ومثله ما ورد عند ابن هشام من طريق ابن إسحاق عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها من أصل قصة الصنمين المعروفين بإساف ونائلة وكيف أنهما كانا قد وقعا في فاحشة فَمَسَخَهُمَا اللهُ حَجَرَيْنِ، فَنُصِّبَا عِنْد الْكَعْبَة، وَقِيلَ: عَلَى الصَّفَا وَالْمَرْوَة لِيَعْتَبِر النَّاس بِهِمَا وَيَتَّعِظُوا ثم مر الزمن أيضا ثم عُبدهم الناس من دون الله حتى دخل النبي ﷺ مكة فأمر بكسرهما

هذه نماذج واضحة لخطورة ضياع المفاهيم والثوابت ولتحول شيء

-ربما جاز في أصله أو صاحبته نية طيبة أو حتى اضطرار - إلى مصائب ومآلات خطيرة كمصيبة الشرك الذي وقع بعد ذلك في الأجيال المتأخرة من قوم نوح

إن الطريق من كون الفاحشة فاحشة إلى كونها أمر طبيعي وعادي بل ومستحب ليس طريقا قصيرا أو سريعا لكنه يمر بدرب التوارث والتطبيع التدريجي مع تلك الفاحشة

ولقد ظهر ذلك جليا في آية الأعراف حيث سبق وصف القوم للفاحشة بأنها أمر من الله قولهم ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾

لقد حدث التطبيع التدريجي مع الخطأ وتمت شرعنته وتسويغه بل وتزيينه

ربما تطلب الأمر عقودا وراء عقود وأجيالا تلو أجيال حتى صار في النهاية دينا يتدين به هؤلاء لدرجة أن قالوا عن الفاحشة بلا استحياء: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾

هنا كان لابد من البيان القاطع ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

إن التطبيع والتصالح مع الخطأ وتوارثه الأعمى قد يؤدي في النهاية لتلك المصيبة

أن تتحول الفاحشة إلى طاعة وأصل وأن تنطمس حقيقة كونها في النهاية فاحشة

اليوم يزعم البعض أن من اعترض على خلل شرعى أو انتقد انتهاكا لحرمة من حرمات الله أو توصيف لباطل على أنه حق فإنه بذلك متعجل سطحى لا يفقه معنى التدرج ولا يعرف حكمة المرحلية ولا يمتلك فضيلة الصبر والحلم والنظر للواقع وتقدير ضروراته

ولا أراهم قد أصابوا فى رأيهم هذا مطلقا

ذلك لأن بيان الحق الذى يدين به المرء والمفاصلة بين الصواب والخطأ حفظا للمفاهيم ورعاية لثوابت الدين لا علاقة له بتدرج أو مرحلية فى التنفيذ إنما له علاقة بإبراء الذمة والصدع بما يعرفه المرء من شرع ودين، وهذه ثوابت فى أصلها لا تتبدل ولا تتغير ولابد للناس أن يعرفوها وتتشربها قلوبهم ولابد أن يظل في الناس من يعلنها ويظهرها ويحافظ عليها وإن ضحى في سبيل ذلك بالغالي والنفيس.

قد يأكل الإنسان الميتة يوما ما مضطرا لكنه أبدا لا يقول لمن بيَّن للخلق أنها فى الأصل محرمة لا تفعل، فأنت بذلك تشغب على مرحليتنا وتثقل علينا وتسيء الظن بنا ولا تفهم معنى الاضطرار،

ولو أن من وقفوا على ثغر البيان والصدع أجابوا مثل تلك الدعوات لما

عُرف في النهاية معروف ولا أنكر منكر ولا ظهر حق أو أبطل باطل، ولأتت أجيال تقول حين تُذَكَّر بالحق: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾،

ولصارت الميتة يوما ما حلالا وربما مستحبة ولربما وجدنا هذا الاسم الخيالى الذي ذكرته منذ بضعة أسطر يتحول لحقيقة واقعة فتصير «الميتة برجر» شيئا ملموسا

وجذابا

حينئذ «ابقى قابلنى» لو استطعت أن تقنع أحدا أنها ميتة أو أنها حرام

لذا فينبغى على أصحاب خطاب الاستثناء والمترخصين أو الذين اختاروا المداراة والتورية (بغض النظر عن جواز ذلك وصحته أصلا من عدمها) ألا ينسوا أبدا أن ما يفعلونه هو فى النهاية على أقصى تقدير أمر طارئ أو هكذا يفترض أن يكون

وأن الأصل أن تسمى الأشياء بأسمائها فتظل الخمر خمرا وليست مشروبا روحيا، ويظل الربا ربا وليس فوائد أو مصاريف ويظل الكفر كفرا والإيمان إيمانا

وليتوقف هؤلاء عن النكير على من يبين هذا للناس لعل الميتة تظل للنهاية ميتة ولا تتحول يوما إلى...

«ميتة برجر».

٧.العلبة دي فيها فيل

- العلبة دي فيها إيه

- خاتم

طراااااخ

صوت الصفعة يدوي بعد أن هوت يد توفيق الدقن الثقيلة على قفا عبد المنعم إبراهيم ثم كرر الدِّقِن سؤاله من جديد: العلبة دي فيها إيه

بصوت باكٍ متهدج يرد عبد المنعم مرة أخرى: خاتم خاتم

تدوي الطراااااخ من جديد ومعها هذه المرة صوت توفيق الدقن يلقنه الإجابة التي يريدها

- لا... العلبة دي فيها فيل

فيل؟!!!

طب إزاي

كيف لتلك العلبة المخملية الصغيرة التي هي بالكاد تكفي خاتما بفص متوسط الحجم أن تسع فيلا؟!!

مش مهم

المهم إن الفتوة عايز كدة

المهم أن هذه هي إرادة صاحب الصوت العالي والكف الثقيل

خلاص

يبقى فيها فيل

فيها إيه؟!!

- فيل فيل بزلومة

فيييييل

هذا المشهد القصير من فيلم طاقية الإخفاء يمثل ببساطة مناط الخطورة الأهم في رأيي لتلك القضية التي كالعادة لم أشأ أن أعلق عليها أثناء فورانها وموجة المزاح والنكات التي أطلقت أثناءها

قضية الإشارات التفجيرية لإعلان أبلة فاهيتا الإرهابية

تلك القضية التي لا أعرف إلى أين وصلت التحقيقات فيها ولا يهمني أن أعرف

ما يهمني في الحقيقة هو المغزى من تلك القضية ومثيلاتها

مغزى القهر الفكري والمعنوي الذي يجعلك تضطر لأن تناقش البديهيات الحمقاء مع البعض بل وأن يضطرك بعض أولئك البعض أن تقول مقهورا كما قال عبد المنعم إبراهيم: العلبة فيها فيل

كثير من المحللين الجادين حاولوا تجاوز موجة الهزار (المنطقية) لتلك القضية (اللامنطقية) وكتبوا تحليلات واحتمالات عن كون تلك القضية تمثل نوع من الضغط مثلا على شركات المحمول بالتزامن مع تسريبات المكالمات للنشطاء وبعضهم قدم سوء الظن وأشار إلى أنها نوع من التنافس غير مشروع بين شركات المحمول والبعض افترض حتى احتمالية أن تكون نوعا من الدعاية غير المباشرة للشركة

والبعض اكتفوا بالضحك

وحق لهم أن يضحكوا على هذه المهزلة ويعتبروها وسيلة للـ"قلش" كما بتعبير الشباب واعتبروها مزيدا من هزلية المشهد التي تخيم على الأجواء في مصر منذ سنوات

لكن كل تلك التحليلات أو المزحات لا يعنيني قدر ما يعنيني مناقشة الأثر واستقراء آلية فرض تلك المفردات على المشهد بالعافية حتى تصبح بعد حين جزءا طبيعيا منه كما صار غيرها وكنا لا نتصور أبدا أن الهزار يقلب فيها بجد

آلية فرض المفردات الهزلية بالصوت العالي واليد الثقيلة والتهديد بالأمن القومي كلما اعترض معترض كما فعل ذلك الإعلامي الشهير حينما وجد استهجانا من أحد المسئولين عن إعلان أبلة فاهيتا فما كان منه إلا أن

عنفه زاجرا إياه عن التهوين من شأن تلك القضية الفظيعة

ومع الإصرار على غرس تلك المفردات والمفاهيم الهزلية يعجز أي منطق عن الاستمرار مع هذا المستوى

وحينئذ يفقد البعض الأمل

وتصير مهمة المصلحين والمهتمين بغرس الوعي أكثر صعوبة

فماذا ستفعل في خضم هذا التسطيح الإجباري؟

ماذا ستفعل وأنت تشاهد برامج جادة تستضيف دمية أو عروسة لشخصية هزلية ويحدث حوار معها على (التليفزيونة) يهددها فيه بالسجن شخص صار من نجوم المرحلة فترد عليه الدمية بكلمتها المشهورة: يا سوسو!!

كيف ستواجه من سيعتقد بعد ذلك أن اسمك فيه إشارة ماسونية ونظارتك تحوي جهاز تجسس كوني وقلمك يرسل إشارات للعوالم الموازية التي تتآمر على أرضنا الطيبة

إنه ليس غرسا للتسطيح والبلاهة وحسب

إنه غرس لليأس

بل غرس للغضب والتقزز من هذا الدرك الذي نصر على حفر طريقنا إليه

لن أقول بجزم تحليلي مبهر كعادة من أنتقدهم أن تلك هي حقيقة المؤامرة الكونية حول قضية أبلة فاهيتا الإرهابية ولكنني سأقول أن هذا هو الأثر الأخطر والمآل الأبشع لمثل هذه النوعية من القضايا الإعلامية

حين تستسلم العقول لهذه البلطجة الفكرية خوفا من سيف التخوين والرمي بالتهم المعلبة حتى تصير في النهاية فاهيتا جاسوسة إرهابية و تصير العلبة

فيها فيل..



٨. وما أدراك ما الفيل؟!

لطالما كانت الموسيقى التصويرية التي تحيط بخطب الزعماء وكلمات القادة المفوهين هي التصفيق العارم والهتاف المغرم بفصاحتهم وقدرتهم على تحريك القلوب والمشاعر من خلال كلماتهم الملهمة وخطبهم العصماء

وليس من العجيب أن تهلل الجماهير لأصحاب ما يسمى بـ(الكاريزما) أو أن يتبع الناس أهل البلاغة والفصاحة وسحر البيان وإن من البيان لسحرا كما صح عن النبي ﷺ

ليس هذا عجيبا

بل هو ما جرت عليه عادة المهللين في كل زمان ومكان ممن يميلون مع كل ريح ويرددون لكل زعيم قادم تلو زعيم ذاهب: مات الملك... عاش الملك.. يحيا الملك

العجيب حقا والذي يجعل المرء في حالة من الدهشة هو تهليل الجموع واتباعها لمن يفتقد أدنى معايير المنطق أو حتى البلاغة وسحر البيان بل ربما تجد لسانه مسلطا عليه يوجهه إلى فضح نفسه وبيان كذبه وتهافته

كما كان الحال عند مسيلمة

ذلك الرجل الذي ادعى النبوة ونسب لنفسه قرآنا حاول فيه محاكاة النسق القرآني البديع بكلمات مسجوعة لا تحمل إلا ركيك المعاني وسفه القول وضعها بغرض فتنة الخلائق فكانت ركاكتها وخفتها وسطحية وتفاهة معانيها سببا فى احتقار العقلاء له ولها

لكنها مع ذلك وجدت آذانا صاغية وأتباعا على استعداد أن يضحوا بأنفسهم لأجل واضعها

بل إن المتأمل في قرآنه المزعوم يشعر أن الله قد قهر لسانه فجعله ينطق بأعاجيب حملت دلائل كذبه وسفاهته وركاكة أسلوبه وضحالة أفكاره فى طياتها

«الفِيلُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْفِيلُ، لَهُ ذَنَبٌ وَبِيلٌ، ولَهُ وَخُرْطُومٌ طَوِيلٌ»

«يا ضفدع بنت الضفدعين.. نقي لك نقين، لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين رأسك في الماء، وذنبك في الطين»!!

«والليل الأطحم، والذئب الأدلم، والجذع الأزلم، ما انتهكت أسيد من محرم والليل الدامس والذئب الهامس ما قطعت أسد من رطب ولا يابس»

«وَالطَّاحِنَاتُ طَحْنًا، فَالْعَاجِنَاتُ عَجْنًا، فَالْخَابِزَاتُ خَبْزًا، والآكلات أكلا، فاللاقمات لقما، إِهَالَةً وَسَمْنًا»

كانت تلك بعض المقاطع مما يسمى بـ«قرآن مسيلمة»

وحقا لقد كانت كلماته نموذجا عجيبا لقهر اللسان

لو تأملنا سيرته وأمثاله من المدعين وكيف قالوا من الكلمات ما جعلهم أضحوكة العالمين ومحل تندر العاقلين لوجدنا على ذلك من الأمثلة الشيء الكثير

وقديما قال الأولون: كاد المريب أن يقول خذوني

لعل ذلك من تجليات اسم الله القهار الذي يقهر ألسنة الكاذبين والمنافقين والأفاكين فتنطق من الخزعبلات ما يكشف الله بها سترهم ومن الترهات ما يفضح الله به سريرتهم ومن الزلات ما يُجلي للخلق حقيقتهم ولتعرفنهم في لحن القولك وليهلك من هلك عن بينة

لقد ورد أن سيدنا عمرو بن العاص ﵁ قد لقيه قبل إسلامه فتلى عليه مسليمة الكذاب إحدى خزعبلاته يقول فيها: يا وبر إنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حقر نقر

ثم سأله: كيف ترى يا عمرو؟

فقال له سيدنا عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب

لقد علم عمرو بن العاص ذلك بفطرته وأدرك قبل حتى إسلامه حقيقة هذا السفيه كما علمها كثيرون أنفوا أكاذيبه المثيرة للسخرية

لكنه رغم ذلك وجد من يتبعه بل من يهلل له ويفديه بدمه

وذلك لشيء يقال له الهوى

الهوى الذي يعمي عن كل شيء آخر

يتفرع عن ذلك الهوى كل فروع التعصب والتحزب والبراجماتية العفنة التي لا تحرص إلا على مصالحها أياً كانت السبل الموصلة لتلك المصالح ومهما فاحت رائحتها العفنة تزكم أنوفا وتتقزز منها عقول

لقد أعلنوها صريحة: «وإن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مُضَر»

كأنهم يقولون بصراحة ومن الآخر: ستتبعه رغم علمنا بكذبه وسفاهته

لقد أقروا بكذبه كما أقروا لنبينا ﷺ بالصدق الذي طالما عُرف به وطالما ظهر في كلامه وظهر أكثر من خلال الوحي المنزل من عند ربه يتلوه عليهم ويسمعونه ويؤثر فيهم حتى يقول أحدهم عن ذلك الوحي «إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلى عليه»

هذه الكلمات قالها عن القرآن رجل مشرك لكنه مع جمال وصفه للقرآن لم يتبعه!!

لم يتبع كتابا شهد له بأنه يعلو ولا يعلى عليه ولم يؤمن لرسول رأى ورأى الملأ من حوله في خاص مجالسهم أنه ليس بساحر ولا كاهن ولا مجنون

لكنهم مع ذلك آثروا هواهم وغلبت عليه شقوتهم وعصبيتهم كما غلبت على قوم فرعون الذين قال الله عنهم ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾

لقد استيقنوا صدق رسالة موسى في أنفسهم لكنهم مع ذلك جحدوها على الملأ واتبعوا أمر من استخفهم كما اتبع أقوام من بعدهم مسيلمة

وكما يجد كل مسيلمة من يتبعه ويهلل له..

اتبعوهم لا لشيء إلا لأهواء عبدوها ومصالح طلبوها وعصبيات اعتنقوها

اعتنقوها ودافعوا عنها وعمن انتعلوهم وانتعلوها متعامين عن كل سفه وهذيان يصدر منهم حتى لو كان من نوعية:

«الفيل..

وما أدراك ما الفيل»



٩. فكر بشكل مختلف

دعونا لا نفعل ما يفعله الآخرون، ولا نستنسخ ما ينتجون
دعونا لا نقلد «مايكروسوفت» أو نطارد «أي بى إم»،
دعونا نفكر بشكل مختلف..

هكذا تحدث «ستيف جوبز» الأب الروحى لأجهزة الـ«أى» بكل ما يأتى بعدها سواءً «آيباد» و«آيفون» و«آيبود» ومؤسس أسطورة التفاحة المقضومة الشهيرة والتى تمثل العلامة المميزة لشركة «أبل» وهو أيضا مؤسس شركة «بيكسار» التى صنعت ثورة أخرى فى عالم أفلام الرسوم المتحركة.

كانت تلك الكلمات تمثل صافرة البداية لتغيير شكل السوق التكنولوجية فى العالم خلال العقد والنصف الأخير

لقد قال «جوبز» تلك الكلمات عند عودته أواخر التسعينيات إلى شركته التى كان قد طُرد منها قبل عشر سنوات، وبالرغم من كونه مؤسس الشركة إلا أن قوانين السوق القاسية لم ترحمه وتم إخراجه لتمر تلك السنوات ثقيلة على شركة «أبل»، وتكاد أن تُختم بانهيارها أمام منافسها

العتيد «بيل جيتس» وشركته «مايكروسوفت»، بينما أعاد «جوبز» بناء نفسه وأسس شركتين جديدتين إحداهما هي شركة «بيكسار» والتى صنعت ثورة أخرى فى عالم أفلام الرسوم المتحركة وأعادت «جوبز» لنادى

المليارديرات، مما اضطر «أبل» للاستغاثة من جديد بمؤسسها القديم صاحب الرؤية الثورية والعقلية المبتكِرة

وخرج ذلك الشعار: «فكر بشكل مختلف»

لم تكن تلك الكلمات مجرد أيقونة دعائية تنطلق معلنة عودة «أبل» من جديد إلى المنافسة، ومغيرة شكل السوق التكنولوجية فى العالم خلال العقد والنصف الأخير ولكنها كانت رسالة لمهندسيي ومخترعي وموظفى شركة «أبل» أنفسهم

رسالة مفادها: لابد من التفكير خارج الصندوق

لابد من روح الابتكار

لقد كان «جوبز» متأثرًا بمقولة رائد صناعة السيارات الأمريكية «هنري فورد»: «لو كنت قد سألت الناس عما يريدونه لقالوا لي إنهم فقط يريدون حصاناً أسرع»،

وهذه حقيقة يشهد بها الواقع والتاريخ..

فالأصل أن الناس أسرى لما يعتادونه ويصعب أن يطلبوا شيئا خلاف

ما ألفوه

وما كان لصاحب رؤية أن يقدم جديدًا لو ظل يسير خلف نظرة الناس النمطية ومطالبهم التقليدية،

ولم يكن العالم ليشهد تلك الثورة التقنية والمعلوماتية الهائلة لو استمع أصحاب العقول لما يمليه الجمهور وحسب

وللأسف كثير من أصحاب الفكر والقيادة يظلون دائما أسرى نمطيات الأتباع

بينما يتحرر المجددون من أغلال النمطية ويحاولون التفكير بشكل مختلف.

وهكذا كان «جوبز»

وهكذا بث فيمن حوله تلك الروح، ولم تمض شهور حتى كان فى الأسواق أحد أكثر أجهزة الكمبيوتر مبيعًا فى التاريخ وهو «الآيماك» ذلك الحاسب الذي كان مختلفا بشدة عن أقرانه في الشكل والأداء والجودة

ولقد كان النجاح ساحقا وملفتا لدرجة أن معدل البيع وصل إلى جهاز كل ١٥ ثانية

ثم لم يلبث «جوبز» أن أطلق «الآيبود» الذى شكل نقلة نوعية في عالم التقنيات الصوتية.

بعدها كانت المفاجأة وانطلق «الآيفون»، وصار الكمبيوتر يسكن الهواتف المحمولة، وأصبحت تقنية التعامل باللمس فى متناول الجميع ثم تلاه ظهور آخر تحفة تكنولوجية قدمها «جوبز» في مؤتمراته الشهيرة وهو «الأيباد»

إن «جوبز» لم يكن مخترعًا، بل هو في الحقيقة لم يكمل دراسته الجامعية، ولقد تعرض للفشل أكثر من مرة، لكن الفارق الذى صنعه، والذى جعله يعود كل مرة ليقف على قدميه من جديد مرجعه إلى أمر مهم ومحوري وتأسيسي

مرجعه إلى أنه رفض ذلك الفشل ولم يتكيف عليه ولا على شعور اليأس والإحباط، أو يبحث لنفسه عن شماعات ومبررات تسوغ له ذلك الفشل ولكنه ظل دومًا يفكر بشكل مختلف، ويبث فيمن حوله تلك الرؤية المبتكرة والتى لا ترضى إلا بالأفضل.

وهكذا الفارق بين الناجح والفاشل

فالأول يرنو إلى السحاب بينما الثانى منشغل بالأرض مخلد إليها،

الأول يسمو بين القمم بينما الثانى يزاحم الرمم،

الأول لا يقبل أن يسبقه أحد ولا ينظر إلا للأكمل ولا يقبل المقارنة إلا بالأعلى، أما الثانى فإنه يلحظ دومًا من هو أدنى ولا يضره أن يكون متأخرًا

فى نهاية الصف ما دام مطمئنًا أن هناك من لم يزل متأخرًا عنه وإن كان فردًا واحدًا!!

إن من قادوا التغيير في العالم هم أولئك الذين استطاعوا أن يحلموا وأيقنوا أن لديهم القدرة على تحقيق أحلامهم دون البحث عن شماعات ومبررات خارجية تسوغ لهم الفشل؛

أناس أصحاب قلوب قوية قادرة على الحلم ولديها يقين بإمكانية تحقيق هذا الحلم.

أما أولئك الذين لا يعرفون في حياتهم إلا نظرية (اللي زي الناس ما يتعبش) فلا ينظرون إلا تحت أقدامهم ولا يملكون القدرة على الحلم وإن حلموا فإنهم لا يرون إمكانية تحقيق حلمهم معتقدين دوما أنه ليس في الإمكان أحسن مما كان؛ فإن أقصى نشاطهم تحريك رؤوسهم وإدارة أعينهم ليراقبوا أولئك الذين قرروا أن يتجاوزوهم ويفكروا ويغيروا

إن صاحب الرؤية لا يرى نفسه ظلاً لغيره لكنه يثق أنه يستطيع أن يضع بصمته، وأن يقدم لمن حوله شيئًا جديدًا لا يتوقعونه، وربما لا ينتظرونه،

لكنه في النهاية سيبهرهم، والأهم أنه سينفعهم

فقط إذا لم يفقد الأمل وقرر أن يستمر ويفكر بشكل متجدد ومبتكر ومختلف.

١٠. كيبورديـــــون وكيبورديات

معقول يا مولانا؟!

هتسجل القرآن بصوتك؟!

هيبقى فيه مصحف مرتل مش ورقي؟!

سور كتاب الله هتبقى على اسطوانات؟!

وهل هذا جائز شرعا؟!

كان هذا جزءا من أخذ ورد ومحاورات ومناقشات طرحت عندما قبل الشيخ محمود خليل الحصري فكرة تسجيل القرآن بصوته على اسطوانات ليكون بذلك أول من يسجل القرآن كاملا برواية حفص على مستوى العالم وذلك في مطلع الستينات من القرن الميلادي المنصرم

ولقد ذكر لي بعض علماء القراءات من المخضرمين بارك الله في أعمارهم كيف أن الفكرة في البداية كانت مخيفة وكيف أن جل قراء هذا الزمان -إن لم يكن كلهم عدا الشيخ الحصري- قد رفضوها ابتداء كما ترددوا كثيرا من قبلها حين بدأ الترتيل في إذاعة القرآن الكريم التي كان الشيخ الحصري من

روادها أيضا

البعض يزعم أن رفض القراء كان نابعا من أسباب مادية فقط وأنهم كانوا يخشون أن يؤثر ذلك على استدعائهم في المناسبات المختلفة ليرتلوا القرآن ترتيلا وأن يستعيض الناس عن أريكة القارىء العتيقة بجهاز جرامافون أو راديو يستمعون من خلاله إلى تلاوة القرآن فلا تعود حاجة إليهم ويقطع عيشهم كما يقال

وهذا في الحقيقة غير صحيح بهذا الإطلاق فإن منهم من كان لا يفكر في المادة بهذه الطريقة

لكن المسألة كانت ببساطة رهبة الجديد كان الخوف من المجهول ومهابة أن تكون الأول والرائد رغم أن خيرية الأمر ظاهرة ونفعه واضح لا تخطئه عين فقيه لكن لما زالت الرهبة وأخذ الحصري زمام المبادرة فسجل المصحف بقراءة حفص عن عاصم ثم تلاه بعدها ليكون أيضا أول من سجل المصحف بقراءة ورش عن نافع

هنا أقبلوا وبدأوا تباعا في تسجيل القرآن ليتردد صدى أصواتهم في أنحاء الدنيا وليصبح الناس كل يوم على صوت الحصري الرخيم أو تلاوة المنشاوي الخاشعة أو روعة ترتيل عبد الباسط رحمهم الله جميعا

لكن يظل السبق للحصري فهو الذي استطاع أن يواجه رهبة الجديد

ويقتحم خوفه من المجهول ولا يأبه باستهجان المستهجنين أو مزايدة المزايدين

وكذلك كل جديد دائما ما يواجه بعراقيل الخوف وعوائق الاستهجان وربما التحقير من شأنه وامتهانه من البعض

أذكر جيدا في التسعينات حينما بدأت شبكة الإنترنت في الدخول إلى المنازل كيف أن كثيرا من أصحاب الفضيلة بارك الله جهدهم وأعمارهم قد تحفظوا عليها جدا في ذلك الحين بل إن منهم من أفتى بحرمتها أصلا وحذر الناس منها ثم كان لها أبلغ الأثر بعد سنوات في نشر دعوتهم بفضل الله إلى الآفاق وصارت مواقعهم الإلكترونية وموادهم الصوتية والمكتوبة تجوب الدنيا بأسرها ولله الحمد والمنة

لكن في البدء كانت الرهبة وربما التهوين من شأن الفائدة والنفع والتحفظ على الجديد

وهذا الأمر ليس بمستحدث

فدائما ما كانت الرهبة من الوسائل الحديثة والطرق الجديدة والسبل المبتكرة ولو رجعنا في دفاتر التاريخ وقلبنا في صفحاته القديمة لوجدنا في البداية تحفظا على جمع المصحف وكيف أن بعض الصحابة الكرام رضوان الله عليهم قد هاب أن يفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ رغم أن الحاجة

صارت ملحة إليه بعد مقتل الحفاظ والقراء في حروب الردة ثم الحاجة بعد ذلك في عهد عثمان ﷺ وقد فتحت الأمصار واتسعت رقعة البلاد الإسلامية وصار من المتعذر أن يصل القرآن كاملا لتلك القفار البعيدة والأمم الجديدة

هنا قرر الصديق ﷺ أن يجمع المصحف وزالت الرهبة وشرح الله صدور الصحب الكرام وكان الفضل العظيم

لا شك ان المثال عظيم ولا يطابق بكل جوانبه ما ألقي الضوء عليه في هذا المقال لكنني فقط أشير هنا إلى نقطة الرهبة من جديد الوسائل ولوازم التطور في الآليات والتحفظ على ذلك ابتداء وهذا ما ستطالعه كلما قلبت صفحات التاريخ وتجولت بين فصوله

فالأصل أن كثيرا من الناس ملازمون لما يعتادونه ويصعب عليهم جدا أن يقبلوا شيئا خلاف ما ألفوه.

وللأسف كثير من أصحاب الفضل أو القيادة يظلون دائما مرتبطين بتلك النمطيات، أما المغيرون المجددون فإنهم يتحررون من أغلال النمطية ويفكرون بشكل مختلف ومبتكر وعصري ويتعاملون مع الوسائل بنوع من العملية ما دامت لا تخالف أصلا شرعيا أو معتقدا إسلاميا وغاية ما فيها أنها جديدة غير مألوفة

«لو كنت قد سألت الناس ماذا يريدون لقالوا لي إنهم فقط يريدون حصاناً أسرع»

تلك المقولة المنسوبة لهنري فورد رائد صناعة السيارات المعروف تلخص تلك القضية بشكل واضح

فالناس معذورون في هذا الرفض أو قصور الرؤية وذلك لأنهم كما قلت آنفا أسرى لما يعرفونه ويعتادونه وما كان لصاحب رؤية أن يقدم جديدًا لو ظل يسير خلف نظرة الناس النمطية والتقليدية، ولم يكن العالم ليشهد تلك الثورة التقنية والمعلوماتية الهائلة لو استمع أصحاب العقول لما يمليه الجمهور فرضخوا لوسائلهم القديمة وحسب

لذا تجد الشرع في نطاق الوسائل القابلة للتحديث يذر مجالا للتجديد والتطوير ولا يغلق إمكانية التحديث والتغيير فقط يضبطها بضوابطه وحدوده فتظل الوسائل لها أحكام المقاصد فلا تستعمل وسيلة محرمة لمقصد حلال بل لابد أن يكون الطريقة جائزة لتؤدي إلى الغاية الجائزة

هذا هو الشرط أما من حيث التفاصيل والأدوات فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن جعل لكم الخيل والبغال والحمير لتركبوها هو القائل في ذات الآية ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ المسألة إذن ليست قاصرة على سيف أو رمح أو خيل ودواب ولكن انطلقوا وابتكروا وجددوا ما استطعتم ما دام

كل ذلك في إطار من الضبط وعدم التجاوز والانتهاك لحدود الله

لكن مع هذا تصدق في كثير من الخلق مقولة الشيخ الغزالي رحمه الله: لكل جديد رهبة مهما كان هذا الجديد مغرياً وأمراً يتمناه المرء طوال حياته ويسعى إليه!

وأزيد: ولكل جديد تهوين واستهجان يصل مع البعض إلى احتقار ممارسيه والتقليل من شأنهم وآثارهم

أقول هذا الكلام اليوم بعد هذه المقدمة الطويلة والتي أراها ضرورية بعد أن صارت مصطلحات تتردد وتلوكها الألسنة دون أن تعي ما يحمله إطلاقها بهذا التعميم المخل من تحقير وتهوين

وفي الحديث «بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم» رواه مسلم

مصطلحات من نوعية فقهاء الكيبورد ومناضلي الفيس بوك ومجاهدي الفضاء الإلكتروني

تلك المصطلحات التي تحتاج اليوم إلى تقنين وتفصيل بعد أن صارت سيفا مصلتا على من تصدروا في تلك الوسيلة وصارت تشهر في وجوههم كلما خالفوا أو انتقدوا أو كان لهم رأي على غير ما يريده أولئك الذين يستعملون تلك الألفاظ والاصطلاحات بلا تمييز

والحقيقة أن بداية تلك الاصطلاحات أطلقها بعض الكرام وأهل

الفضل لتوصيف ظاهرة بعينها وهي ظاهرة التعدي اللفظي والسب والانتقاص التي يقوم بها البعض على شبكات التواصل محتمين بشاشاتهم مجترئين من خلف (كيبورداتهم أو ألواح مفاتيحهم) متعالين على غيرهم تذببوا قبل أن يتحصرموا وتصدروا قبل أن ينضجوا واستعملوا تلك الوسيلة (والتي أؤكد وأكرر أنها وسيلة) في حروب لفظية واشتباكات يحدوها فحش القول والبذاءة دون أن يرعوا لكبير قدرا ولا يحفظوا لعالم حقا

هذا ما أتصوره من أصل لتلك المصطلحات عند نشأتها منذ شهور أو أعوام وما فهمته من مقاصد الكرام الذين اطلقوها ابتداء

لكن المشكلة كما قلت أنها لم تعد كذلك وصار مدلولها عند البعض مختلفا تماما بل صارت سلاحا في أيديهم يرمون به من يخالفهم من خلال تلك الوسيلة بأنه مجاهد (كيبورد) المفارقة الطريفة أنهم يكتبون ذلك على (كيبوردات) أيضا لكن يبدو أن (كيبوردات) هؤلاء مختلف عن (كيبورداتنا) وبالتالي لا ينطبق عليهم ما ينطبق علينا

ولا مجال اليوم للهرب من تلك التصنيفات والمصطلحات بل أحيانا لا مجال لمجرد نقدها وكأنها قد اكتسبت قداسة وعصمة نظرا لفضل مطلقيها بينما هي كما قلت قد غادرت مقصدها الأول ولم تعد متعلقة ببذاءة ذلك

الكيبوردي أو فظاظة تلك الكيبوردية

فحتى لو أنك تطلب العلم الشرعي منذ نعومة أظفارك وتدرسه في محاضراتك وخطبك وحلقاتك منذ سنوات ومهما صنفت من المصنفات وكتبت من الكتب أو المقالات والردود والمتابعات والمناظرات في جرائد أو مجلات فما دمت قد تجرأت على مقدس (التابوهات) وسولت لك نفسك بعض الردود والمتابعات والانتقادات فأنت من الكيبورديين والكيبورديات لا مهرب من ذلك ولا انفلات

لكن الحقيقة أن تحقير صاحب الرأي والمسارعة لازدرائه أو انتقاص قدره والتشكيك في علمه أو فهمه أو إدراكه عند مخالفته أو رفضه لمواقف حزب او جماعة أو متبوع هو محض ضعف وحيلة عاجز خاوٍ إن كان مبناه على شخص القائل نفسه أو الوسيلة التي يستعملها وليس بناءً على رأيه وطرحه وموقفه

ولو كان فاعل ذلك منصفا صادق الرغبة في البحث عن الحق لقبله من أي مخلوق فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى الناس بها حتى لو وجدها مع مسكين لا يملك إلا قلمه أو لوحة مفاتيحه ويرفض أن يقدم كشف حساب لعمله وبذله في الواقع نتيجة مزايدة مزايد أو تحقير مستهجنٍ مزدرٍ

وليس ذنب البعض أنهم لا يجدون منبرا آخر وقد غُلِّقت الأبواب في وجوههم ولم تبق لهم ليصدعوا بكلمة يرونها حقا إلا لوحات مفاتيحهم أو كيبورداتهم

العجيب أنه وبعد مرور أعوام طويلة على ظهور تلك الوسائل وبعد وقوع أحداث فارقة ومنحنيات مزلزلة كان منشأ كثير منها هو تلك الوسائل لم يزل البعض يتحفظ ويزدري أهلها أو متقنيها والمتعاملين معها والحقيقة أن هذا أمر مثير للدهشة وللحيرة للغاية

لماذا نعتبر الفيس أو تويتر أو أي موقع آخر يدعو المرء من خلاله أو يطرح رأيه أو يسهم بنتاجه العلمي أو الفكري مبررا لتدني النظرة إليه أو اعتباره أقل من الوسائل الأخرى

هل قصر السلف الصالح رحمهم الله على وسائل المعينة كأن يكتفوا مثلا بالمدارسة في المساجد وحلقات العلم مقصرين في كتابة الكتب وتصنيف المصنفات التي بقيت تراثا هائلا من بعدهم؟ الجواب: لا بل جابوا الدنيا بمشارقها ومغاربها لنشر دعوتهم وإبلاغ علومهم لخلق الله بكل سبيل

وهل كانت لدى مفكري الحركة الإسلامية ورروادها عبر التاريخ وسائل لتوصيل ما عندهم فلم يستغلوها؟؟

الجواب: لا

فالمتبع على سبيل المثال لجهد الشيخ محب الدين الخطيب والشيخ محمد رشيد رضا وغيرهم في مطلع القرن العشرين لوجدوا حرصا من أولئك الرواد رحمهم الله على إخراج المجلات العصرية التي تواكب الحقبة الثقافية التي عاشوا فيها وفي عصرهم ظهرت الجمعيات العلمية والدعوية والخيرية وكان لهم دلو فيها وسهم في خيرها

فهل يتصور أحد أنه لو كان لدى أولئك الرواد فرصة ليتحفونا بمقولاتهم ومقالاتهم ويصدعوا برسائلهم وأصول دعوتهم وأفكارهم من خلال الشبكة العنكبوتية ومواقع التواصل لما فعلوا ؟!

هل لو كان لدى المصنفين الأوائل والأئمة الموسوعيين أمثال البخاري ومسلم وأحمد معرفة بـ (البي دي إف) والمواقع الوقفية التي تعنى بنشر الكتب العلمية الإلكترونية كانوا ليتخلفوا عنها رحمهم الله ؟!

أعتقد أن الناظر في حرص أولئك القوم على البلاغ وحفظ العلم ونشره سيجد الإجابة ماثلة أمام عينيه والله أعلم

إن الإنترنت وشبكات التواصل فيه هي كما بينت مجرد وسائل كما أوراق الكتب وسيلة وكما الإذاعة والتلفاز والمحاضرة المسجلة على شريط كاسيت او سي دي هي وسائل ويبقى المعيار هو المحتوى والقيمة وليس من أساء الاستعمال حجة على من أحسن

لذلك فلابد من تفصيل حين استعمال تلك المصطلحات ولربما يأتي يوم يكون نفع أولئك الذين يحتقر جهدهم ويزدرى عملهم أعظم وأكثر تأثيرا من غيرهم وفي النهاية كلها ثغور لا يفترض أن يستعلي من يقفون عليها بعضهم على بعض

وسواء صدرت الكلمة من قلم أو لسان أو لوحة مفاتيح فسيسأل المرء في النهاية عن فحواها ومحتواها وهل وافقت حقا أم صادفت باطلا وهنيئا لمن وافق كلامه الحق حتى لو كان من أولئك... الكيبورديين والكيبورديات



١١.من أدخل الخنزير؟!

لم تكن حياة ذلك الرجل اليهودي سهلة مطلقا

حجرة ضيقة يعيش فيها هو وأمه وزوجه وأولاده السبعة

لقد صارت الحياة لا تطاق وصار الانتقال إلى منزل أوسع ضرورة ملحة

لكن كيف والفقر صاحبه والعوز وقلة ذات اليد رفاق دربه؟

ما كان من الرجل إلا أن ذهب إلى حاخام القرية يشكو إليه حاله ويسأله المشورة قبل أن يطيش عقله ويقدم على فعل جنوني لا تحمد عقباه

طلب منه الحاخام أن يمهله إلى الغد حتى يأتي لزيارته وفي جعبته الحل

جاءه الحاخام في اليوم التالي طارقا بابه ومعه ذلك المخلوق العجيب

ما هذا؟

هل يعقل أن يُهدينا الحاخام خنزيرا ؟!

هكذا سأل أهل الحجرة أنفسهم في دهشة وهم يرقبونه يدلف إلي غرفتهم الضيقة وهو يدفع ذلك الخنزير المقزز أمامه

- «لكنها ليست هدية»

رد الحاخام بتلك الجملة على تلك التساؤلات التي تتقافز من أعين الأسرة البائسة

- «إنه الحل الذي طلبتموه يا سادة»

- الحل الذي ستفرَّج به هموم حياتكم الفقيرة

- ما عليكم إلا الاحتفاظ بهذا المخلوق في غرفتكم أسبوعا واحدا ثم يكون لنا حديث آخر بعد ذلك

ولكن.....

يا سيدي.....

إنه خنزير...

غادر الحاخام الغرفة ولم يلق بالا بهمهماتهم المستنكرة ولا نظراتهم الذاهلة المستغربة التي ظلت تلاحقه حتى غاب عن الأبصار وابتلعته شوارع القرية المزدحمة

التفت سكان الغرفة إلى تلك المصيبة التي تركها الحاخام ومضى

أي حل هذا أيها الحاخام في وجود ذلك المخلوق القذر بيننا؟؟

أي انفراجة في وجود حيوان كريه يؤرق بخواره مضاجعنا وينشر نجاسته على فُرُشنا ثم يعود ليطعمها في مشهد مقزز يحيل حياتنا جحيما لا يوصف؟!

لم تكد تنقضي المهلة حتى سارع رب الأسرة لاهثا إلى الحاخام وما إن دخل عليه المعبد حتى صاح فيه قائلا بصوت متهدج: أدركنا يا سيدي الحياة صارت لا تطاق

أرجوك اسحب خنزيرك الذي دمر حياتنا الهانئة!!

الهانئة؟!!

ابتسم الحاخام ابتسامة ذات مغزى ثم رافق الرجل في شوارع القرية ماضيا معه إلى حجرته الفقيرة

استرد رجل الدين اليهودي خنزيره ثم قال للفقير البائس: انتظر يومين ثم ائتني بعدهما في المعبد

مضى اليومان ودخل الرجل على الحاخام بوجه غير الوجه

-مالي أراك متورد الوجنتين متهلل الأسارير؟

رد الرجل الفقير: لقد صارت الحياة جنة يا سيدي

لكأن غرفتنا الصغيرة أضحت قصرا منيفا مترامي الأرجاء

لقد كنا في نعيم لم ندركه إلا الآن

هنا تنهد الحاخام في ارتياح وقال للرجل بصوت يبدو عليه السرور: ألم أقل لك إن هذا الخنزير هو الحل المثالي لكل مشاكلكم

أومأ الفقير برأسه موافقا ومقرا لكلامه في سعادة وغادر وقد اطمأنت

نفسه ورضي بحياته البائسة

إلى هنا تنتهى تلك القصة القديمة التي قد يخرج منها البعض بمواعظ وحكم عن الرضا بالمقسوم والقناعة بالرزق وما إلى ذلك من أمور هي بلا شك جيدة في أصلها وبها يستطيع الإنسان إكمال حياته صابرا محتسبا

لكن هل فعلا كانت عملية سحب الخنزير -كما يطلق عليها- هي الحل؟!

هل كانت حيلة الحاخام الماكر تشكل الإجابة العملية لمعضلة حياة الرجل الفقير؟!

هل تغير شيء في واقعه الأليم وتحول ضيق عيشه إلى سعة وهناء كما تصور في نهاية الأمر؟!

الجواب ببساطة: لا.

إن عملية إدخال الخنزير ثم سحبه ما كانت في الحقيقة إلا مخدرا نفسيا وتشتيتا فكريا استطاع من خلاله الحاخام أن يخفض سقف طموحات الرجل وأن يكسر أحلامه في عيش كريم يحتوي على الحد الأدنى من معايير الحياة الإنسانية والحقوق البشرية

وثمة فارق واضح بين تذكير الناس بالرضا والقناعة -وتلك معانٍ إيمانية مطلوبة ومهمة- وبين أن تكون هناك مشكلة حقيقية ويتم علاجها

بوهم في وجود علاج حقيقي وتلك في رأيي خديعة وخيانة للأمانة

لكنه أبدا ليس علاجا

بل هو خداع مكتمل الأركان إذا كان في حالة وجود علاج حقيقي أو حلول واقعية كما بينت

وهذا ما فعله الحاخام ويفعله كثير حاخامات العصر

فليس من حق أحد تخدير الناس وقتل أحلامهم وتمزيق أمانيهم حتى يتحسروا على السيء ويرضوا بالهوان ويتمنوا المرّ خوفا مما هو أمرّ منه

وإن مطالبة الإنسان بحياة محترمة وعيش كريم ليست عيبا ورغبة المرء في تحسين أحواله ليست جريمة تستدعي عقوبة أو تستحق عذابا يجعله يندم على تفكيره يوما في الارتقاء وعلى طموحه في عيش أفضل ويدفعه دفعا لأن يتحسر ويترحم على تلك الأيام التي سبقت دخول الخنزير إلى حياته فيصير كل همه ومنتهى أمله وغاية حلمه أن تعود تلك الأيام وترجع غرفته على أي هيئة كانت حتى لو كانت ضنكا وشظفا

المهم أن تكون بدون خنزير

وينسى تماما أن يسأل نفسه السؤال الأهم:

من الذي أدخل الخنزير؟!

١٢.اسم ليس على مسمى

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾

هكذا بدأ فرعون رحلة التحريض الفكرى لأتباعه ضد موسى عليه السلام وقومه

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يلبس على الناس تصوراتهم من خلال المصطلحات

لقد استعملها كثيرا من قبل

فتارة هي مؤامرة وهو كبيرهم الذي علمهم إياها

و تارة أخرى هو مجنون

وتارة هم شرذمة قليلون هم له غائظون

وتارة أخرى هم أراذل القوم بادي الرأي

وتارة هم سفهاء ماكرون

وتارة هم مفسدون يريدون تبديل الدين وإظهار ذلك الفساد

وهكذا

يغلف الطغاة قمعهم لمعارضيهم بوصفهم وتسميتهم بمستبشع

الألفاظ ومستقبح النعوت وقميء الأوصاف

وإلى تاريخ قريب كان يطلق على الصوت المناهض للطاغية لفظ المخرب أو الخائن أو عدو الوطن

حتى لقب «جرذان» أطلق يوما على رافضي الاستبداد ومناوئي الطغيان هكذا دون تحقيق أو تفصيل

فقط كفى بالمرء أن يعارض الطاغية أو يخالفه أو حتى أن يشبه شكله أو سمته من وقع عليهم شيء من تلك الخصائص المنفرة التي أطلقها الطاغية من سار على نهجه سواء كانت حقيقية أو مكذوبة مفتعلة ليؤخذ الكل بجريرة البعض ولتوزر الوازرة وزر الأخرى

و هذا دأب معروف فى صراع طويل بين الحق والباطل

ولقد كانت دائما من أهم أساليب واستراتيجيات أهل الباطل تسمية الأشياء بغير مسمياتها وترسيخ المفاهيم المغلوطة وتكرارها حتى تصير هي الأصل بينما تضمحل الحقائق وتنزوي بعيدا رويدا رويدا حتى تكاد تختفي خلف غبار الكذب والتحريف

لم يحدث في التاريخ قط أن سمى طاغية معارضيه باسم مستحسن أو حتى غير مستقبح

تلبيس المصطلحات وتسميتها بغير أسمائها ثم تكرارها حتى تتأصل

وتهون مدلولاتها فى القلوب

وهذا مطرد فى كل زمان ومكان وبشكل مطلق

فى عصرنا سميت المشروبات المسكرة والخمور التى تخمر العقل وتغطيه باسم جميل «المشروبات الروحية»

و سمى الابتذال والتعرى فنا واعتبرت مقاومة المحتل لدى البعض إرهابا

وما تسمية الأشياء بغير اسمها إلا مسوغ يجعل المتلقِّي يقبلها، مستحسنًا إياها، غير معظمٍ لجرمها، لما تضفيه عليها تلك المسمياتُ «اللطيفة» من طابعٍ لين يهون من فظاعتها وشدة حرمتِها.

أو يرفضها مستبشعا إياها إن كانت من نوعية المسميات التشويهية

ولقد حدثنا المولى جل وعلا عن أمثلة لذلك في غير موضع بكتابه العزيز

فتجد مثلا تسمية الشيطان للشجرة المحرمة بشجرة الخلد والملك الذي لا يبلى

وكذلك تسمية ما بُعث به النبي ﷺ من الرسالة والوحي بالشعر والسحر والكهانة والأساطير

وفعل المنافقون شبها بذلك يوم الأحزاب حين قالوا «إن بيوتنا عورة»

و العورة لفظ شرعى لا يستعمل فى هذا المقام لكنهم جعلوه ذريعة للتخاذل عن نصرة الدين ومن ثم القعود لستر هذه العورة المزعومة ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾

و فعلوها يوم تبوك حين قال بعضهم ﴿ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ فجعلوا الفتنة وهى هاهنا فتنة النساء حجة لترك الجهاد

و فعلها كبيرهم حين سمى النبى بالأذل وسمى نفسه بالأعز

وأيضا ما ورد في سورة الأحزاب عندما تمالأت القبائل وبدت الهزيمة في الأفق مؤكدة فقال المرجفون والمخذلون يا أهل يثرب لا مقام لكم

تأمل في لفظ يثرب الذي كان يطلق على المدينة في الجاهلية قبل أن تستنير بنور الوحي والرسالة وتشرف بحاملها ﷺ

ثم كان الاسم الجديد الشريف الجميل: مدينة رسول الله وطيبة

فلماذا قالوا هنا: يثرب؟

إنه ترسيخ لمعنى الهزيمة ورجوع الأمور إلى ما كانت عليه بإعادة بعث للاسم والمصطلح القديم ومدلولاته ذات المغزى المعلوم

إنه تلميح لأن الأمر قد انتهى وأن الوضع القائم قد تغير وعاد لما كان من قبل

فهل استجاب المؤمنون ؟

الجواب لا

لقد ظل الأمل في نفوسهم ولم تغادرهم الثقة بوعد الله واليقين فيه وما زادتهم رؤية الأحزاب وتمالؤها إلا إيمانا وتسليما وقالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله

ومن هنا ثبتوا

ثم انتصروا

لما لم يفقدوا الأمل وتنهزم نفوسهم ولم يقولوا بلسان الحال أو المقال: يثرب

لم يرضخوا لفكرة أن الأمر انتهى والواقع قد فرض

بل هو ما وعدهم الله ورسوله وإن أرجف المرجفون وبدل المبدلون والمغيرون

ومن هنا يأتي النصر

ليس المعنى أن تنفصل عن الواقع أو ألا تراه

بالعكس

بل هي تمام الرؤية الواقعية لكنها حين تختلط بالوعي والفهم ولا تقبل التلبيس والتدليس وتصر على تسمية الأشياء بمسمياتها الحقيقية الكائنة مع الثقة بإمكانية إعادة الأمور لنصابها

إن مشاهدة لحظات كتابة التاريخ وتلك الأزمنة المفصلية التي تسطر فيها سير الأمم ومنحنياتها الحساسة والحاسمة تبهر الأبصار والبصائر وتجعل البعض عاجزا عن الرؤية الواضحة ومن ثم يكون المرء عرضة لتلك التلبيسات والتدليسات التي تصف الأمور بغير حقيقتها وتسميها بخلاف اسمها

لذا فاحذر من أن تسمي شيئا بغير اسمه أو يتسرب إلى قلبك مفهوم مدلس يحرص مرجف أو خوّار أن يبثه في قلبك بلحن قوله فتنهزم من داخلك دون أن تشعر أو تنكسر دون أن تنتبه

فما الانكسار إلا انكسار الإرادة

وما الهزيمة إلا هزيمة النفس

وما الوهن إلا ضعف قلب امتلأ بحب الدنيا والتعلق بها والفزع من كل صيحة يحسبها المرجف عليه

وكل ذلك لا يتسرب إلا تحت ستار من دخان التحريف والتدليس والتلبيس يتقنه ويحترفه شياطِين إنْس وجِنٍّ يُوحي بعضهم إِلَى بَعضٍ زُخرُفَ الْقَولِ غرورًا

فاحذرهم وانتبه

١٣. بلوك !!

لا أحد يستطيع أن ينكر أن مواقع التواصل الاجتماعى الفيس بوك وتويتر صار لها بالغ الأثر على الساحة العربية خصوصا بعد الثورات الأخيرة التى شهدتها بلادنا.

فبعد الدور الفعال الذى لعبته تلك المواقع التفتت إليها أنظار الكثيرين وتضاعف التعامل معها وصارت مجالا خصبا لإبداء الآراء والإعلان عن المواقف بشتى توجهاتها وأيضا صارت نوافذ وأبوابا مفتوحة للجميع بعضهم على بعض يطلعون من خلالها على أفكار متنوعة ويستطيع كل منهم أن تكون له وجهة نظر وتعليق على تلك الأفكار أو الأحداث أو المواقف وهو ما يعد نقلة نوعية فى عالم الإعلام التفاعلى.

المشكلة أن الأمر كانت له آفات خطيرة وأعراض مؤسفة صحبت ذلك التواصل سواء على مستوى النخب والمشاهير أو الجماهير وعموم الناس الذين يتعاملون مع تلك المواقع

والأشد خطرا أن كثيرا من تلك الآفات تنتقل تدريجيا من مواقع التواصل إلى الحياة الواقعية وتصبح حالة مشهودة على الساحة الحوارية

خارج تلك المواقع

ولنبدأ بالمشاهير والنخب التى تتعامل مع تلك المواقع التى من المفترض أنها تواصلية

ثلاثة أنواع من السياسات يتبعها مشاهير الساسة والمثقفين فى التعامل مع من يحاورهم أو يختلف معهم أو ينتقدهم على مواقع التواصل

السياسة الأولى هى سياسة «الطناش» والتجاهل المطلق وعدم الالتفات للتعليقات المخالفة سواءً كانت موضوعية أو غير ذلك - والحقيقة أنها كثيرا ما تكون غير ذلك - لكن الموضوعية لن تُعدم أيضا وكذلك النقد البناء والرغبة فى النقاش إلا أن أصحاب تلك السياسة قرروا أن كل ذلك غير موجود ومن ثم كان القرار بالتجاهل الكامل والطناش المطلق

السياسة الثانية سياسة «البلوك» أو ما يترجم بالـ «الحظر» وهى السياسة الأشهر والأسهل لدى الكثيرين وهى الأكثر إراحة حيث يرفض النخبوى أو المثقف أو المتبوع مجرد رؤية من يخالفه أو ينتقده ولا يسمح له أن يتواجد فى صفحته أو حسابه الإلكترونى فيحظره ويطرده شر طردة وهذا وإن كان حقا له نظرا لحريته فى تحديد نطاق خصوصيته إلا أنه بلا شك أمر يقلل من مهارات التواصل والحوار البناء والنقاش المثمر والقدرة على مد الجسور مع الآخرين

السياسة الثالثة وهى للأسف الأكثر ندرة بين المشاهير هى سياسة

الحوار والرد قدر الوسع وبما يسمح به الانشغال والوقت

المؤسف حقا أن نجد السياسة الأولى والثانية تنتقلان من منهج التعامل الإلكترونى لدى الساسة والمثقفين إلى تعاملهم فى الواقع السياسى والفكرى فلا يسمحون بنقاش أو حوار ولا يعترفون أن الآخر مخلوق يمتلك عقلا ويمكن أن التحاور معه والاستفادة من وجهة نظره والوصول إلى رؤى مشتركة وحلول بل وبناء جسور من التفاهم والمودة معه

أعتقد أن بعض هؤلاء النخبويين لو استطاعوا أن يقوموا بعمل «بلوك» من الحياة لمخالفيهم فلا يشعرون بوجودهم على سطح الأرض من أساسه لفعلوا دون تردد!!

لكن بما أن البلوك «أوبشن» أو مزية إلكترونية بحتة فلا تتبقى لهم إلا سياسة «الطناش» والتجاهل فلا سلام ولا كلام ولا حوار ولا نقاش ولا أدنى درجة من درجات التفاهم.

لهؤلاء أقول: إن الحياة أمرها مختلف تماما يا سادة

فى الحياة خلق الناس شعوبا وقبائل يتعارفون بينهم ويتحاورون وإلغاء وجود الشخص أو تجاهله لن ينفيه مطلقا

سيظل خصمك موجودا ولن تتمكن أبدا من «تبليكه» أو حظره وتغافلك عنه لن يؤدى إلى اختفائه وإن لم تشعر به عاجلا فلن تعدم أن تلمس أثره آجلا وحينئذ ستفاجأ أن الحياة ليس فيها «بلوك» !!

١٤. «سى» السيد يغرد

«الكلمة هنا كلمتى، والشورى شورتى» صاح بتلك العبارة بصوته الجهورى الهادر حاسمًا بدايات تلك المناقشة، فردت بصوت منكسر: «أمرك يا سى السيد».

ذلك الحوار المقتضب يمثل ثنائية فلكلورية شهيرة مستقرة فى الوجدان المصرى منذ عقود، ثنائية «سى السيد» وزوجه الطيبة «أمينة»، لقد كانت تلك الشخصية عنوانًا دائمًا للزوج القوى صاحب الشخصية الكاسحة، التى ظلت علامة على التحكم المطلق، ومرادفا للإصرار الحديدى على إنفاذ الرأى دون مناقشة أو حوار، مستغلاً ما يصوره من أن حق القوامة يتيح له التسلط على زوجه وأبنائه، غير متقبل لأى نوع من التهاون أو التفاوض فى تنفيذ أوامره، وصارت كلمة «أمرك يا سى السيد» عنوانًا على الطاعة المنكسرة، التى كانت شعار «أمينة» فى رواية نجيب محفوظ الشهيرة، والتى صارت تلك الشخصيات بعدها أيقونات تعبر عن تلك العلاقة التسلطية.

والحقيقة أنه بغض النظر عن الفهم المغلوط لمعنى القوامة الذى يعتقد البعض أنه لا يتحقق إلا بتلك الصورة النمطية، وهو ما يخالف تمامًا الخلق

النبوى الهين اللين، الذى كان لا يوظف قوته وقوامته بهذا الشكل الاستعلائى أبدًا، فإن كثيرًا من متصدرى المشهد المصرى الحالى لسان حالهم ومقالهم وتعاملهم مع الأحداث ليس له إلا مؤدىً واحد وهو أنهم يريدون أن يكونوا نسخًا كربونية جديدة من «سى السيد».

المدهش فى الأمر أن «سى السيد» الخيالى ومن سار على نهجه فى دنيا الواقع كان لديهم ما يتأولون به ذلك التسلط، من فهم مغلوط - كما أشرت - لمعنى القوامة فى الشرع، وكان لديهم أيضا من القوة والجبروت ما يدفعهم للاغترار به والتجبر على ذويهم، بينما لا يملك «سى السيد» السياسة والفكر ما يسوغ له ذلك التحجر فى الرأى، وذلك الإصرار الفولاذى على إمضاء رؤيته، وإنفاذ إرادته على الجميع.

فلا هو يملك وصاية أو قوامة، ولا هو أقوى من غيره ليغتر بعنفوانه ويتسلط ببطشه، ومن ثم يتبادر إلى الذهن ذلك المشهد الهزلى لذلك الممثل ضئيل الجسد الذى يقف أمام من هو ضِعف حجمه وقوته صائحًا فى عنف لا يناسب مظهره: «ما تقدرش» !!

لقد شهدت الساحة السياسة والفكرية مؤخرا من ينتهج نهج سى السيد بحذافيره، ويصر على أن رأيه وحده هو الصواب الذى لا يحتمل الخطأ ولا يقبل التفاوض، وأن قوله لابد أن يمضى ومن بعده الطوفان،

وليكن ما يكون دون أدنى استعداد لحوار بناء، أو لتفاهم وقبول للآخر، أو حتى اعتبار مخالفه كائنًا عاقلاً من حقه أيضا أن يكون له رأى وفكر، وأن الأمور لا تسير فى الأمم بهذا المنهج المتسلط أبدا!!

إن الفرعونية على ما يبدو ليست قاصرة على من يجلس على عرش مصر، بل الظاهر والله أعلم أنها جينات موجودة فى كثير من المصريين تدفعهم دون أن يشعروا لهذا الشعار العتيق: ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾!!

لقد تلفظ فرعون بذاك الشعار، وقد غرته قوته، وأغراه بطشه وجبروته، فظن أن باستطاعته فرض رأيه على الجميع.

لكن سؤالا يشغل بالى طالعت أفعال «فراعنة» المعارضة وتسلط «سى السيد» الثورة؛

تُرى ما الذى يدفعهم لتقمص ذلك السلوك العجيب، وإدمان تلك المحاكاة غير المبررة؟! وما هى المقومات التى تجعل إنسانًا يظن أن من حقه فرض رأيه على غيره على طول الخط، وتغريه بأن يسمح لنفسه أن يغرد دائمًا بإسم السرب، حتى لو كان تغريده خارج السرب، أو حتى خارج الوطن؟!

تغريد «سى السيد»

١٥. لماذا نكره النقد؟

لماذا تغضب من النقد؟!

لماذا نكرهه ولا نطيقه؟

لماذا نفترض دوما أن الناقد حاقد؟

هل تعلم أن النقد أول خطوات الإصلاح؟

بل هل تدرك أنه تقريبا لا إصلاح بدون يسبقه نوع من النقد؟

بل هل تعلم أن مجموعتك البشرية التي تغضب إذا تم انتقادها هي أساسا قائمة على النقد؟

بل إن أي مجموعة بشرية أو حزب أو طائفة ما تمايزت واتخذت قرار التكوين الفكري أو العملي إلا لأنها رأت في غيرها أمرا غير صحيح انتقدته وقررت تغييره في نموذجها وتجربتها

أه والله زي ما بأقول لك كدة

فكر قليلا وستجد أن الكلام منطقي وحقيقي على مستوى الذات والمجموع والفرد والأمة

فعلى مستوى الفرد وذاته لا تغيير ولا إصلاح لخطأ إلا عند إدراك

مواطن الخلل وهذا لا يكون إلا بنقد ذاتي وجهه لنفسه بها يعرف شرعا بـ«محاسبة النفس» أو بنقد خارجي لم يستخف به ووضعه موضع الجد

التوبة نفسها والتي هي عبادة الحياة التي خاطب الله بها الجميع قائلا ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تلك التوبة لا تتم إلا بندم

والندم لا يكون إلا عن خطأ

والخطأ لا يُعرف إلا بنقد ذاتي أو خارجي

أيضا شعيرة كشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتي هي موطن خيرية الأمة لو تأملتها لوجدت أنها بالألفاظ المعاصرة يمكن أن تمثل نوعا من النقد الإيجابي ومحاولة لتغيير الخطأ بأسلوب راقٍ «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»

أما على مستوى الأمم والمجموعات البشرية فما خرج المصلحون أو غيَّر المُغيرون والمجددون إلا بناءً على رؤية نقدية لتلك المجموعات البشرية غير المعصومة وبناء على تلك الرؤية حددوا مواطن الخلل وحاولوا إصلاحها بشتى السبل ومن ضمن تلك السبل: بيان مواطن الخلل بنقدها طمعا في تغييرها للأفضل

صحيح أنه أحيانا يتحول النقد إلى نقض (بالضاد وهو مرادف الهدم

والتقويض) وصحيح أن الخيط بينهما رفيع والحاجز دقيق إلا أن ذلك ليس معناه إبطال تلك الوسيلة والخطوة المهمة من خطوات الإصلاح والتغيير ولابد أن ندرك جيدا أن هناك فارق بين الأمرين وأنه ليس كل نقدٍ نقضاً وهدما

لكن للأسف في أحيان كثيرة يساء الظن بالناقد وتتهم نيته ويرمى بأنه حاقد حاسد أو راغب في الهدم وهذا خطأ كبير

البعض عندما ينصحه إنسان أو حتى ينتقده فليس لديه إلا عدة خيارات للتعامل مع ذلك النقد وتلك النصيحة

أول تلك الخيارات ألا يعبأ به ويمضي في طريقه بحجة: «لا تلتفت» وتلك الحجة لا تستعمل في الأصل إلا عند مطلق الأذى والتقويض والنقد كما قلنا ليس كذلك

الخيار الثاني هو سوء الظن بالناصح أو الناقد فيؤكد المنصوح لنفسه أن ناصحه حاقد عليه كاره له متربص بأخطائه أو ربما هو منافق لا يريد له الخير ولا يفكر إلا في فضحه وتعطيل مسيرته المقدسة -عنده- ويتطور الأمر حتى يصير ناقده مجرد كلب في نظره وبالتالي تنطبق في تلك الحالة أمثال من نوعية: «القافلة تسير والكلاب تعوي» و«لا يضير السحاب نبح الكلاب» و«لو أن كل كلب عوى ألقمته حجرا لصار الصخر مثقالا بدينار»

الخيار الثالث أن يعتبره يقينا مخطئا ولا يمكن أبدا أن يكون مصيبا في نقده فهل يعقل أن تكون هو المخطىء مثلا...

حاشا وكلا..

هنا يلجأ إلى الرد عليه بقسوة ويسارع بتجهيز حملة تبريرات سريعة ويبدأ في فضحه على رؤوس الأشهاد وبيان عصمته الضمنية وعصمة رأيه ورأي من يتبع في مواجهة ضلالات أولئك المشككين الجهلة الذين لم يهتدوا إلى الاقتناع بهذا الرأي الذي لا يأتيه الباطل أبدا

أما الخيار الرابع فهو ببساطة نقيض كل ما سبق

وهو الظن بالعقلاء وأصحاب الحصافة

خيار فحواه أن تنظر إلى نقده بعين الاعتبار

وأن تنزل نصحه منزلة الامتنان

وأن تجعل ولو احتمالا يسيرا أنه قد يكون على حق ولعله يريد بك الخير ويتمنى لك الأفضل ويحب لك ما يحبه لنفسه وأنه ربما لا يكون منافقا كارها ولا حاقدا معاديا ولا كلبا نابحا أو مشككا جاهلا

أن تفترض أنك ومتبوعك أحيانا تخطئون وربما تزلون وأنه لا مانع أن تقف أحيانا مع نفسك لتراجعها وتصحح مسارها ومسيرتها (التي هي ليست في الحقيقة معصومة ولا مقدسة)

وأن تحاول أن تستفيد من نقده أو على الأقل تحمله على أفضل وجوهه وهو النصح

ثم تتذكر حقيقة جامعة مانعة قالها حبيبك ﷺ

حقيقة أن الدين النصيحة

من المفروض أن يقبل المخلصون النصيحة وأن يحسنوا الظن ويأخذوا الأمر بجدية إن كانوا يبغون الأفضل لأنفسهم أو لمجموعتهم البشرية غير المعصومة

فإن كان النقد بناءً وكان فيه أو فيهم ذلك الخلل استطاعوا أن يغيروه ويعدلوه وإن لم يكن فيهم ذاك الخلل ففي النهاية هم لم يخسروا شيئا بقبوله واعتباره وقد قال الأولون صديقي من أهدى لي عيوبي وأحسن منه قول الحبيب ﷺ «المؤمن مرآة أخيه» والمرآة لا تطمس العيوب ولكن تجليها بكل أمانة

أحيانا أيضا وللأسف الشديد يبالغ البعض في النقد حتى يصير جلدًا للذات أو للغير ويخرج عن إطاره الإصلاحي إلى إطار عقابي سادي ويتحول إلى نوع من الانتقام ليس من حقه على نفسه أو على غيره

النقد إصلاح وتغيير للأفضل وتواصٍ بالحق من دونه الإنسان في خسر وذلك إذا صحت النوايا وكان بناءً وهو يختلف بشكل كبير عن فكرة

العقوبة والانتقام وهو إما يكون فرعا عن النصيحة التي هي الدين كما صح بذلك الحديث أو يتحول لنوع من الفضيحة والبغي والاهانة

فإن ابتغى المرء نصحا وتوجيها فلا ينبغي أن يكون عونا للشيطان على المنصوح فتأخذه العزة بالإثم ويرفض النقد والنصيحة بل إن من فقه النصح ترك طريق للعودة وليس اللمز والإهانة والتقريع والتعيير المستمر سبيلا للتغيير

لذا ينبغي أن يحدد الناقد هدفه هل يبغي تغييرا للأفضل أم يهدف إلى معاقبة المنصوحين وتنفيرهم بشكل لا يؤدي إلا إلى تماديهم أكثر فأكثر؟

من ذلك يتبين أن إجادة النقد وآدابه تعد من أهم عوامل قبوله والانتفاع به

وهو في النهاية ليس مهنة من لا مهنة له كما يزعم البعض بل هو رسالة تغييرية وشعور إيجابي وإذا صحت النوايا وأراد الإنسان الإصلاح ما استطاع فإنه يشكر على ذلك

يعني ببساطة أنت لست معصوما ولا مجموعتك البشرية بل جميعنا قابلون للنقد الذي هو ليس شيئا سيئا لهذه الدرجة!!

لماذا تغضب إذن من النقد ؟!!

١٦.المبرراتى!!

تتميز بلادنا بكم لا بأس به من المهن الفلكلورية التى ربما لا تجد لها نظيرا في بلاد أخرى.

عندنا مثلا تجد «المخلصاتى»، ذلك الرجل دائم الانتظار فى المصالح الحكومية الذى ما أن يرى المواطن صاحب الحاجة حتى يتلقفه ويجول به فى دهاليز المصلحة ليقضى له حاجته ثم يتحصل على ما فيه النصيب

كذلك تجد فى بلادنا فقط المسحراتي، ذلك الرجل الذي يجوب الطرقات في ليالي رمضان الجميلة قارعا دفه الصغير رافعا عقيرته بعبارته التقليدية: «اصحى يا نايم وحد الدايم».

ذلك النداء المألوف الذى غالبا ما نسمعه مبكرًا في وقت يندر فيه النائمون، وحتى من قرر النوم فإنه بلا شك فى زمن الهواتف الذكية أو غير الذكية سيبحث لنفسه عن وسيلة إيقاظ أكثر فاعلية من طرقات المسحراتى، لكن رغم يقين صاحبنا بعدم جدوى ما يفعل إلا أنه يتعامل معه على أنه مهمة مقدسة يواظب عليها فى إصرار يشبه إلى حد كبير إصرار صاحبنا الآخر الذي عنونت المقال بمهنته أو مهمته

«المبرراتي»!!

وصديقنا المبرراتى موجود دائما فى كل جماعة وداخل كل حزب أو تيار، هو شخص ما أن يصبح على انتقاد وُجه إلى حزبه، أو جماعته؛ أو يمسى على سقطة صدرت عنها، أو عن أحد قياداتها، أو أتباعها، حتى يقدح فورا زناد فكره، ويعتصر ذهنه ليخرج المبررات المنطقية واللامنطقية التى تبرر لهذا الفعل أو لتلك السقطة ثم لا يلبث أن ينبري مسرعا ليدافع عن متبوعه أو زميله أو تياره فى استماتة عجيبة.

شخص صار التبرير سبيله، ومنهجه؛ والمعاذير طريقه، ومذهبه؛ فاستحق عن جدارة لقب «المبرراتي»،

وكثيرًا ما يتحول صاحبنا إلي مهنة أخرى، تعتبر فى تقديرى التطور الطبيعي للمهنة الأولى، إنه يتحول دون أن يشعر إلى «مطبلاتي» مهمته المقدسة أن ينزه متبوعيه عن كل نقص، أو عيب؛ ويجعل لهم كل منقبة وفضل، وكأنهم عن كل عيب منزهون، ومن كل نقص مبرؤون، بل كأنهم فى نظره أنبياء معصومون!

أحيانا تكون المبررات مقنعة بل كثيرا ما تدخل في حيز الأعذار التي أمرنا ديننا الحنيف أن نبذل الجهد في التماسها لإخواننا، لكن ما يدعو إلى الضيق أن أخانا «المبرراتي» لا يعدل في ذلك، ولا يبذل وسعه في التماس

الأعذار إلا لمتبوعيه، بل المدهش فى الأمر أنه غالبا ما يغير مهنته فورًا حينما يتعلق الأمر بمنافس، أو خصم؛ فيتحول مباشرة إلى «متربصاتي»!! ينتظر الشاردة والواردة تصدر من خصمه ليملأ الدنيا بنقده اللاذع له رافضا كل تبرير أو عذر من مبرراتية الخصم.

والحقيقة التى ينبغى أن تترسخ فى أذهان الجميع أنه ليس لكل شىء تبريرٌ، ومن ظن ذلك فإنه سيقع لا محالة في فخ التكلف، ويكون مثله كمثل الذين تخلفوا يوم تبوك وجاءوا إلى النبى بأعذار واهية لم تنجهم من ذلك اللقب الذي لقبهم به رب العالمين وأراه الاصطلاح الشرعى المعبر عن حال المبررين

لقب «المعذِّرين» فى قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾.

أولئك الذين امتلأت سورة التوبة بذكر حججهم المتكلفة ووعيد الله لهم

لم ينج من كل ذلك إلا الثلاثة الذين لم يبرروا، ولم يسوقوا المعاذير الواهية رغم أنهم فى بداية الأمر كادوا يستدرجون إليها ويصدقونها لولا أن تداركوا الأمر، وفهموا أنه لا يشترط أن يكون لكل شىء مبرر، أو عذر؛ وأن الأخطاء لا تبرر؛ فقط يعترف بها، ويُعتذر عنها ففعلوا،

لقد اعترفوا بالخطأ ولم يبرروا فكان صدقهم واعترافهم سببًا في توبة

الله عليهم.

لذلك فأنا أوجه كلماتى إلى صديقي «المبرراتي» داخل كل جماعة، وحزب، وتيار

أقول له: ثقتك في متبوعك، وحبك له، وتوقيرك إياه لا يعنى أبدا أن كل ما يفعله مُبرر، وأن واجبك المقدس أن تبحث له عن تلك المبررات.

من حقك أن تلتمس العذر كما ورد عن النبى لكن أحيانا يكون العذر أنه فقط... بشر.

وأن البشر يخطئون، ويزلون، ويتأولون.

بل ويعصون.

وتلك يا عزيزى أمور لا تستوجب تبريرًا، إنما هى ببساطة أمور تستوجب توبة واعتذارًا

أرجو أن يعى كلماتى هذه كل «مطبلاتي» و«متربصاتي» و.... «مبرراتي»



١٧. المزايداتى !!

هل جربت يوما أن تُتهم بما لم تفعل، أو تدفع عن نفسك أخطاءً ارتكبها غيرك؟!

هل خُضت من قبل حوارًا حوله محاورك إلى تحقيق نازى، تقمص فيه ببراعة شخصية وكيل النيابة؟

إن كنت قد فعلت فأنت ممن التقوا بصاحبنا الـ«مزايداتى»

و«المزايداتى» شخص لا يتردد لحظة فى اتهام مخالفه اتهامًا مباشرًا وسريعًا، بكل نقيصة!!

سواءً كان يعرف مخالفه، أو لم يسمع به من قبل، يكفيه أن يقيّمه من خلال سمته أو مظهره أو انتمائه الفكرى، ليتحمل كل ما اقترفه أشباهه منذ فجر التاريخ إلى يوم الناس هذا!!

وهو شخص لا يهتم كثيرا بأمور يعتبرها البعض موضوعية، فهى فى نظره مجرد خرافات؛ أمور كالإنصاف والتثبت والتبين وإنزال الخلق منازلهم، المهم فقط بالنسبة له أن يمارس هوايته، التى صارت فيما بعد حرفته...

المزايدة!

إن كان جديدًا فى الـ«كار» فسيغلف مزايداته بصيغة السؤال والاستفهام، وسيتقمص دور المحقق عند أول خلاف فى الرأى بوضع قائمة أسئلته المملة من نوعية :

أين كنتم يوم كذا؟

وماذا فعلتم فى شأن كذا؟

ولماذا لم نسمع لكم صوتًا فى الموقف الفلانى؟

ولماذا لم تنتقدوا الواقعة الفلانية؟

وماذا قدمتم للقضية الترتانية؟

وهكذا دواليك..

ثم لا يلبث أن يُتْبِع قائمة السؤالات التى يحسبها عسيرة، بقائمة اتهامات جزافية يجيب بها تلك الأسئلة، أو يتطوع لإجابتها مزايداتى منافس يتبرع بحسم التحقيق، وتعيين نفسه قاضيًا وربما جلادًا إن استطاع إلى ذلك سبيلاً.

غالبا ما تكون تلك الأسئلة أو الاتهامات بصيغة الجمع المريحة، فهى أسهل الصيغ، وتوفر على الأخ «المزايداتى» مجهودًا كبيرًا فى البحث والتحرى عمن يزايد عليه وتاريخه ومواقفه، يكفيه فقط أنك تشبه فلان الذى فعل، وعِلان الذى سوى، وبالتالى فأنت مسؤول عن كل خياراتهم بحكم القرابة الأيديولوجية والشبه الظاهرى.

الطريف أن الأخ «المزايداتى» ربما لا يعرف عنك إلا شكلك، وربما يفاجأ أن أغلب أسئلته إجابتها تنجيك من سيف اتهاماته ومقصلة مزايداته، لكن المشكلة تكمن فى المبدأ نفسه.

إن مجرد قبولك لفكرة المزايدة المستمرة على مواقفك، والمحاسبة الدائمة على تاريخ حياتك، تجعلك ترضى من حيث لا تدرى بالوقوف فى قفص الاتهام وفى موضع الدفاع عن النفس، وهو مكان لم يكلفك شرع ولا منطق أن تقف فيه، فلست متهمًا أصلاً، وإن افترضنا-جدلا- أنك كذلك فالبينة على من ادعى، والمتهم برئ حتى تثبت إدانته، لكن هذا طبعا فى عرف البشر الطبيعيين فقط.

أما «المزايداتى» فهو رجل يزر الوازرة وزر الأخرى، ولا يرتاح إلا بإدانتك وإن استطعت مرة تبرأة نفسك أمام مزايد، فسيسارع عشرات الزملاء من أبناء «الكار» نفسه ليدينوك بمواقف لم تفعلها، ولا يُتصور أنك ستسير يوما حاملاً سيرتك الذاتية على صدرك.

فإن قبلت أن تقف فى ذلك الموقف، فإن ذلك غالبًا سيؤدى للأسف الشديد إلى أن تعمل ألف حساب دائما لأهل تلك الهواية أو المهنة، ومن ثم ستضعهم فى اعتبارك قبل اتخاذ أى موقف مفترض أنك تدين به لربك، فإما أن تتردد فى اتخاذ موقف او رأى وربما لا تتخذه أصلا، وإما أن تحرص على

إرضائهم بموافقتهم على طول الخط درءًا لشرهم، وإما أن تغلق فمك تماما، وحينئذ تكون من حيث لا تدرى حققت مبتغاهم، وباركت مسعاهم فكبت رأيك وكممت فمك وأخرست لسانك وقصفت قلمك بنفسك.

الحل يا صديقى ألا تشغل نفسك بأصحاب تلك الهواية، وألا تلتفت لمزايداتهم، وألا تستسلم لتحقيقاتهم

فإن كنت يوما ما قد صدعت برأي، أو اتخذت موقفا على أساس من الموضوعية والصدق مع النفس، فلا يضيرك من خالفك، ولا ينفعك من وافقك، أما هؤلاء فلا تعرهم اهتمامًا، فإن إرضاءهم ليس غاية ولا هو يدرك، وهم إنما يخفون ضعفهم بالنيل من صاحب الفكرة بدلا من مناقشتها، ولو كانوا أقوياء حقًا لانشغلوا بالكلمة عن المتكلم، وبالحجة عن المحاجج فدعك منهم، وانشغل فقط بمن إرضاؤه غاية وتدرك.

إن الحق حق بذاته وليس تبعا لحامله، ولن يغير كونه حقا تشويه مصدره، أو تعميم أفعال غيره عليه،

الكل يعلم ذلك ويدركه ما عدا أصحابنا هؤلاء، فإن المزايدة هوايتهم، والتعميم سبيلهم، والتشويه حرفتهم، وتحطيم نفوس المخالفين أسمى أمانيهم، لذلك استحق أفرادهم هذا اللقب الذى أهديهم إياه..

لقب «المزايداتى»

١٨.زلة للتابع وفتنة للمتبوع

تبا لقوم أدمنوا النفاق وتعودت أيديهم على التطبيل وأنوفهم على رائحة المباخر التي يحملونها

سيان في ذلك عندي من حمل المباخر لأتباعه أو طبل وهلل لمتبوعه وقبل يديه أو قدميه

تعدد المطبلون والإيقاع واحد وتلون المنافقون ويظل النفاق أسود مربادا

وقد يعجب البعض من وجود نفاق من المتبوع للتابع ومن القائد لمن تحته فقد جرت العادة على ذم النوع المشهور فقط وهو التطبيل والتهليل للحكام والسلاطين والقادة والمتبوعين وفي ذلك وردت النصوص الشهيرة التي تحذر من الدخول على السلاطين والأمراء وتذم إتيانهم إلا لنصحهم وقول كلمة الحق في وجوههم -وقليل من يفعل- ومن ذلك ما ورد عن عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا، وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ، وَمَنْ أَتَى أَبْوَابَ السُّلْطَانِ افْتَتَنَ» رواه أحمد وأبو داود والتِّرْمِذِي والنَّسائي وصححه الألباني لغيره.

و كذلك ما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «وَمَنْ أَتَى أَبْوَابَ السُّلْطَانِ افْتُتِنَ، وَمَا ازْدَادَ عَبْدٌ مِنْ سُلْطَانٍ قُرْبًا إِلَّا ازْدَادَ مِنَ اللهِ بُعْدًا».

رواه أحمد وقال الألباني حسن صحيح

ومنها قول ابن مسعود ﵁: «إن الرجل لَيدخلُ على السلطان ومعه دِينُه، فيخرج ولا دينَ له، قيل له: ولِمَ؟ قال: لأنه يرضيه - أي السلطانَ- بسَخَط الله».

وقال أيضا «إِنَّ عَلَى أَبْوَابِ السُّلْطَانِ فِتَنًا كَمَبَارِكِ الإِبِلِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُصِيبُونَ مِنْ دُنْيَاهُمْ شَيْئًا إِلا أَصَابُوا مِنْ دِينِكُمْ مِثْلَيْهِ»

وقال حذيفة: ﵁ إياكم ومواقف الفتن قيل: وما هي؟ قال: أبواب الأمراء يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول: ما ليس فيه.

وقال سعيد بن المسيب: إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحذروا منه فإنه لص

وقَال سفْيان الثَّوْري: لا نخالطُ السلطَانَ ولَا مَنْ يخَالطُه

وَذَكَرَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ قَالَ: لَا تَأْتِهِمْ فَإِنْ أَتَيْتَهُمْ فَاصْدُقْهُمْ، قَالَ: وَأَنَا أَخَافُ أَلَّا أَصْدُقَهُمْ

فهذا النوع معروف وسدنته مشهورون معلومون قي كل زمان ومكان وهم قوم لا يستطيعون العيش بدون الطبول التي في أيديهم ولا يستمرئون

الحياة إلا أثناء انحنائهم لتقبيل أيدي سادتهم وكبرائهم وربما لو استطاعوا السجود بين تلك الأيدي لفعلوا!!

لكن النوع المغفول عنه -أو قل المسكوت عنه- هو نفاق والمتبوع لأتباعه

وهذا النفاق يأخذ صورا عديدة وأشكالا متباينة متغايرة

من ضمنها مثلا أن يسكت القائد عن أخطاء أتباعه ولا يجرؤ مرة أن ينكر عليهم أو يستبرىء من أفعالهم

ومنها ايضا انسياقه الدائم خلف رغبات الجموع حتى وإن توحشت ولو كان غير مقتنع بها خشية انقلاب اولئك الأتباع عليه

ودون أن يشعر السياسى أو المفكر أو الكاتب أو المنظر - أيا كان اختصاصه - فسيجد نفسه تدريجيا يتحول من قدوة ومتبوع إلى تابع منقاد لتلك الجموع خاضعا لرغباتهم وضغوطهم المطالبة بالمزيد والمزيد من الإثارة والمواقف الصاخبة والخيارات الجنونية والمتوحشة

وبالتدريج يصير صاحب الرأى أسيرا لدى تلك الطائفة الأعلى صوتا والأكثر حضورا والأشد تأثيرا ورغم استقلاله وقياديته الظاهرة وتحرره المزعوم فإنه يصير فى النهاية خاضعا لتلك الطائفة حبيسا خلف قضبان إملاءاتها مسترضيا لها طمعا في المزيد من التطبيل والتهليل

فالعلاقة هنا علاقة تكافلية متبادلة أدمن فيها التابع النفاق كما أدمن سيده سماعه فصار الطرفان ينافقان بعضهما البعض

وكم من قادة ورموز ومتبوعين يشار إليهم بالبنان ويقتدى بهم وتقلد مواقفهم ويحسبهم الناس أصحاب قرارهم ومالكي مواقفهم بينما تشهد الحقائق أنهم ليسوا كذلك مطلقا!!

بعضهم ممن يتحفظون جدا على نزق المنتمين إليهم ويخالفون أحيانا وبشدة أفعال جموع أتباعهم لكنهم لا يمتلكون الجرأة ولو لمرة على إبداء وإعلان ذلك التحفظ أو الاختلاف خشية إغضاب أولئك الأتباع والمريدين والمؤيدين

بل على العكس تجدهم إذا ظهروا على الملأ أثنوا على أفعال أولئك الأتباع، وهللوا لنزقهم وأيدوا ما يرونه من أخطاءهم، بينما أنت تضرب كفا بكف حين تسمع كلامهم الذي تعلم علم اليقين أنه يناقض حقيقة آرائهم وكأنهم يردون التطبيل بمثله ليصم ضجيجه الآذان في تلك العلاقة النفاقية المتبادلة التي أتحدث عنها!

علاقة نفاق المتبوع لأتباعه ومداهنة القائد لمحبيه في مقابل تهليلهم له وتطبيلهم لكل أفعاله ومواقفه وخياراته.

وكم لمست ذلك بنفسي حين أرى وأسمع من أولئك المبرزين مواقف

وآراء تخالف تماما ما يعلنونه خشية إغضاب اتباعهم

إن لم يكن هذا الكذب على النفس والناس وتلون الوجوه والأقنعة من خصال النفاق فما هي تلك الخصال إذاً؟

الحقيقة أنني لا ألحظ فارقا بين إيقاع الطبلتين ولا ألمس تباينا بين النفاقين

وما أراه أن ذلك النفاق والتطبيل المتبادل هو ما أوصلنا لما نحن فيه الآن من ضوضاء وصخب تواري خلف سحائبها كل صوت عاقل خوفا من كونه نشازا بين نغماتها المنافقة وطبولها المداهنة للحاكم والمحكوم والتابع والمتبوع

وما أصدق وصف عبد الله بن مسعود لذلك الحال حين رأى قوما يسعون خلفه معظمين ومتبعين فقال: وإنه لذلة للتابع وفتنة للمتبوع

❋ ❋ ❋

١٩.في ظلال الاستبداد وغيابات الاستعباد

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾

محاور مفصلية وتطورات تنفيذية، تتجلى من خلالها طريقة تعامل الطغاة ونفسية المستبدين في كل زمان ومكان، يمثلها بوضوح هذا الخطاب الفرعوني وأشباهه مما تمتلئ به آيات القرآن.

فما بين سلطان على الفكرة ثم تخوين وهواجس المؤامرة، يليها قمع وبطش وترسيخ لثقافة الخوف وصناعة العبرة، تظهر سلوكيات المستبد وتتبدى طريقته ويتجلى مذهبه.

لقد كان انزعاج فرعون في البداية بسبب التفلت من سلطانه على الأفكاراً وسيطرته المحكمة على إرادة شعبه، وليس فقط طبيعة هذا الإيمان وفحوى تلك العقيدة التي اعتنقوها أو الأفكار التي تشربوها.

لم تكن المشكلة فقط في نوعية الإيمان وتفاصيله، المهم أن يكون إيمانًا تحت السيطرة

إيمانًا مدجنًا منزوع الإرادة

إيمانًا بالأوامر، وعقيدة بلا عقيدة.

﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾!

القضية المبدئية هنا كانت تكمن في الإذن،

في التصريح،

في الاختيار بمنأى عن إرادة المستبد، والخروج عن طوعه والاستقلال عن مذهبه ومعتقده،

في التحرر من سلطانه وسيطرته حتى على الأفكار والمعتقدات.

إن المستبد يرى لنفسه الحق المطلق في تحديد أفكار الناس، وفي تقييمها، في تقسيمها وتصنيفها،

في الحكم عليها وعليهم، وفي ثوابهم وعقابهم،

في توزيع صكوك الغفران والوطنية عليهم، وفي تحديد أدوارهم ومهماتهم.

المستبد يرى لنفسه فقط الحق في أن يحكم ويحاكم، ويعطي ويمنع، وينعم ويحرم، ويحل رضوانه على من يوافقه وينافقه، وينزل سخطه على من يخالفه ويرفض أفكاره ويتحرر من سلطان عبوديته.

المستبد لا يعترف بأية مرجعية إلا مرجعيته، ولا يقبل أي رمز إلا نفسه، ولا يتعايش مع متبوع غيره، وهو -إن آجلًا أو عاجلًا- سيسحق كل من

يرفع رأسًا، ويقمع كل موطوئي العقب ممن يقتدي الناس بهم ويتبعونهم.

وهو لا يستطيع العيش إلا مع عبيد يهللون له ويباركون كل خطواته، أما من كان له رأي أو فكر أو إرادة خارج إطار إرادة المستبد وفكره فهو عدو له، متآمر على دولته لابد أن يزاح عن طريقه.

هنا يأتي دور التشويه والدعاية السوداء: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾

أيها الخونة المتآمرون! إنه زعيمكم ومعلمكم، إذن وما موهبتكم وصنعتكم السحرية إلا جزء من تلك المؤامرة الكونية على دولتنا البهية!

تناسى المستبد في لحظات أنه هو من أتى بهم من أنحاء القطر الواسع، وجمعهم بجنده واختارهم على عينه، تناسى فجأة طبيعة الأشياء وضعف وسائل خصمه المادية بالمقارنة بآلته الحربية وقدرته الآنية وحضارته القوية؛ فقد تجلت دعاية المؤامرة السوداء لتبرر ما سيحدث بعد قليل للخونة المتآمرين، الذين كانت جريمتهم السجود، وخطيئتهم ترك الاستئذان قبل الإيمان، ونسيانهم الحصول على تصريح بالاعتقاد مختوم بالختم الفرعوني.

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾

وإذن فقد آن وقت القمع وجاء دور البطش؛ فسبيل الضعيف وإن لبس لأمته ووسيلة العاجز وإن ادعى قوته وتمثل قدرته هي السيف في مواجهة الفكرة، والبطش في مقابلة العقيدة، والعذاب لوأد الإيمان الذي لم

يُستأذن فيه المستبد الطاغي.

لكن لماذا؟! هل هو الانتقام وحسب؟! أم هو إسكات الصوت وكبح جماح الإرادة وقتل حركة التحرر الإيماني من عبودية الطواغيت التي مثلها السحرة؟!

ربما كل ذلك وربما غيره، لكن المهم -وربما الأهم- هنا هو المقصد الأخطر والخطوة الحاسمة من خطوات المستبدين لوطء الخارجين عن إرادتهم ووأد حركتهم في مهدها، المهم هنا صناعة العبرة وترسيخ الخوف.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾

فلابد أن يعلموا ولابد أن يعلم الجميع، لابد أن يبقى العبيد عبيدًا، وليكن هذا العلم عبر جسور الأشلاء الممزقة؛ ليُسقى هذا العلم للعبيد مع عصير الدماء المسكوبة وقيح الأوصال المتطايرة،

ثم ليكن الصلب على تلك الجذوع السامقة،

وليشهد القاصي والداني قوة المستبد وبأسه؛ فالمسألة ليست فقط في العقوبة لكنه النموذج؛ النموذج الذي ينبغي أن يظهر للجميع

وليظل الإيمان المطلوب كما هو،

ليظل إيمانًا بتصريح، وعقيدة بإذن المستبد، إيمانًا بلا إرادة، وعقيدة بلا حرية، والناس على دين ملوكهم، ما يُرونهم إلا ما يرون، وما يسمحون لهم

إلا بما يرضون.

المستبد هو فقط من يحق له أن يرى، وهو فقط من يسمح لك أن تتبع وأن ترى فقط ما يرى، وهو يحتقر ويزدري ويسخر ويستهزئ بمخالفيه، ويظهر ذلك الاستهجان والتحقير في كلام المستبد عن معارضيه ووصفه لهم بكل نقيصة؛ فهو فقط عند نفسه الأعلى والجميع دونه، وهو فقط الأعز والجميع أذلاء إليه، وهو وحده الحر والجميع عبيد له، وهو وحده الرشيد والجميع همج رعاع لا يرقون لفكره ولا يقتربون من عبقريته.

المستبد يرى نفسه حالة فريدة ليس لها شبيه بين أقرانه، ودور الآخرين في الحياة أن يركعوا له ويثنوا على أفعاله وينفذوا أوامره، والويل كل الويل لمن ناقش أو اعترض أو فكر أو قرر.

والمستبدون ذوو أسلوب متشابه، وللطغاة طبيعة واحدة ورثها فرعون عن النمرود، وشاركهما فيها ملك الأخدود وأصحاب الرس وثمود، وطواغيت عاد قوم هود، توارثوها بغير نسب ولا عصب، وورّثوها لكل مستبد جاء بعدهم، كأنما تواصوا بها؛ بل هم قوم طاغون.

ولا تخفى طبيعة مستبد أو أسلوب طاغية على حصيف متأمل؛ بل تظهر مبكرًا من حروفه وإيماءاته ومواقفه وخياراته؛ لتقرع أجراس إنذار في عقول النبهاء: أن احذروا فثمة مستبد يولد، وقليل من ينتبه.

ولابد للمستبدين من سحرة!

سحرة يزينون باطلهم ويحسنون فسادهم وإفسادهم، ويجملون بغيهم ويشرعنون بطشهم، ويسوّقون باطلهم، ويرهبون معارضهم، ويخوفون رافضهم،

قد كان لصاحب الأخدود ساحره، الذي طالما خدع الناس بألاعيبه وحيله ليعبدهم لمليكه، وكان لفرعون سحرته الذين طالما جمعهم ليسحروا أعين الناس ويسترهبوهم ولطالما فعلوا وجاءوا بسحر عظيم.

وإن جريمة الساحر قد تكون أحيانًا أشد وطأة من جريمة الطاغية المستبد نفسه؛ ذلك بأن المستبد قد يُطاع خوفًا من سيفه ورهبة من سوطه وانبطاحًا أمام جبروته؛ لكن ذلك كله قد يزول لحظة انهيار حاجز الخوف وتمكن الإيمان من القلوب حتى تعلم أنه لن يصيب أصحابها إلا ما كتب الله لهم، فيرفعون رؤوسهم في وجوه الظالمين ويصدعون بالحق غير خائفين لوم اللائمين وبطش الطاغين وقمع الجبارين وإيذاء المستبدين ما دام في ذات الله رب العالمين

لكن الساحر حين يزين البغي ويشرعن العدوان ويجمل الفساد ويسحر أعين الناس ويسترهبهم فإنه بذلك يصنع حالة من اللامبالاة والتنطع والاستسلام الطوعي؛ بل والاقتناع والسعادة وربما الانبهار بصنيع

الطواغيت حتى يستمرئوا الذل ويتلذذوا بالهوان، أو يرسخ تعظيمًا لهم ورهبة في نفوس الناس، تجعلهم يفكرون ألف مرة قبل أن يغادروا الحائط الذي تعودوا السير إلى جواره.

باختصار الساحر يصنع جيلًا ممسوخًا من المقتنعين بقمع النار والحديد، بل وربما من المطالبين بالمزيد والمزيد والفرحين بأنهم للطواغيت عبيد.

ويتنوع السحر حسب الزمان والمكان؛ فليس كل السحر حبالًا وعصيًّا أو تعاويذ وأعمالًا؛ بل: «إن من البيان لسحرًا». كما صح عن النبي ﷺ، ولتعرفن أهل ذلك السحر في لحن قولهم وتزيين أكاذيبهم.

وإن الساحر ليتقنع بشتى أنواع الأقنعة، ويتدثر بمختلف الهيئات والأغلفة، التي تخفي زيفه وتستر حقيقته؛ فما بين قناع مثقف، وعباءة نخبوي، وأصباغ غانية، وطلاقة لسان سياسي مفوه، وعمامة شيخ سلطان وإمام ضلالة وبهتان يتخفى سحرة العصر.

فلا تغرنك يومًا أقنعتهم، ولا تخدعنك أستارهم ودثارهم وزيف سمتهم، وانظر دومًا إلى حقيقتهم، حقيقة أنهم يشغلون منصب سحرة الطاغية وسدنة المستبد، وأنهم مهما تقنعوا أو تنخبوا أو تثقفوا أو حتى تعمموا وتسننوا ظاهرًا فإن قولهم وفعلهم ومآل صنعهم يثبت لك دائما أنهم مجرد سحرة.

وغالبًا لا يعترف المستبد على الملأ بأنه مستبد؛ بل ربما ارتدى ثياب المصلح، أو تدثر بدثار الواعظ المشفق، أو تستر برداء المشاور المتقبل لرأي غيره الحريص على مشاركة عبيده القرار،

وليس أدل على ذلك التستر وأنه سلوك معتاد من الطغاة مما فعل فرعون إمام الطغاة ونبراس المستبدين، حين تدثر بدثار المشاورين المتقبلين لآراء الآخرين فقال: ﴿ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ ﴾، ثم لم يلبث أن ارتدى ثياب الناصحين قائلًا عن موسى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦]؛

فالمستبد يحلو له اكتمال المنظر وتمام الزينة، فيبدي من قوله ما يخالفه بعمله، ويظهر من حرفه ما يكذبه فعله؛ لكنه يظل في النهاية مستبدًا طاغيًا وإن تجمل وتزين، لكنه لإتمام زينة المشورة الصورية، ولإكمال قشرة الموضوعية الزائفة، يجمع حوله من يصلحون لتلك المهمة الرخيصة.

وانظر دائمًا إلى من يجمعهم المستبد حوله، أو يسمح لهم بالبزوغ في دولته والظهور في فلك نظامه وزمرته، تجدهم في غالب الأمر من حمائم الناس سهلي المعشر والانقياد، قد تسبق أسماءهم الألقاب العريضة، وتملأ سيرهم الذاتية الشهادات والدرجات الفخمة؛ لكنهم يشتركون جميعًا في صفات الذلة والانقياد والانبهار الدائم بسيدهم المستبد.

أما صقور الخلق عزيزو النفس مستقلو الرأي، فلا يطيقهم المستبد ولا يستريح في وجودهم، ولا يتعايش مع إيجابيتهم وتأثيرهم، حتى لو كانوا على الفكر والنهج نفسه

فإما أن يهمشهم ويقصيهم، وإما أن يشوههم ويكل بهتان يرميهم أو حتى ينفيهم ويفنيهم؛ فلا يبقى حوله إلا دنيء نفس من أراذل الخلق، يرضى بالهوان ويقبل بالذلة، ويتعايش مع كونه مجرد صدى لأفكار ورغبات سيده المستبد.

لكن مهما أحاط بالمستبد المُزينون، وحُشر حوله فقهاء السلاطين السحَّارون المدلسون، وتكالب عليه المداهنون والمطبلون، الذين هم لفتات الموائد آكلون، ممن يجعلون رزقهم أنهم يُكَذِّبون ويَكذبون ولظلم المستبد هم يشرعنون =فإنه يظل في نفس المستبد وميض معرفة يوقن من خلاله أن كل هذا التطبيل والتزيين والنفاق والتأويل، ما هو إلا قشرة زائفة تحيط بحقيقته القبيحة: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤].

هذا الوميض إن لم ينتصر في نفسه ويعيد المستبد إلى رشده، فإنه يظل مصدر عذاب له في الدنيا، وإن أنكر وادعى السعادة والهناء، ولعذاب الآخرة أشق وأخزى.

لكن المستبد في النهاية ينقصه شيء واحد ليكتمل طغيانه ويتم استبداده ويصل إلى منتهى علوه

ينقصه شعب لديه القابلية للاستعباد ويمتلك الاستعداد لقبول الاستبداد،

ينقصه العبيد الذين يُستخفُّون ويرضون كل ما سبق ويرضخون له ليعلن نفسه في الوقت المناسب:

إلهًا فوقهم!



٢٠.حوار مع صديقي المتعصب

قال: أيُّ رجلٍ فيكم عبدُ اللهِ بنُ سَلامٍ؟

قالوا: أعلَمُنا، وابنُ أعلَمِنا، وأخيَرُنا، وابنُ أخيَرِنا

قال: أفرأيتُم إن أسلَم عبدُ اللهِ بن سلام؟؟

قالوا: أعاذه اللهُ من ذلك!

فخرَج عبدُ اللهِ بن سلام إليهم فقال: أشهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ.

فقالوا: هو شرُّنا، وابنُ شرِّنا، ووقَعوا فيه!!

كان هذا نص حوار دار بين النبي ﷺ وبين أحبار اليهود عندما دعاهم بعد إسلام عبد الله بن سلام

ذلك الحبر الذي كان له بينهم شأن ومكانة كبيرة ظهرت في كلامهم عنه قبل أن يكتشفوا إسلامه بيد أن تلك المكانة قد تهاوت في لحظات بمعول التعصب، حتى صار فجأة شرَّهم وابن شرِّهم.

وكذلك التعصب في كل زمان ومكان.

في لحظة يُسقط أي مخلوق الذين ما إن يختلف مع ما يتعصب له المرء

حتى يصير احترامه وتقديره له في خبر كان.

وهذا ما كان من أحبار اليهود الذين تغيروا على ذلك الرجل الذي كانوا يثنون عليه قبل قليل

ورغم أن المنطق يقول أنه لا مانع من بعض الأخذ والرد والإقناع بالحسنى الذي يحتاجه أى مدعو خصوصا إن كان يعتقد بشدة ما هو عليه إلا أن ما يدعو للدهشة هو ذلك الانهيار الكامل في نظرتهم للرجل والتي كان من المفترض أن يسبقه حتى بعض النقاش وربما الاستغراب لفعله وسؤاله عن دوافعه وأسبابه أو حتى مناظرته فهو ليس نكرة بينهم بشهادتهم أنفسهم ولا بد أن لديه ما يقوله.

لكن شيئا من هذا لم يحدث.

لقد صدر الحكم في لحظة ونقضوا سابق رأيهم مباشرة ووقعوا فيه بل حتى في أبيه لأنه خالف ما هم عليه!!

إنه التعصب

ذلك المرض العضال الذي يستشري في نفوس الكثيرين دون أن يشعروا

لذا دعني يا صديقي أسألك وأسأل نفسي معك بعض الأسئلة الكاشفة، ودعنا نحاول معا الإجابة عنها بصدق لعلنا نعرف هل تسرب

هذا الداء إلى نفوسنا أم لا ؟

هل تشعر بالغضب حين تسمع أو تقرأ رأيا يخالف رأيك أو وجهة نظر مغايرة لما أنت مقتنع به؟

هل هذا الغضب دائم في كل خلاف، أم أنه يختلف حسب نوع الخلاف وطبيعته؟

وهل كل الخلاف في نظرك أمر عقدي دونه الرقاب أم أنك ممن يفرقون بين أنواع الخلاف؟

وهل تسيء الظن بمخالفك، وتتسابق إلى ذهنك قائمة اتهامات لنيته وقصده، وتبدأ في محاسبته عليها، وقد ترسخ لديك أنها دوافعه المؤكدة لهذا الرأي أو الاختيار؟

هل تلاحظ تغير رأيك في الشخص، أو حتى تغير صدرك نحوه حين يخالفك، حتى لو كنت من قبل محبا له؟

وإن كنت كذلك فبعد كم مخالفة تتغير نحوه؟

وهل مخالفة واحدة تكفيك أم أن حكمك تراكمي متزن؟

هل «استسهلت» وحكمت على مخالفك وصنفته فور اختلافه معك، أم أنك ناقشته وتبينت منطقه قبل إطلاق حكمك عليه؟

وهل تدخل النقاش فقط بغرض إقناع مخالفك، أم يكون لديك احتمال

ولو يسير أن تغير رأيك بعد الحوار؟

هل تغضب لأشخاص بأعيانهم دون غيرهم؟

وهل يختلف تقييمك ونظرتك للفعل وتقبله إذا صدر عمن تؤيدهم بخلاف ما إذا صدر بحذافيره عمن تخالفهم؟

هل تتذكر متى كانت آخر مرة رأيت فيها أن من تؤيدهم أخطأوا؟ وهل أنكرت عليهم حينها وعاملتهم كما تعامل مخالفيك الآخرين، أم أن رد فعلك اختلف و«طنشت»؟

هل من طبيعتك إبدال رأيك بالكامل تماشيا مع رأى من تؤيدهم كلما تبدل رأيهم أو تراجعوا عن مواقفهم التي كنت تدافع عنها منذ برهة لتعود وتبرر مواقفهم الجديدة؟

وهل تتخلى عن خلقك وأدبك فى الحوار وتخلعهما على عتبة الخلاف في الرأى، لتستبيح وصف مخالفك بكل منقصة؟

إن كانت الإجابة بـ «لا» على كل ما سبق أو أغلبه فهنيئا لك، أنت متجرد منصف باحث عن الحق ملتزم بحدوده وآدابه وقيم الوصول إليه.

لكن إن كانت الإجابة بـ«نعم» فللأسف أنت في مشكلة كبيرة.

إن دلالة وجود تلك الأفعال التي تضمنتها الأسئلة في تصرفاتك تشى بوضوح أنك لا تطيق الاختلاف، وأنك تقدم سوء الظن في مخالفيك، ولا

تضع اعتبارا قط لكونهم قد يكونوا على حق، أو على الأقل طالبين للحق، وتشي أيضا أنك توالي وتعادي على أشخاص معينين، وتعرف الحق بهم ومن خلالهم، وتغلق عقلك وقلبك عن غيرهم.

باختصار تشي أنك متعصب يا صديقي.

أقولها لك هكذا وعلى بلاطة.

إن كانت إجابتك على تلك الأسئلة بالإيجاب، وتقع في تلك الأمور التي تضمنتها أو بعضها، فللأسف الشديد أنت متعصب أو على الأقل فيك شيء من التعصب.

والتعصب يا عزيزي مرض خطير، ينبغي أن تدرك بشاعته لكي تستطيع التخلص منه، يكفي أنه يورث نوعا من أنواع العمى والصمم.

نعم عمى وصمم ولعلك سمعت بحديث «حبك للشيء يعمي ويصم»، وهو على ما فيه من ضعف في الإسناد إلا أن صحة معناه تترسخ لدى كثير من الناس يوما بعد يوم.

تترسخ ونحن نشهد تلك الأمور التي سألت نفسي وإياك عنها في تلك الأسئلة التي قدمت بها للمقال، والتي صار بها الحب والاتباع عصبية مقيتة، تُعمي الأبصار عن رؤية أى حقيقة مخالفة، وتصم الآذان عن سماع أى رأى مغاير.

ذلك العمى والصمم عرَض بسيط ومبدئي لذلك المرض العضال، مرض «التعصب»، الذي لا يستشري في جسد أمة إلا وهنت، وتمزقت أطرافها، وصارت إلى ضعف وانتكاس فكري وحضاري محتوم، وربما يؤدي إلى كوارث أكبر حين تترجم تلك العصبية إلى كراهية وتنازع وفُرقة.

وبداية العلاج لأى مرض أن يعرف المريض أنه مريض وأن يستشعر حاجته للعلاج، وتلك هي أولى خطوات الإصلاح.

أن يعترف المرء بوجود مشكلة ومن ثم يكون راغبا في التعامل معها وعلاجها وإلا ظل على تعصبه الذي يجعله في النهاية يخسر الجميع إلا النذر اليسير ممن قرروا موافقته على طول الخط

نعم يا عزيزي ستخسر كثيرا إن أصررت على تعصبك

إذ لا يعقل أبدًا يا عزيزي كلما اختلفت مع متبوعك -غير المعصوم- أو انتقدته أن أتحول فى لحظات إلى عدوك اللدود وخصمك البغيض وأن أقع فريسة سبابك واتهامك وتصنيفك الجائر وأن تسقط فورا كل فضيلة أو سابق مودة بيننا لمجرد أنني اختلفت أو حتى يا سيدي لو اعتبرتها أنني أخطأت.

ولا يُعقل أيضا أن يكون هدفي من كل موقف تبنيته مخالفا لقائدك أو متبوعك تشويهه أو تتبع زلاته وإبرازها كما يتبادر إلى ذهنك دوما وربما إلى

لسانك.

يحق لك بالطبع أن تدافع عن وجهة نظر متبوعك ما دمت مقتنعًا بها، لكن ما لا يحق لك بحال من الأحوال أن تنتقص من خالفه، أو فند رأيه، فتتهم نيته أو تسبه وتمتهن كرامته وتتحول دون أن تشعر إلى رجل شرطة يسعى للإمساك بالمخالفين باعتبار اختلافهم مع من يؤيدهم جريمة أو تهمة لا تغتفر.

عليك يا صديقي المنضوى تحت جماعة أو حزب أو المتبع لقائد أن تفرق بين من يختلف بأدب ودون تجريح، وبين من يسب ويهين.

بين من يقارع حجة بحجة وينقد رأيا ويفنده -وإن كان نقده لاذعا- وبين من يلتفت لشخص صاحب الرأى نفسه ويتفرغ لامتهانه وتشويهه.

فإن وجدت من يهين متبوعك وينتقص من عينه أو شخصيته -وليس رأيه- فحق لك حينئذ أن ترد غيبته إن كنت ترى تجاوزًا فى حقه واعتداءً على عرضه.

لكن أن تجد نقدًا وتفنيدًا لرأي متبوعيك، أو تساؤلات واستفسارت حول مواقفهم وخياراتهم، فتتداخل أنت لتسب وتشتم!

هذا ببساطة يا عزيزى لا يقال عنه إلا بلطجة فكرية، وتعصب أعمى.

فارق كبير يا صديقي بين من ينقد بأدب ويختلف برقي ويقوّم من يراه

أخطأ، وبين من يشوه ويسيء ويهين مخالفيه، أو يختلف لمجرد الاختلاف، وليس من حق مخلوق أن يتهم نية الخلق، أو يزعم ضمنيًا اطلاعه على غيب دوافعهم وأسباب اختلافهم، ومن ثم يصنفهم، ويحكم عليهم، ويسيء لذواتهم وأشخاصهم.

وينبغي أن تسأل نفسك يا صديقي عدة أسئلة قبل اتباعك لإنسان أو مجموعة من البشر فى حزب أو جماعة

هل اتباعك لهم أعمى؟؟

وإن كنت قد قررت أن يكون اتباعك له أو لهم ملزما لك فهل هو ملزم لغيرك؟؟

وهل متبوعك هذا منزه عن الخطأ ولا يعتريه النقص والزلل؟؟

وهل صارت قناعتك به مبررا أن تعلو به فوق البشر بحيث لا تتصور أن الحق جانبه وصادف غيره ولو فى بعض المسائل ؟

و إن كنت أنت يا صديقي قد قررت وارتضيت أن يكون اتباعك لحزبك أو جماعتك أو قيادتك ملزما لك فهل هو ملزم لغيرك؟

ما شأني أنا كمخالف لك بخيارك هذا ولماذا تريد أن تفرضه علي باتهام نيتي أو تشويهي حين أختلف معهم؟

دعني يا صديقي أجيبك أو أذكرك بالجواب الذي ربما تكون قد نسيته

في زحام نضالك المقدس - في نظرك - ضد مخالفيك.

إن جماعتك أو حزبك أو قادتك ليسوا معصومين، ومن الممكن أن يخطئوا أو يسيئوا، ومن يختلف معهم أو يرى خطأهم ويردهم أو يفند مواقفهم وخياراتهم بل ولربما رفضها ورأى مذمتها ليس بالضرورة حاقدا أو خائنا، وطالما يختلف بأدب فعليك أنت أيضا أن تجادله بالحسنى بل بالتى هى أحسن.

ينبغى عليك يا عزيزي أن تدرك أن متبوعك طالما أخرج رأياً من بين شفتيه، وجهر به وطرحه على الملأ مجاوزا أسوار عقله، فقد صار قوله عرضة للنقد والقبول والرفض والتفنيد والأخذ والرد.

ويفترض أن متبوعك أو قائدك يفهم ذلك جيدًا، ولئن ظن يوماً أن رأيه منزه مقدس، لا ينبغى لأحد رده، ولا يسع أحدًا رفضه فإنه قطعا لا يستحق أن يتصدى للعمل العام. فهو بذلك من أهل تلك القاعدة الفرعونية التي يبدو للأسف أن الأجيال تتوارثها في بلادنا!

قاعدة «ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد»

قاعدة التعصب في كل زمان ومكان.

عافانا الله وإياك من التعصب والمتعصبين..

٢١.بل هم المنتصفيون

كعادتي أقف كل فترة مع العبقرية الشعبية المصرية التي تلخص من خلال أمثالها وبكلمات قليلة العديد من المعاني العميقة التي قد تكل الأقلام والألسنة في بيانها.

من ذلك تشبيه المائعين المميعين ممن أدمنوا إمساك العصيِّ من المنتصف والتزلف لجميع الأطراف بالراقصين على السلالم فلا «اللي» فوق سمعوهم ولا «اللي» تحت شافوهم!

والمثل رغم جرأته واستدعائه لتلك الفعلة الخليعة إلا أنه يلخص ببساطة حال كثير ممن نراهم اليوم في مجتمعاتنا.

فرغم فجاجة الفعلة إلا أنهم في النهاية ولميوعة خيارهم لم يتمكنوا من لفت أنظار أي ممن حاولوا إسترضاءهم بمنتصفيتهم اللزجة!

وهنا لن أستعمل اللفظ الذي يحرص عليه ذلك الصنف من مدمني السلالم ليستروا به ميوعة قراراتهم الدائمة وضعف مواقفهم المستمر ألا وهو لفظ الوسطية والوسطية منهم بريئة

ذلك لأن ثمة فارق بين المنتصفية وبين الوسطية ربما لا يلحظه كثير من

أولئك المتصفيون

هذا الفارق ليس لغويا بقدر كونه شرعيا، يتبينه من أمعن النظر في الأدلة، وأدرك من خلال مجموعها أن الوسطية ليست دائما هي المعنى الظرفي المتبادر للأذهان، والذي هو المنتصف بين طرفين أو نقيضين، وإنما يأتي اللفظ في القرآن كثيرا بمعنى الأعدل والأفضل والأكمل.

من ذلك قوله تعالى في شأن أصحاب الحديقة الذين منعوا حق الفقراء فيها: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾، وأوسطهم هنا أى أعدلهم وأفضلهم.

ومنه أيضا قول الله عن كفارة اليمين: ﴿فَكَفَّارَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾، أى من أعدل وأفضل وأمثل ما تطعمون أهليكم، وليس كما يتصور البعض من عادي طعامهم ومتواضعه. وعلى ذلك تدور أقوال ابن عباس وابن عمر وابن جبير وعطاء وابن سيرين والحسن وغيرهم.

أيضا جاء ذكر الوسط في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ وتفسير الوسطية بالعدالة والخيرية هو المتسق مع كون هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس ولقد فسّر نبينا معنى «أمة وسطاً» بالعدل، كما في الحديث الصحيح بالبخاري وغيره

ويقول ابن كثير في تفسيرها: واخترناكم لنجعلكم خيار الأمم

وقال القرطبي: «وليس من الوسط الذي بين شيئين في شيء».

وفي مختار الصحاح: والوسط من كل شيء أعدله.

فالوسطية هي الخيرية والعدالة والإنصاف والقصد، وليس شرطا أن تكون المتصف كما يظن البعض، فيختار بين كل خيارين خيارا مائعا غالبا ما يكون بلا لون ولا رائحة، لمجرد أن يقال أنه توسط.

والمتصف أو الحياد ليس ممدوحا ولا مذموما بإطلاق، ولا تلازم بينه وبين التوسط أو الوسطية، فقد يكون الحياد في لحظة ما خيارا صائبا، على ألا يكون منهجا دائما، يجعل صاحبه شخصا مذبذبا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فلا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا، ولا ينصر حقا ولا يبطل باطلا.

ولئن صح أن تكون الشجاعة وسطاً بين الجبن والتهور فكم من متناقضات لا يُتصور أن يتم التوسط بينها بل الحق والصواب يكون بانحياز المرء قطعا لأحدها فلا توسط مثلا بين العدل والظلم ولا بين الصدق والكذب أو الإيمان والكفر وكلما تطرف تجاه كمال الصدق والعدل والإيمان فإنه يزداد بذلك خيرا وشرفا

لكن حين تشوش الرؤية ولا يستطيع الإنسان أن يميز بوضوح بين الصواب والخطأ، أو يقصر به فهمه ومعطياته عن إدراك خير الخيرين وشر الشرّين خصوصا في أحوال مختلطة لم تعد الخيارات فيها بالبساطة السابقة،

فإنه من حق الإنسان في تلك اللحظة أن يرفض تلك الخيارات المتاحة التي لم يجد نفسه في أي منها ولا ينحاز إلى أحدها لحين ظهور البديل الأقرب والأصوب في نظره، أو ربما يقوم هو بنفسه بطرح ذلك البديل يوما ما.

وليست كل النزاعات هي بين حق خالص وباطل مطلق، بل قد يكون الأمر اجتهاديا، وتقصر بالمرء أدوات الاجتهاد والترجيح بينهما فيختار الحياد الجزئي أو الوقتي تماما كما يختار السائق في خضم الضباب الكثيف أن يقف على جانب الطريق لحين انقشاع طبقاته وتمكنه من الرؤية والسير من جديد.

في هذه الحالة لا يوصف بالتذبذب أو الميوعة مثل هذا الحريص على خطواته الرافض للوقوع في المحظور، أو صاحب الرأى المختلف الذي لم يجد نفسه في أي من الموجود

لكن أن يكون هذا حال الإنسان دوما، متعللا بأن هذه هي الوسطية أو التوسط أو الاستقلال، فهذا على الرغم من أنه أكثر راحة إلا أنه استسهال لا يفرق كثيرا عن نقيضه الذي يزعم أنه يرفضه، وهو الإمعة المتطرف في انحيازه واتباعه الأعمى وما أولئك بوسطيين بل هم المتصفيون المتميعون.

٢٢.بل هم المتطرفون

ولست أعني بالتطرف هذا المعنى الذي تبادر إلى ذهنك عزيزي القارىء حين طالعت اللفظ في عنوان المقال، لم أقصد به تلك التهمة الجاهزة التي لنا عقودا نشهد قصرها على المتدينين واستعمالها في حقهم حصريا، وذلك كفزاعة إعلامية مملة يندر أن يخلو منها عمل درامي أو أدبي في السنوات الأخيرة

لكنني ها هنا أقصد عموم اللفظ الذي صار سمةً شبه عامة على سائر طوائف المصريين بمتدينيهم وغير متدينيهم إلا من رحم الله، خصوصا في هذه الأيام التي صارت الحافة فيها ملجئاً دافئا يأوي إليه المتطرف، متحصنا برفاقه المتطرفين راضيا بهم، ورافضا كل من سواهم، سواءً المتصفيين المائعين الذين تكلمت عنه في المقال السابق ممن تحصنوا هم أيضا بالمنتصف واختبأوا في ميوعة خياراتهم وتذبذب مواقفهم، أو المتطرفين على الحافات الأخرى وما أكثرها هذه الأيام.

أيام لابد أن تكون في أقصى طرف ما؛ لكي تُقبل بين باقي جموع المتطرفين الذين يعيشون فيها. أيام صار في كل اختيار أطراف، وفي كل رأي

أطراف، وفي كل أزمة أطراف، وفي كل موقف صغر أو كبر أطراف وأطراف.

وبغض النظر هل يسوغ هنا الخلاف أو لا يسوغ، وهل هي مسألة من معاقد الولاء والبراء ومواطن المفاصلة العقدية أم أنها أمور اجتهادية تتباين فيها الأنظار وتتفاوت فيها الرؤى، فإن كل ذلك لم يعد مهما.

المهم أن تتطرف وأن تنحاز في كل صغير وكبير.

المهم أن تكون ألفاظك أشدَّ وأحدَّ الألفاظ، وخياراتك دوماً على أقصى الأطراف، وآراؤك باستمرار في أبعد نقطة من الحافة المقابلة.

لابد أن تقدس متبوعك تمام التقديس، وأن تطبل لحليفك ومحبوبك، وأن تحتفي بكل مواقفه، وأن تدعم كل قراراته، وأن توقع له صكا دائما بالثقة أو (شيك) على بياض تقر من خلاله أنه يستحيل أن يخطىء، ولئن بدا يوما لكل عين أنه مخطىء فلتكذب عينك ولترح عقلك ولتقل: أكيد له مأرب ومقصد عظيم لم أستطع بعقلي المسكين إدراكه، لكن يخطىء كالبشر؟! معاذ الله!

ولابد كذلك أن تبغض مخالفك بغضا خالصا،

لابد أن تشيطنه تماما، ولا تقبل منه أى شىء حتى لو كان منذ أيام حليفا لك وحبيبا وصاحبا، وحتى لو كانت تجمعكما كثير من المشتركات

والذكريات والآمال والأحلام. فلقد صار طرفا في مجتمع الأطراف والتطرف لذا فلابد من هدمه بالكلية.،

ومعلوم أن التأثير واقع بالبناء وبالهدم، وأن الهادم يترك أثرا كما يفعل الباني وإن كان الفارق شاسعا بين الأثرين، ومن البديهيات أن الهدم هينٌ يسير والجميع يجيدونه، حتى الطفل الصغير يمكنه بمجهود بسيط أن يكسر أغلى الأشياء وأنفسها قدرا، لكن البناء أصعب بلا شك وليس الكل يجيده، بل ربما لا يريد أن يجيده.

قارن بين المجهود والإبداع اللازم لإقامة صرح أو رفع بنيان أو بذل شيء ينفع الناس، وبين المجهود اللازم لنقض أى من ذلك وهدمه أو تحطيمه، وعندئذ سيتضح لك الفارق جليا.

لكن لماذا تتعب نفسك أيها الهادم في البناء بينما التحطيم أسهل تأثيرا وأكثر صخبا؟!

لماذا تنفق جهدك في تشييد ما ينفع أو إصلاح ما تكسر، بينما تستطيع بسهولة ويسر أن تكسر المزيد والمزيد؟!

لماذا توقد شمعة بينما تستطيع ببساطة أن تلعن الظلام؟!

هكذا يفكر الهادم.

وهكذا يستسهل الطريق.

فإن اخترت يوما أن تؤثر عن طريق البناء وليس عن طريق الهدم.

إن حاولت أن تعدل وتبتعد عن الحافة وتجتنب طريق الغلو والمبالغة.

إن حاولت أن تُنصف فتُقَوِّم من تراه مسيئا حين يسيء، وتثني عليه حين يحسن ساعيا لأن تدور مع الحق حيث دار.

إن حاولت أن تحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون يوما ما بغيضك، والعكس كما أمرك نبيك.

إن حاولت أن تُقَيِّم المخالف بتقييم تراكمي أو كلي.

إن حاولت أن تختلف دون أن تتطرف أو تتخلى عن عفة لسانك وأخلاقيات ملتك.

بل حتى إن فكرت وقدرت فقررت أن تنأى بنفسك عن مستنقعات التراشق وأوحال العنف اللفظي، لتغرس فكرة أو تروي معنى أو تؤصل وتُنَظِّر لقيمة سامية تدوم بعدك وينتفع الخلق بها، وتكون لك رصيدا يوم لا ينفع مال ولا بنون.

فعذرا

ليس مسموحا لك بهذا وليس لك مكان في هذه الأيام

أيام الأطراف..

والمتطرفين

٢٣. مِغسّل وضامن جنّة

قالوا قديما في المثل: غسله واعمل له عمة... قال يعني أنا مغسل وضامن جنة!!

كلمات بسيطة وذكية كعادة الأمثال الشعبية المصرية تلخص رسالة يفترض أنها كانت مستقرة في الوجدان المصري، بل في الوجدان المسلم بشكل عام، أنه لا أحد يضمن مصيره فضلا عن مصير غيره.

لا أحد يمتلك القدرة على الحكم لفلان بالجنة، أو الجزم لفلان بالنار.

معنى بدهي ومنطقي وأصل إسلامي يفترض أن يعلمه الجميع أجملته تلك الكلمات البسيطة التي عبر المصريون من خلالها عن معتقد هام يظهر في العديد من الآيات والأحاديث الصحيحة، معتقد: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾،

ومسلمة أن الله وحده يعلم مصير الإنسان ومآله وحقيقة تقواه ودينه: ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾

لقد لخص النبي ﷺ ذلك المعنى في جملة قالها يوم موت صاحبه عثمان بن مظعون، وجاء البعض يزكونه، ويجزمون له بالجنة، فقال: «والله ما أدري

-وأنا رسولُ الله- ما يُفعَلُ بي ولا بِكم». ورغم ما له من مبشرات ومنزلة عند ربه، إلا أنه على ما يبدو أراد التعميم لترك الأمر كله لله وإثبات تمام الافتقار والتسليم المطلق في أمر المصير إليه حتى مصيره هو نفسه.

ولما جاء الصحابة يزكون رجلا مات أثناء الجهاد، إذا بالنبي ﷺ يفاجئهم بأنه ليس كما يتصورون، وأن الرجل إنما اتكأ على سيفه وقتل نفسه.

وغير ذلك من الآيات والأحاديث التي يمكننا من خلالها تبين تلك الحقيقة، التي من المفترض كما قلت وكما بدا من المثل أنها بديهية ومنطقية.

لكن للأسف الشديد يبدو أن كثيرا من المصريين قد نسوا أو تناسوا تلك الحقيقة، وظهر من خلال لسان حالهم ومقالهم أنه قد تسربت إليهم دون أن يشعروا خصلة من خصال من قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾.

صحيح أن المصريين لم يقولوها بتلك الفجاجة والاستعلاء، لكنهم أكدوا معناها من خلال نفيهم المستمر لإمكانية فتنة الشعب المصري عن دينه وعقيدته وعن قيمه وأخلاقياته، وكأنما اتخذوا عند الله عهدا، فيه ذلكم الجزم المزعوم أنهم بمنأى عن الفتن وبمعزل عن الضلال إلى يوم الدين!

العجيب أن الصحابة أنفسهم كانوا يخشون على أنفسهم النفاق، ولا يأمن أحدهم على نفسه لهذه الدرجة!

بل وحتى الأنبياء عليهم السلام كانوا يحرصون على دعاء ربهم

بالثبات واجتناب عبادة الأصنام، وما دعاء إبراهيم ويوسف عليهما السلام بالشيء الذي يغيب عن الأذهان، لقد دعا الأول ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام، بينما طلب الثاني الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين، كما تضرع نبينا ﷺ لمقلب القلوب كي يثبته على دينه.

فمن أين يأتي البعض بكل هذا الأمن والاطمئنان والجزم الراسخ أنهم بمنأى عن الفتن؟

وناهيك عما في تلك الأقوال من كبر وافتئات على علم الله بمآلات ومصائر العباد، فإن تلك المقولات والأفكار تنافي الواقع والتاريخ،

فهل هناك أمة يمكن أن يقال عنها أنها بمعزل عن التغير والتحول والتبدل؟

كم من الأمم تغيرت عقائدها وأفكارها مرارا وليس مرة واحدة، خصوصا بعد الأحداث الجسام كالثورات والحروب.

وهل كانت روسيا شيوعية قبل الثورة البلشفية؟ وهل كانت فرنسا علمانية تعلن شنق آخر ملك بأمعاء آخر قسيس قبل الثورة الفرنسية؟ وهل كانت إيران دولة ثيوقراطية رافضية تُحكم من عتبات قُم والنجف قبل الثورة الخمينية؟

وهل مصر الخمسينات والستينات تشبه مصر في القرن التاسع عشر

وأوائل القرن العشرين؟ بل هل مصر قبل الحقبة الفاطمية وحكم العبيديين الرافضة مثل مصر بعدها حتى بعد تطهيرها منهم على يد صلاح الدين؟

الجواب معروف، وعشرات البدع والخرافات التي تنتشر في ربوع مصر مرجعها إلى موروثات تلك الحقبة التي يتشدق البعض قائلين إنها لم تؤثر في المصريين.

وعلى افتراض جدلي أن مصر لم تتأثر قط في الماضي بحملات التغريب والإفساد للأخلاقيات والعقائد فهل هذا يعطيها صكا وعهدا يفيد عدم حدوث ذلك مستقبلا؟

إن القاعدة المعروفة والمطردة أن الحي لا تؤمن عليه الفتنة.

ومهما حاول المصلحون وظني بهم أنهم سيحاولون، وسيبذلون قصارى ما يملكون ليقفوا أمام أبواب الفتن، ويواجهوا أمواجها فإن ذلك لا يخفف من وزر من فتح الباب لها ولا ينفي تلك الحقيقة التي عبر عنها المصريون قديما بذكاء وتواضع مؤكدين أنهم ليسوا من الفتنة محصنين ولا للجنة ضامنين.

❋ ❋ ❋

٢٤.قبل أن تضغط الزناد

حين تضغط الزناد فأنت بتلك الحركة البسيطة قد قررت قرارا مصيريا لن تعود حياتك بعده كما كانت قبله

لقد قررت أن تختطف حياة إنسان.

حين تضغط الزناد فقد قررت أن تسدل بذلك الستار وتضع كلمة النهاية لرحلة حياة كاملة مليئة بنفس ما تمتلىء به حياتك من زخم وأحداث وآمال وطموحات

حين تضغط الزناد فتنطلق رصاصتك باحثة عن مستقر لها فأنت بذلك قد قررت إنهاء أحلام وأماني وأفراح وأحزان ومشاعر وذكريات قد امتلأ بها ذلك القلب أو فكر فيها ذلك الرأس الذي استقرت فيه رصاصتك

حين تضغط الزناد فأنت لم تضف مجرد رقم جاف بارد إلى إحصائيات القتلى التي صار وقعها على كثير من القلوب عاديا رتيبا ولكنك بذلك أثكلت أما ويتمت طفلا ورملت زوجة ودمرت بضغطتك هذه أسرة وصحبة ومزقت برصاصتك أواصر صداقة ومحبة وارتباط وصنعت قروحا وجروحا وثارات في قلوب ربما لا تندمل أبدا

حين تضغط الزناد فأنت بذلك ربما تكون قد أنفذت أمر مخلوق لكنك أهدرت أمر الخالق الذي دعاك لإحياء تلك النفس وحذرك من إزهاقها بغير حق

حين تضغط الزناد فتقتل مظلوما أو بريئا فاعلم أنك لم تعد في فسحة من دينك وأنك قد ارتكبت جرما أعظم من زوال دنيا وهدم كعبة

حين تضغط زناد سلاحك فتخرج طلقتك في مقتل أو تضغط زناد لسانك فتخرج كلمتك الآمرة أو المحرضة في مقتل أيضا فاعلم أن نفسك لن تعود أبدا كما كانت بعد أن طوعت لك قتل أخيك المسلم أو المعاهد ولتتبع ركب ابن آدم الأول وطالما لم تتب فلتفقد الأمل في إدراك مجرد ريح الجنة الذي يوجد من على مسيرة مائة سنة كما صح الحديث بذلك

وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم

فكر في كل ذلك جيدا قبل أن تضغط...

قبل أن تضغط

قبل أن تضغط الزناد

❋ ❋ ❋

٢٥.أن تكون مجرد رقم

من بعيد بدت الجنازة قادمة والملأ يحملونها..

قام النبي ﷺ من مكانه واقفا فقام الصحابة لقيامه لكنهم انتبهوا إلى أمر نبهوا إليه النبي فورا.

- «يا رسول الله إنها جنازة يهودي!»

جنازة رجل من أشد الناس عداوة للذين آمنوا كما بلفظ الآية القرآنية.

- «أليست نفسا؟»

بذلك السؤال البسيط قعَّد رسول الله ﷺ تلك القاعدة العظيمة.

قاعدة احترام النفس البشرية وعدم امتهانها أو الاستخفاف بها.

لقد قال تلك الكلمة الجامعة المانعة ليلخص بها نظرة الإسلام للحياة الإنسانية ولقيمة النفس البشرية ولو كانت نفس يهودي!

أليست نفسا؟

بلى يا رسول الله هي نفس

وللنفس احترام

ولموتها مهابة أيا كان صاحبها.

-إن تقدير تلك اللحظة المهيبة واحترام ذلك الحدث الفارق -الموت- كان حال النبي دائما مهما كانت الظروف وقد ظهر ذلك عند عودته من أحد أسفاره وعلمه بموت تلك المرأة الفقيرة التي كانت تنظف المسجد فما لبث إلا أن ذهب لمثواها ليصلي عليها وحده.

وظهر أيضا في إصراره على دفن عبد الله ذي البجادين بنفسه في جوف ليلة قضى فيها ذلك الرجل البسيط الفقير نحبه دون أن يشعر به أحد لكن رسول الله شعر به وقام ليكون آخر من يودعه ويضعه بيديه الشريفتين في قبره.

وظهر عند موت جليبيب ذلك الصحابي الذي كان دميم الخلقة كاسدا بين الناس لا يعرفه الكثيرون لكنه عند الله لم يك كاسدا وقد بحث عنه النبي بعد أحد الغزوات حتى وجده مضرجا في دمائه فدفنه بنفسه وليس لجليبيب حينذاك سرير إلا ذراعي النبي الشريفتين الذي ظل يردد هذا مني وأنا منه.

وفي زمان صارت فيه الأنفس أرقاما تحصى يوميا وأصبحت أنباء الشهداء والضحايا والأبرياء هنا وهناك تداهمنا كل حين نحتاج لاسترجاع تلك القيمة النبوية.

قيمة احترام الموت وتقدير مهابته ورحمة الميت.

قبل أن تتحول تلك القيمة بالتدريج لمجرد أعداد جامدة مصمتة تألفها

الآذان وتعتادها الأعين ويأتي علينا يوم لا نكلف فيه أنفسنا ولو بمعرفة أسماء أصحابها أو تأمل سيرهم وربما لا نتذكر حينئذ أنهم بشر وليسوا أرقاما.

بشر عاشوا بيننا لهم أحلام وطموحات وفي صدورهم كانت تخفق قلوب تمتلىء بالمشاعر وتنبض بأفراح وأحزان قبل أن تتوقف تلك القلوب للأبد لتترك قلوبا أخرى تتألم لفراقهم وتحترق لما أصابهم

قلوب أهليهم وأحبابهم الذين يعرفون أسماءهم ويدركون جيدا أن هؤلاء ليسوا مجرد أرقام

عاد جيش المسلمين يوما فمضى عمر بن الخطاب إلى استقبالهم كعادته وسألهم عن إخوانهم الذين قضوا نحبهم فعدّوا له فلاناً وفلاناً من أعيان الناس وأشرافهم ومضوا في ذكر أقوام بأسمائهم

ثم قالوا: واستشهد آخرون من عوام الناس لا يعرفهم أمير المؤمنين

هنا قال الفاروق كلمته الخالدة باكيا:

وما ضرهم ألا يعرفهم أمير المؤمنين إن كان ربهم يعرفهم ويعرف وجوههم وأنسابهم..

وما ضر شهداء اليوم ألا نعرفهم وألا تقام لهم صفحات (كلنا فلان) على شبكات التواصل أو تدبج لهم المرثيات عبر وسائل الإعلام فيكفيهم أن

ربهم يعرفهم

ما ضرهم أن ينساهم الناس ولا يتذكرهم من البشر إلا بعض أصدقائهم وأحبابهم ويتحولوا في النهاية إلى أرقام تضاف إلى سجلات الضحايا إن كان ربهم يعرفهم ويقضي بينهم وبين من تسبب في إراقة دمائهم كأول ما يكون القضاء في ذلك اليوم العبوس القمطرير

ما ضرهم أن يستمر البعض في إهانتهم وتحقيرهم حتى بعد موتهم وأن يشكك فيهم هذا وينفي عنهم الشهادة ذاك أو يزايد عليهم هؤلاء ويتاجر بهم أولئك وكأن كل قيمتهم أنهم أرقام وإحصاءات

ما ضرهم كل ذلك إن كانوا عند الله ليسوا مجرد أرقام بل أنفس بشرية مكرمة لزوال الدنيا أهون عنده من زوال نفس واحدة منها

أنفس حرمة أحدها عند خالقها هي أشد حرمة من كعبته المعظمة

ما ضرهم شيء من ذلك وإنما ضر من تخلى عن تلك القيمة فهانت عنده النفس وإزهاقها وتحولت في نظره إلى محض مزايدات ومتاجرات وتشكيكات ومراء حول تعدادها حتى صارت في النهاية بالنسبة إليه مجرد.... رقم.



٢٦.ولو كان يهوديا

رغم كل خيانات اليهود للنبي ﷺ ولأصحابه ورغم تآمرهم على الدولة الوليدة فى المدينة النبوية؛ إلا أن المرء يقف مشدوها ذاهلا أمام ذلك الموقف القرآني العجيب الذي كان أحد أطرافه رجلا من يهود وآخر من كبرى عائلات الأنصار

لقد وقع ذلك الأنصاري النسب «بشير بن أبيرق» في خطيئة السرقة واستولى على درع أحد الصحابة ولما كاد أمره أن يفتضح ألقى بالدرع في دار يهودي يقال له «زيد بن السمين» وليقيد الحادث ضد.... يهودي!!

ولما لا؟!!

وهل لليهودي دية في المجتمع المسلم وقد ثبتت خيانات بني ملته مرارا وتكرارا؟!

فليقيد الحادث إذًا ضد يهودي وليخرج الأنصاري سليما معافى ويا دار ما دخلك شر!!

هكذا ظن السارق الأنصاري نسبا الذي ارتد بعد ذلك وتبين أنه كان من المنافقين المظهرين غير ما يبطنون

هكذا ظن... وهكذا يظن البعض ويحسبون أنه لا دية ولا كرامة ولا حقوق تستحقها الطائفة التي تُعادى أو تُبغض

لكن الله لم يرض بهذا ولم يترك بريئا يحاسب بذنب لم يرتكبه حتى لو كان هذا البرىء يهوديا

فأنزل قرآنا يبرىء به ساحة اليهودي ويدين «الأوسي» الذي خان وذلك في آيات كريمات من سورة النساء خُتمت بتلك القاعدة القرآنية الخالدة ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾

قاعدة تقطع بأن دين الله لا يُقبل فيه تعميم عقاب أو نزع حقوق المرء بسبب كراهية أو اختلاف أو حتى عداوة بل إن أشد الناس عداوة لا يحاسب إلا على ما اقترفته يداه وأنه مهما كان الشنآن والبغض فإن ذلك ليس أبدا مبررا للظلم والبهتان وسهولة رمي الخلق لمجرد العداوة بكل عيب ونقصان

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾

والعجيب أن الله اختار أن يكون بيان البراءة بنص قرآني وقد كان من الممكن ان يتم الأمر بتوجيه للنبي ﷺ وينتهي الأمر

لكن الله أبى إلا أن تكون قاعدة عامة وأصلا ثابتا ما أحوجنا إليه

خاصة في هذه الأيام

ورغم أن الجرم يتضاعف والإساءة تعظم حين يكون البهتان والظلم الذي افتراه الإنسان في حق غيره بشيء هو من فعله وجرم قد اقترفه وذنب هو من جناه فيرميه بما فيه ويتهمه بما اقترفته يداه فلا هو اكتفى بمعصيته ولا هو قصر أذاه عن غيره ولكنه أضاف إلى اعتدائه بهتانا وظلما أصاب به بريئا

إلا أن الأمر لم يكن مجرد تبرأة برىء ولكنه كان إقامة لميزان حق وعدل لا يميل مع الحب والبغض ولا يتأرجح مع الهوى أو العصبية.

ميزان لا تميله آفات وعوامل الضعف الإنساني ولا تطففه مصالح شخصية أو انتماءات حزبية أو أهواء قبلية ولا تفسده أحقاد أو ضغائن أو عداوات حتى لو كانت بمثل هذه الطبيعة العقدية بين المسلمين واليهود

وحتى لو كان الذى عليه الحق من أقرب الناس فلابد من العدل معه

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

لقد وعى النبى ﷺ هذا المعنى القرآني جيدا وعلمه للأمة جليا بينا فى قوله: «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»

نعم والله وتالله وبالله

بمثل هذا تستقيم الدنيا وبمن يصدعون بذلك وينهون عن ضده تنجو الأمم ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ وبمثل ذلك الميزان يرفع العذاب والهلاك ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾

بميزان الحق والعدل والإنصاف مع الجميع وليس بالشنآن والبهتان والرمي المطلق بكل عيب ونقصان واستسهال أن يقيد الحادث دائما ضد فلان الذي أكره أو علان الذي أعادي وأنسى أن فلان وعلان هذا في النهاية هو إنسان

ولو كان يهوديا..

* * *

٢٧. كشف هيئة

فى المقال السابق تكلمنا عن قيمة العدل الإلهي وكيف أن الله أنزل في كتابه براءة يهودي على حساب أنصاري موضحا قيمة ذلك العدل الرباني وكيف أن الشريعة لم تستثن اليهودي من إنصافها رغم أن قومه بشهادة القرآن هم أشد الناس عداوة للذين آمنوا وبينت من خلال الآيات أن قيمة العدل قيمة مطلقة لا ينفيها شنآن ولا تصيبها العداوة بالنقصان فهي حق أصلي لكل إنسان

المهم المقال نُشر وكان مطلقا وآثرت ألا أقيده بإسقاط أو تنزيل معين لأذر تلك القيمة المطلقة شاملة جامعة ولا أقيدها بربط يثير الجدل أو تكييف ينقص الفائدة ويوغر الصدر واللبيب يفهم بالإشارة وصاحب البطحة هو من يصر دوما على وضع يده عليها

في نفس العدد كتب أحد الأفاضل عن نفس القيمة – قيمة العدل في الإسلام – بكلام جميل مستمد في أغلبه من الشريعة الغراء مزينا مقاله بالكثير من آيات الذكر الحكيم

لفت نظري بعد قراءتي لمقاله الجميل أن ردود الأفعال على مقاله كانت

مختلفة إلى حد كبير عن مثيلاتها على مقالي رغم أن الموضوع شبه متحد والتناول قرآني متقارب جدا

غبطت الكاتب على ردود الأفعال الطيبة متمنيا له التوفيق ثم استرجعت السباب والتخوين الذي نالني على مقالي لدرجة دفعت أحد المعلقين لوصفي بأنني من الخوارج والعياذ بالله

مقال يدعو إلى العدل يُتهم كاتبه بأنه من الخوارج الذين كان أهم حديث نبوي قيل عنهم متعلق برجل رمى النبي بانعدام ذلك العدل!

ياها من مفارقة!!

لكن المشكلة ليست في السباب والإهانات والتخوين فقد فشت وكثرت لدرجة جعلت الالتفات لها مضيعة للوقت والجهد.

المشكلة كانت في تساؤلات ألحت على ذهني.

لماذا تباينت ردود الأفعال على المقالين ولماذا تُقبلت دعوة الكاتب الفاضل بينما ووجهت نفس الدعوة مني بسوء الظن؟!

تعودت في مثل تلك الحالة ألا ابرر الأمر بالاضطهاد أو أعلقه على شماعة الاستقصاد

فتحميل الخطأ للمعلق دائما أراه هروبا وشماعة المزايدة أو تحميل خطأ الغير للمرء أيضا أراه دفنا للرأس في الرمال

بل علي أن أتهم نفسي وأراجعها وأحملها المسؤولية لها تنصلح بذلك وتتغير إلى الأفضل

لكن الأمر يتكرر ولابد له من سبب

فقلت: لعل ذلك لمخالفة ما تدعو إليه الآن لسابق حالك ومن ثم حدث اتهام لنيتك وأُسيء الظن بقصدك.

لكنني وجدت أن لازم تلك الفرضية أنني دعوت من قبل للظلم أو رضيته لا قدر الله.

مررت مرورا سريعا على سابق كتاباتي ومواقفي فلم أجد ذلك بل وجدتها منذ أعوام تدور حول نفس القيم!

وجدتني منذ أعوام أكتب عن العدل وعن الإنصاف والتجرد وتلك المعاني التي طالما دارت حولها مقالاتي

سألت بعض المقربين ومن أثق بسداد نصحهم أرأيتم مني يوما دعوة للظلم أو رضا به؟ فكانت الإجابة دوما العكس!

فأين المشكلة إذاً؟

«شكلك يخوف يا إرهابي»

تذكرت هذه الجملة التي قيلت لي منذ عام في حوار مع أحد الناشطات على موقع تويتر وبعد أول جملة من الحوار وجدتها تكتب هذه الجملة التي

كتبت عنها مقالا من قبل!!

موقف آخر مماثل حدث منذ أسابيع حين علق البعض على مقال لي بسؤال: كيف تسمحون للإرهابيين بالكتابة؟!

إرهابيين وخوارج؟!

الموضوع كبير على كدة!!

هذا بخلاف ما نلقاه يوميا من مواقف واتهامات شبيهة.

بعد بعض البحث والنقاش ستجد أن جُل أصحاب تلك الردود والمراسلات لا يعرفونك أو يتابعون ما تكتب وهذا طبعا حقهم فليست متابعتي فرضاً ولا القراءة لي ومعرفتي واجبا.

لكن أن تُختزل كل آراء المرء ومواقفه في هذه الصورة المرفقة وتلك اللحية التي تبدو منها فهذا ما ليس من حقهم

حين تجد تعليقا على مقال يدعو إلى العدل والإنصاف يتهمك أنك إرهابي أو من الخوارج دون أن يعرفك فصاحبه لا يقصد يقينا أن العدل المذكور من مفردات الإرهاب أو أن الإنصاف من عقيدة الخوارج..

لم يتبق إذن إلا تلك الهيئة المختلفة

تلك الهيئة التي جعلتهم فورا يضعونك في نمط معين من خلاله قرروا أن يحكموا على رأيك ونيتك وتاريخك بل وعقيدتك ولم ينتبهوا إلى أنك منذ

شهور كنت تخالف بعض من يحمل نفس تلك الهيئة لأن منهم من وقع في مثل ما يفعلونه هم معك اليوم وأنك تحملت منهم الكثير حينئذ لأجل تلك القيمة التي ظنوا أنها وليدة اليوم

قيمة العدل والإنصاف وعدم إطلاق الأحكام على فكر الناس وآرائهم وعقائدهم لمجرد نظرة سطحية لمظهرهم..

يومها رفضت أن يكفرهم أحد أو يسبهم ويؤذيهم بينما يطالبون هم اليوم بإسكاتك وكتم صوتك ويؤذونك ويهددونك ويُخَوِّنونك لمجرد أن صورتك لديهم لها نمطية معينة شُكِّلت من خلال تضافر بين أخطاء بعض حَمَلَتها وتشويه ممنهج من خصومهم

هل سيجدي بعد ذلك أن تطلب ممن استباحك واستحل عرضك وربما دمك واتهم نيتك وعقيدتك بهذه الطريقة أن يعدل وينصف ويناقش رأيك وكلامك بموضوعية قبل كشف الهيئة وتأمل صورتك وتأطيرك من خلالها؟؟

للأسف لا أظن هذا يجدي مع من فكر بهذه الطريقة وبنى حكمه من خلال الشكل والمظهر وليس من خلال الفكرة أو الرأي

ومع ذلك ورغم كل الإهانات والتطاول فلن نضع مساحة فارغة مكان صورنا أو نتعامل مع لحانا على أنها عورة نخفيها ونستحيي منها أو

نغير أشكالنا إرضاء لأحد أو طمعا في ثنائه ولو فعلنا لفقدنا احترامنا لأنفسنا قبل احترام الناس لنا.

لذا سنظل نكتب ونصدع بما ندين لله به وليختر المنصف مناط تقييمه وحكمه هل سيكون من خلال كلامنا وآرائنا وطرحنا أم عبر صورنا وكشف هيئاتنا؟!



٢٨.حتى على صوت المعركة

من خلف سحائب الغبار الكثيف الذي أثارته سنابك الخيل وأقدام المقاتلين تعالى صليل السيوف ودوت قعقعات المعركة

قتال شديد هو

قتال يكاد ضجيجه يصم الآذان

في ناحية من نواحي المعركة بدا ظلان يقتتلان في مبارزة رهيبة يغلب على الظن أنها لن تنتهي إلا بموت أحدهما

إنه أسامة بن زيد في مواجهة مميتة مع أحد صناديد المشركين

من الواضح أن الكفة تميل لذلك الشاب الحبيب لرسول الله هو وأبيه

غالبا لن تمر لحظات إلا وينال أسمة من خصمه

ها هو المشرك يسقط على ظهره منهكا وها هو سيف أسامة يعلوه ليجهز عليه

رغم ضجيج الغزوة وصليل سيوفها المختلط بصهيل خيولها إلا أن صوتا علا فوق صوت المعركة

- أشهد ألا إله إلا الله

صوت الكلمة يقرع أذني أسامة

نعم لقد سمعها واضحة جلية

الرجل يشهد شهادة التوحيد

الآن والسيف فوق رأسه!!

ما هذا يا رجل؟!

أوتظنه ساذجا؟!

قطعا تقولها نجاة من الموت المحقق الذي يطل عليك برأسه من بريق سيف أسامة

لا شك أنك تصرخ بها هربا من ذلك النصل المحدق بك

ربما مرت تلك الخواطر برأس أسامة في تلك اللحظات القصيرة والرجل يهتف بالشهادة في وجهه

ولعل ذلك السيف قد قطع تلك الخواطر بينما ينفذ في جسد الرجل كاتما صوته الصارخ بكلمة التوحيد

لقد مات الرجل!!

لكن ماذا في هذا؟

أوليست معركة؟

إذا لا صوت يعلو فوق صوتها

«فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة»

هكذا صاح النبي في لحظة من أشد لحظات غضبه الذي ما كان يوما إلا لحرمة من حرمات الله تنتهك

لم يغفل النبي عن ذلك الصوت الذي علا فوق صوت المعركة

لم يقل كما يحلو للبعض أن يتشدقوا أثناء الأحداث المفصلية الفارقة: مش وقته... بعدين... المعارك لها احترامها

لم يقل: لا صوت يعلو فوق صوت المعركة

لقد علا صوت المبدأ والعقيدة

أفلا شققت عن قلبه؟!

هكذا عنف حبيبه الذي لولا تحريم التبني لكان يدعى حفيده

وهكذا قال عن أولئك الذين أفتوا السائل في المعركة بأن يغتسل ورأسه مصابة فمات من فوره فلم يحل كونهم في معركة بينهم وبين أن يقول عنهم النبي: قتلوه قتلهم الله هلا سألوا إن لم يعلموا

وهكذا فعل مع خالد بن الوليد يوم وقع في فعل مشابه فلم يمنع صوت المعركة من أن يعلو صوت الحبيب ﷺ صادعا: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد

حتى حين أرسل جيشا لفتح خيبر وقتال يهودها لم يعل صوت معركتها

على صوت توجيهه لقائد جيش المسلمين في تلك الغزوة علي ﷺ إذ قال له: لئن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم

هكذا علمهم وعلم الأمة من بعده

وهكذا علمه الله بعد معركة سالت فيها دماؤه الشريفة على وجهه فقال: كيفَ يُفلِحُ قومٌ خضَّبوا وجهَ نبيِّهم بالدَّمِ وَهوَ يَدعوهم إلى اللهِ؟!

فأنزل الله قوله يعلو على صوت كل معركة ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾

وليتعلم وتتعلم الأمة رغم الألم أن هنالك أصواتا لابد أن تعلو على صوت المعركة وكل معركة

صوت العقيدة،

صوت المبادئ،

صوت الإنصاف،

صوت الأخلاق،

صوت العقل،

وغيرها من الأصوات التي ربما لا تبدو عالية عند الناس أثناء المعارك لكنها ستعلو يوما بعد يزول غبارها وتضع الحرب أوزارها وحينئذ ربما يكون الأوان قد فات ولا ينفع الندم

منذ شهور وفي مقال يحمل عنوان «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة» كتبت محذرا من أنه ستأتي لحظة يرفع فيها الجميع هذا الشعار ونصل الى المعركة الصفرية التي لا يقبل فيها أحد مجرد اللوم والنقد

وهاقد عشنا تلك اللحظة

بل اللحظات والساعات والأيام التي ارتفعت فيها سيوف التخوين وخناجر التكفير ورماح التفسيق والتحقير في وجه كل مخالف او معترض بتلك الحجة التي لا يفارقها فاشي في تاريخ البشر

المبدأ الذي يطل برأسه ليسفه أي معارض ويطيح بأي مخالف ويمنع أي نقد ويكتم أي صوت لا يوافق معركته التي يعتقد ألا صوت يجب أن يعلو فوق صوتها

لكن علو صوتها واحتدام ضجيجها لن يمنعنا من محاولة توصيل أصواتنا

ويوما ما سيزول الغبار ويهدأ الضجيج وسيدرك الجميع أن صوت الحق وصوت الصواب وصوت المنطق والحكمة كان ينبغي أن يعلو على كل صوت

حتى على صوت المعركة

٢٩. كفاكم امتحانا للناس

- ماذا تقول في القرآن؟

- هو كلام الله غير مخلوق.

- إذا فهو العذاب حتى تقول بقولنا أو تموت دونه.

كلمات تلخص أحداث فتنة عارمة مر بها المسلمون يوما حين وصل المأمون لسُدة الحكم وقد اعتقد باعتقاد المعتزلة الذين رأوا أن القرآن مخلوق!

وبغض النظر عن التفاصيل الكلامية والفلسفية لذلك الصراع، والتي محلها كتب الاعتقاد لمن شاء أن يستزيد في فهم أصولها وتفاصيلها، ويدرك قيمة إصرار أهل السنة وإمامهم أحمد بن حنبل على رفض مقولة المعتزلة والتأكيد على أن القرآن ليس مخلوقا، فإن من أهم الفوارق بين تلك المعركة وغيرها من المعارك الفلسفية والكلامية في التاريخ الإنساني عموما والإسلامي خصوصا أن أصحاب ذلك الرأى قرروا فرضه على الناس.

بل وقرروا امتحان الخلق عليه!

وهذا هو ما نقل تلك المسألة من بطون الكتب وقاعات التناظر إلى خنادق الفتن وأقبية السجون، وحوَّل أدوات الصراع فيها من لسان ومحبرة

إلى سوط وسيف.

ما حدث في فتنة خلق القرآن هو ببساطة تلاقح بين السلطة والفكرة، وسيطرة من كهنة الفكرة على صاحب السيف، ومن ثم كان الإجبار وحدث الإكراه بعد أن صارت للفكرة أنياب تنهش مخالفيها.

لقد ترخص كثير من الناس وقبلوا أن يبتلوا على عقيدتهم ويُختبر مذهبهم، ثم قبلوا بعد ذلك وتحت وطأة التهديد والتعذيب أن يرضخوا ويتقوا من الظالمين تقاة ويقولوا تعريضا ما يرضيهم، اللهم إلا بضعة نفر، ثبتوا وقتل أغلبهم كابن نصر ومحمد بن نوح وثبت الإمام أحمد بن حنبل رغم التعذيب الرهيب حتى كشف الله الغمة، وجاء عهد المتوكل وأوقف تلك المهزلة.

أحداث شبيهة وقعت في المغرب أثناء حكم دولة المرابطين ومن بعدها دولة الموحدين حيث فُرض على الناس في الدولة الأولى المذهب المالكي وتم تعزير من لم يلتزمه بل ووصل الأمر إلى إحراق بعض الكتب المخالفة للمذهب ثم جاء زمان محمد بن تومرت مدعي المهدية وقائد دولة الموحدين ورغم أنه ادعى أن تلك الأفعال من أسباب ثورته على دولة المرابطين إلا أنه فعل مثلها وزاد عليها ما هو أشد فنكّل بمن تمسكوا بمذهبهم المالكي ورفضوا المذهب الظاهرى الذي اعتنقه وأتباعه وحرّق كتبهم ومصنفاتهم

وأكره دولته على مذهبه.

اليوم نلحظ واقعا شبيها يمتحن فيه الناس، لكن هذه المرة ليس على عقائد وأقوال دينية بل للأسف على رؤى وخيارات سياسية.

ربما لا يملك الممتحنون الجدد سيوفا يضعونها على رقاب الناس ليقولوا بقولهم، لكنهم يملكون ألسنا وأقلاما أحدَّ من السيوف يمزقون بها سمعة من يخالف آراءهم واختياراتهم ومواقفهم.

وبدلا من أن تتناثر دماء المخالفين، فإن أعراضهم وكرامتهم هي التي تتناثر مختلطة برذاذ الاتهامات بالعمالة والخيانة، فيُقتلون معنويا إن لم يتم قتلهم واقعيا كما حدث أيام تلك الفتنة.

إن تحول الخلاف والنزاع إلى امتحان يخضع فيه الخلق إلى نموذج إجابة يحدده مخلوق مثلهم هو أمر في غاية الخطورة في ذاته وفكرة لا يعرفها الإسلام ولا يقرها، ولم نعرف في صحيح ديننا الأمر بإقامة محاكم تفتيش للإمساك بالمخالفين والتنكيل بهم.

لكن للأسف يبدو أن «معتزليا» خفيا يقبع في أعماق كثير من الناس، وينتظر أول خلاف لرأيه ليتضخم ويتعاظم ثم يمتحن الناس على رأيه، ويقيمهم على حسب رضوخهم لخياره.

ومادام أمثال هؤلاء ينظرون دوما إلى اجتهادهم على أنه الحقيقة

المطلقة، الذي ينبغي للجميع أن يهللوا لها ويرددوا صداها، فسيستحيل عليهم يوما أن يتقبلوا حقيقة أن مخالفهم ربما يكون شريفا مريدا للحق.

وطالما لم نحدد خطوطا فاصلة بين الثوابت التي يوالَى ويعادى عليها، وبين المتغيرات السياسية الأكثر مرونة، فسيظل الحال على ما هو عليه.

بل ولربما يسوء ويصل في مرحلة ما إلى واقع شبيه بفتنة خلق القرآن.

لم يعد هناك مناص من حتمية ترسيم تلك الحدود الفاصلة بين الثابت المحكم والمتغير النسبي، وما يحاسب عليه المرء وما لا يحق لأحد سؤاله عنه وإلا صرنا إلى الأبد أسرى لثقافة الامتحان على الرأي، ولصار لدينا في كل يوم فتنة خلق قرآن جديدة.

لكن ينبغي على العقلاء قبل كل شيء أن يحطموا أسوار لجان امتحان الرأى المنصوبة لهم من المخلوقين ويعلنوا أن مبدأ الابتزاز والمساومة على المواقف مرفوض تماما، وأن الابتلاء والاختبار إنما يكون من الخالق وحده.

وأنهم ليسوا بحاجة إلى درجات ممتحنيهم ولا نياشين وأوسمة مبتزيهم

وليصدعوا بها في وجوههم

كفاكم امتحانا للناس.



٣٠. ملائكة وشياطين

جنسان لهما طبيعتان متناقضتان بالكلية

مخلوقات نورانية معصومة لا تقترف خطيئة ولا تعصي ربها طرفة عين ولا تنقطع عن عبادته والتبتل إليه لحظة من لحظات عمرها وأخرى تستمرىء الفجور وتدمن الضلال والإضلال وتكرس حيواتها الطويلة لغواية بني عدوها الذين حملتهم مسؤولية خطيئتها وتمردها وعصيانها والذي أدى بعد ذلك إلى طردها من مكانتها السالفة

ثنائية معروفة لا تخفى على أحد وضدانِ متمايزان لا يختلطان على عقل

إنها ثنائية الهدى المطلق والضلالة السافرة

ثنائية الطاعة والمعصية والخير والشر

ثنائية الملائكة والشياطين...

تلك الثنائية التي لم تغادر أذهان كثير من الناس عند تعاملهم فيما بينهم خصوصا في أوقات الاستقطاب العنيف والانقسام المجتمعي المتطرف الذي ينمي بشدة تلك النزعة ويجعلها السمة الغالبة على تفكير الكثيرين مما يؤدي إلى غياب موضوعية التقييم وتخافت صوت العقل والإنصاف وبزوغ الغلو في الرؤى والأحكام سلبا أو إيجابا وذلك يُعد في رأيي من أهم مشاكل

المراحل الساخنة التي تكتظ بالمنحنيات الحادة والأحداث المفصلية القاسية فيما بين شيطنة كاملة، وافتراض ملائكية مفرطة يتناسى معهما كثير من الخلق حقيقة أن الإنسان مخلوق أكثر تعقيدا من تلك الثنائية الحادة التي تتبدى أثناء احتدام الصراع وأن تعقيد التركيبة البشرية يستلزم عدم شرطية العصمة والتنزيه الكامل عند من هم لديه أقرب إلى الحق ويستلزم كذلك عدم ضرورة كون عدوه أو خصمه رجيما ملعونا يقضي الليل والنهار في المؤامرات الكونية والطقوس الشيطانية الماسونية التي تناسب الصورة النمطية القبيحة المستقرة في ذهنه

والحقيقة البسيطة والمعلومة أن المجموعات البشرية غير المعصومة تحمل في داخلها عيوبا وميزات وتحدث أثناء سيرها أخطاء وتصحيحات ومقتضى البشرية وجود النجدين ﴿ وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ ولازم الإنسانية إلهام الفجور والتقوى ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ وليس معنى غلبة التزكية ومظنة الفلاح أن الخطأ لم يقع أحيانا كما أنه ليس معنى غلبة الباطل على ابن آدم خلو فعله من أي صواب

لكن للأسف حين يطغى الصراع ويعلو دوي المعركة الصاخب ويتطاير الغبار في كل مكان تتغير ألوان الأشياء ويسعى أحاديو الرؤى لأن يطمسوا الحقائق ويصبغوا كل شيء بلون رؤيتهم وانحيازهم ويكتموا أو يُخفتوا أي صوت ينادي ببقاء حقيقة الأشياء كما هي

حينئذ تصير أخطاء الأقربين هي روائع الحكمة، وتصبح زلاتهم منتهى الصواب والذكاء ويتم تعليق كل فشل أو خلل على شماعة الخصوم الشيطانيين وحدهم وتكاد المسؤولية والإحساس بها أن تتلاشى تماما من نفوس أولئك المتعصبين

ومن هنا يزور التاريخ بعد أن طُمس الواقع بشعار «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة» ويتحول الخلق فقط إلى ملائكة أو شياطين ويتناسى البشر أنهم في النهاية بشر ولو كانوا للحق أقرب

وإن كانت طبائع احتدام المعارك الفكرية والواقعية تقتضي أحيانا تأجيل بعض النقد لأسباب تتعلق بالمروءة والأخلاق فإنها لا تغير للأبد حقيقة أن بشر يخطئون وأن الأزمات، والابتلاءات، وعدالة القضايا، وسلامة المقاصد لا تغير طبائع الأشياء ولا مسمياتها ولا ألوانها ولا تسبغ عصمة على بني آدم (الخطائين) وأن المبادىء لا تتلون ولا تتجزأ بلون الأهواء والانحيازات

على العقلاء دوما أن يتذكروا هذا ويحتفظوا به في خزائن موضوعيتهم المُؤَمَّنة بأقفال الإنصاف ومتاريس حراسة المفاهيم ورعاية الحقائق ثم يخرجوه حين يأتي الوقت المناسب حتى لا يُنسى أو يطمسه غبار المعركة ويتحول التاريخ تدريجيا إلى تلك الثنائية التي لا علاقة لها بالطبيعة البشرية المعقدة ثنائية الملائكة والشياطين

٣١.فتش عن الأسوار

نحن أمة تعشق تقديس ما ليس بمقدس

هذه للأسف حقيقة أراها ساطعة كالشمس في كبد النهار

شعب يبحث عن أسوار يحيط بها (تابوهات) معينة ويعتبرها مناطق محرمة لا يجوز لأحد أن يجترىء يوما ويختلف معها أو ينتقدها ويالمصيبة لو ازدادت جرأته وقرر أن يرفضها أو يبغض تصرفاتها ومواقفها أو حتى يبغضها شخصيا

فتش في أفكارك برهة وستجد عينك لا محالة تصطدم ببعض تلك الأسوار الموروثة التي حرصوا دوما أن تظل عالية لا يستطيع نظرك أن يجاوزها فضلا عن القفز عليها وفحص ذلك المقدس المزعوم وتفنيد قداسته ونقض عصمته الكاذبة

فتش جيدا وصدقني ستجد

لا أتحدث هنا عن المقدسات الدينية والعقدية والتي هي في الحقيقة الشيء الوحيد الذي يُقبل أن تكون له قداسة ذلك لأنه يكتسب قداسته من القدوس سبحانه وتعالى نفسه

لكنني أتحدث هنا عن أشخاص وأحداث وأماكن وهيئات ظلت أسوار العصمة تُبنى حولها رويدا رويدا حتى شكلت في وجدان الشعب قداسة كاذبة لا تسمح بمجرد الاختلاف معها ونقدها ولا تقبل أن تنطبق عليها قاعدة الإمام مالك بن أنس رحمه الله «كل يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا المقام»... يعني النبي ﷺ

لا أحب أن أغير عادتي وأعين أمثلة محددة تدخلني مع مقدسي تلك التابوهات ومعظميها في جدلية سفسطائية لا تنتهي ولكن دعنا كعادتنا في هذه الزاوية الأسبوعية نجعل الأمر مجرد حراك ذهني متجرد نحاول بمعاوله أن نكسر أسوار التقديس المزعوم

دعنا لا نسمي شيخا إذا اختلفت معه ورفضت مواقفه السياسية واختياراته صرت في لحظات مهدوما سيء الأدب آكلا للحوم العلماء المسمومة

ودعنا لا نسمي هيئة أو مؤسسة إذا تجرأت يوما على رفض انتهاكاتها وتدخلها فيما ليس لها شككوا في حبك لوطنك وانتمائك له

ودعنا لا نسمي جماعة أو حزبا إذا فكرت في انتقاده صرت بين عشية وضحاها خائنا أو منبطحا أو مفرطا أو جاهلا لا تفقه معنى العمل الجماعي

ودعنا لا نعين رمزا سياسيا أو شخصية عامة إذا ما هاجمت مواقفها أو

فندت آراءها صرت فورا رجعيا متخلفا لا تفقه تطورات العصر ولا تدرك السنين الضوئية التي تسبقنا بها تلك الشخصية

هكذا تجد نفسك في النهاية بصدد عدد لا متناهٍ من الأسوار والحواجز التي بناها الأتباع والمغالون والمهللون والتي ينالك بمجاوزتها كل انتقاص وازدراء

وأنت الملام إذ كيف تجرؤ على تحريك الماء الراكد أو أن ترفض التوقيع على بياض لأحد

كيف تسول لك نفسك أن تغضب أو ترفض أو تنتقد أو تختلف

وكأن هؤلاء المقدسين صارت لهم عصمة توازي عصمة الأنبياء وتساوي رمزيتهم رمزية الشعائر والأنساك

بل هي في الواقع تزيد كثيرا وإن غضب المهللين المعظمين لها عند انتهاك حرمتها المزعومة يتجاوز أحيانا غضبهم للأنبياء والشعائر والأنساك التي يقبل بعضهم انتهاكها وربما إهانتها بدعوى حرية الرأي

حرية رأي تبيح لبعضهم سب الله ورسله لكنها تحرم انتقاد متبوعه وحزبه

وكأن لهؤلاء حرمة تجاوز حرمة الصديق أبي بكر والفاروق عمر رضي الله عنهما حين نزلت آية تنتقد رفعهما لأصواتهما في حضرة النبي ﷺ وقيل

حينئذ: كاد الخيران أن يهلكا

أو أن لهؤلاء فضلا يعلو على فضل جيش خالد بن الوليد ﷺ حين قيل لهم بعد انسحابهم يوم مؤتة أنتم الفرار فقال الرسول بل أنتم الكرار وأنا فئتكم ولكنه لم يعلق المشانق لمن انتقدوا صنيعهم لأول وهلة

وكم في حق الأخيار من معتبات وقعت وانتقادات حدثت لا يتسع المقال لذكرها جميعا لكنها ببساطة توضح أن النقد والخلاف ليس جريمة فما باله في حق مقدسات اليوم المزعومة صار من الكبائر والأوزار؟!

إنها الأسوار..

فتش عنها جيدا واحرص على تكسيرها ونقضها وسبِّر عنها الأغوار فليس ينبغي أن يكون في النفس من أسوار إلا ما بنته الشريعة حول حرماتها.

بخلاف ذلك فلا مقدسات

ولا أسوار



٣٢.ضد التيار

شذوذ الآراء وتطرف المواقف وغرابة الاختيارات هو أسهل الطرق اليوم لنيل الشهرة وجمع الأتباع والمريدين

هذه النوعية من الآراء أو الكتابات أو التصريحات تلقى رواجا كبيرا وقبولا هائلا خصوصا فى هذه الأيام

حيث ينال صاحبها أعدادا غفيرة من الأتباع والمعجبين يتزايدون باطراد وكثافة كلما ازدادت الآراء شذوذا وقسوة

و دون أن يشعر السياسى أو المفكر أو الكاتب أو المنظر - أيا كان اختصاصه - فسيجد نفسه تدريجيا يتحول من قدوة ومتبوع إلى تابع منقاد لتلك النوعية غير الموضوعية من الجمهور البعيد عن التقييم التراكمى المنضبط خاضعا لرغباتهم وضغوطهم المطالبة بالمزيد والمزيد من الإثارة والمواقف الصاخبة وبالتدريج يصير صاحب الرأى أسيرا لتلك الطائفة الأعلى صوتا والأكثر حضورا ورغم تمرده الظاهر وتحرره المزعوم فإنه يصير فى النهاية خاضعا لتلك الطائفة حبيسا خلف قضبان إملاءاتها

ويظهر خضوع صاحب الرأى لأسر تلك الطائفة فى خياراته وآرائه

التى تلمح فيها نزعة استرضاء مستمرة لهم وبشكل واضح جلى وذلك من خلال السباحة الدائمة ضد التيار حتى لو بغير حاجة أو ضرورة

وتأخذ السباحة ضد التيار بالتدريج خصائص توافق أهواء طائفة «خالف تعرف» من عنف فكرى أو سخرية واستهجان مستمر ربما تتطور إلى سوقية فى الطرح وإسفاف فى الأسلوب صار لدى البعض من لوازم الثورية والنضال!!

والحقيقة أن السباحة الدائمة ضد التيار لم تكن يوما مذهبا أو قاعدة ولا منقبة أو فضيلة إلا فى حالة الفساد المطلق لهذا التيار أو سوء اختياراته الأبدى والمطلق وهذا كما قلت ليس الأصل أو القاعدة المطردة فلا شك أنه ستأتى عليه لحظة ويصيب هذا التيار أو ذاك الحق فى موقف أو يصح اختياره فى مقام وحينئذ تكون مخالفته ضربا من ضروب العناد والكبر والمخالفة لمجرد المخالفة

الأصوب فى تقديرى أن يكون خيار السباحة ضد أو مع التيار من خلال التقييم الوقتى لخيار التيار المقصود لحظة السباحة وهل وافق الحق أم ينبغى أن أسبح ضده وأعارضه لأنه مخالف للحق

بهذا التفصيل يتميز صاحب الرأى والفكر بالموضوعية والحرص على موافقة الحق والصواب بغض النظر عن مصدره أو قائله فالحكمة ضالته

والحقيقة بغيته والصواب هدفه أنى وجد شيئا منه فهو أولى الناس به حتى وإن كان مصدره أبغض الناس إليه

وهذا هو المفكر المخلص والسياسى الصادق والكاتب النزيه الذى لا يأبه برضى الناس أو سخطهم ولا يشغله إلا مرضاة ربه ومولاه

هنا فقط يوافقه ويعضد مسيرته الموضوعيون وأصحاب النضج الفكرى وهم -وإن قلوا- فإنهم من يعول عليهم وعلى أكتافهم تقوم الدعوات الراسخة وبسواعدهم تبنى الأعمال الهادفة وبمثل هؤلاء تنهض الأمم وترقى وليس بمتتبعى الغرائب المهللين للشذوذات والعجائب الباحثين عن البهارات والتوابل الذين لا هم لهم إلا الإثارة ولا غاية لهم إلا المخالفة

فهؤلاء أصحاب طبيعة متقلبة غير موضوعية حادة المزاج سريعة التغير لا تتسم بأدنى قدر من الإنصاف ولا تبحث إلا عن الإثارة وتوابلها وتلك الطبيعة تجعلهم ينقلبون على أى أحد فى لحظات معدودة وعند أول منعطف مهما كان قد حاول استرضاءهم من قبل لأنهم ببساطة جعلوا السباحة ضد التيار خيارهم وهدفهم وحين يقرر صاحبهم يوما أن يهدأ وأن يبنى فسيصبح هو التيار وسوف تكون السباحة ضده هى الأكثر إثارة وحينئذ سيذوق من نفس الكأس الذى طالما أذاق غيره منه وسيجد نفسه يسبح وحيدا بعد أن تركه وسبح ضده أولئك السابحون ضد التيار

٣٣.أمعاء آخر شيخ!!

إنطلق المأذون المعمم بدراجته ذات المقعدين، و«قفطانه» يتطاير من خلفه مرددا ألفاظا متقعرة متفاصحة تتعالى على إثرها ضحكات المشاهدين في قاعة السينما، وهم يتابعون أحداث ذلك الفيلم الفكاهي غير الملون،

في المسرح المقابل كان الممثل المسن بقفطانه الشهير وعمامته الأزهرية التقليدية يقوم بنفس الدور الهزلي الذي يجتذب القهقهات من أعماق المشاهدين!!

مشهد نمطي متكرر منذ بداية صناعة السينما والمسرح يبعث برسالة غير مباشرة تتسرب بسلاسة إلى الوجدان الجمعي دون تصريح بهجوم أو نقد عيني قد لا يجد قبولا لدى المجتمع المصري الذي ظل على مدى تاريخه يحترم ويقدر أصحاب هذا السمت.

تطور الأمر فيما بعد وصار أكثر وضوحا، لكنه انتقل إلى الربط بين سمت المتسنن بالهدي الظاهر من لحية وقلنسوة و«جلباب»، وبين الإرهاب والتطرف والعصبية الممزوجة بسطحية وجهل، كما هو السياق المطرد في سينما التسعينات، وخصوصا أفلام عادل إمام.

ما فعله الدكتور باسم يوسف فى تقديرى هو حلقة جديدة من حلقات تلك السلسلة المترابطة، والتى لا ينبغى فصل إحدى حلقاتها عن الأخرى، سلسلة القولبة وغرس الصورة النمطية فى الوعى الجمعى التى يصل بنا مؤداها الحتمى إلى صيحة شبيهة بصيحة «ميرابو» الشهيرة بعد الثورة الفرنسية: «اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس».

إن السعى الحثيث لتعميم تلك الصورة الذهنية عن الدعاة هو أمر لا يمكن قبوله، خاصة مع الوسيلة التى ينتهجها الدكتور باسم، ربما لو كان نقدا راقيا في إطار الإنصاف وعدم التعميم وبشكل يحافظ على القيم الدينية والمجتمعية لكان أمرا مقبولا، ولعُد من باب النصح الراقى، لكن العرض المحموم لمقاطع بعضها مبتور عن سياقه ليلقى بإيحاءات إباحية ليست معتادة فى مجتمعاتنا وليس لها أدنى علاقة بفحوى الكلام، هو أمر لا علاقة له بالنقد ولا بالنصح، إنما هو فى رأيى هدم ممنهج يشابه إلى حد ملفت ما حدث فى زمان الثورة الفرنسية التى لم تكن فى بداياتها ثورة على الكنيسة كفكرة أو كدين لكنها كانت ثورة على ممارسات سلطوية متشابكة بين الكنيسة والإقطاع والسلطة الحاكمة كما أشار هـ.ج.ويلز فى«معالم تاريخ الإنسانية»، بل كان المطلب الرئيسي لها والذى يدركه الفلاحون الذين قاموا بتلك الثورة هو الخبز.

لهذا احتاج تلاميذ فولتير وروسو وموليير أن يقوموا بمرحلة وسيطة تتيح لهم غرس تلك الأفكار المتمردة والمعقدة فى عقول أولئك البسطاء من خلال حملة تشويهية لرجال الدين، قادها خطباء الثورة والممثلون بمسارحهم المتنقلة لعقود أظهروا فيها رجال الدين فى أسوأ وأحط صورة يمكن تخيلها، حتى ذكرت بعض الروايات التاريخية أنه مرت على رجال الدين فى فرنسا فترات لم يتمكنوا فيها من ارتداء زيهم المميز والخروج به خشية السخرية والامتهان.

بذلك زالت القداسة أولا، ثم الاحترام والقبول ثانيا، ثم المرجعية بالكلية بعد ذلك!!

ربما كان الاستغلال المتسلط لمعتقد الكهنوت الذى بلغ حد المتاجرة بصكوك الغفران قد استدعى مثل هذا التمرد العنيف، لكنّ ما يعجب له المرء أن يسير البعض فى بلادنا -ربما بغير قصد- على نفس النمط أو ما يشبهه، بينما لا يعرف ديننا كهنوتا ولا قداسة للأشخاص، وإنما يعرف فقط الاحترام وحفظ القدر، وهذا ما نطالب به كما فى الحديث «ليس منا من لم يعرف لعالمنا حقه»

وحقه لا يعنى تقديسه أو عصمته، إنما يعنى احترامه وتوقيره فإن أخطأ أو تجاوز فليكن نصحه والاختلاف معه بأدب، وليس بذلك التسفيه المهين

والتعميم الجارح الذى وصل لدرجة جعلت التطاول على الدعاة أمرا مضحكا ومسليا، وأدت إلى إساءات ومهازل لا تُحتمل ولا يتسع المقام لذكرها ما أجد لها سببا إلا هذا التشجيع الممنهج على السخرية، وعلى إذابة أى قدر متبقٍ من الاحترام فى نفوس الناس لورثة الأنبياء.

قد يظن البعض أن كلامى يحمل مبالغة أو تضخيما للأمر، لكنها رؤية تحليلية ومآل أراه للأسف حتميا لعشرات الشواهد التى لمستها بعد برنامج «البرنامج»، الذى يصر على جعل أهل العلم والدعوة وليمة لحفله الأسبوعى!

وكأننا نضبت كل وسائل النصح والنقد البناء ولم تتبق إلا التلميحات الجنسية والاستهزاء الهدام!

فهل سيصل بنا الأمر فى النهاية إلى شعار قريب مما صدرت به للمقال؟!

أتمنى ألا يحدث ذلك وللحديث بقية إن شاء الله

❋ ❋ ❋

٣٤.«هاتوا له راجل»!!

فى نشوة وسرور صاح الشاب بتلك العبارة المعنون بها للمقال، معلقا على مقطع عرضه الدكتور باسم يوسف فى مسرحه، الذى كان الشاب أحد الحضور به.

ربما لم يوفق الداعية بطل المقطع فى المثال الذى أراد به فيما يبدو بيان مدى رضاه عن الأداء السياسى للرئيس مرسى، وربما يكون اللفظ قد خانه من حيث لا يدرى، فوقع فى تشبيه غير لائق أو مبالغ فيه، لكن لا يمكن أبدا أن يتصور عاقل أنه يحتمل المقصد البذىء الذى تحمله تلك الجملة التى سارع الشاب بإلقائها، والتى صارت منذ أسابيع «إفيه» متعارف عليه، يسارع كثير من الشباب باستعماله حين السخرية من شيخ أو داعية.

المقطع الأصلى نفسه والذى أُخذت منه تلك العبارة لم يكن يحتمل قط تلك البذاءة، التى ساعد عليها الدكتور باسم بإيحاءاته المعتادة بعد اقتطاع تلك الجمل عن سياقها، فالرجل كان يتحدث عن رفضه الظهور مع مذيعة ويطالب باستبدالها بمذيع وهو حق لا يستطيع أحد أن ينزعه عنه.

قد تختلف مع تعبيره أو اختيار ألفاظه، لكن لا يحق لك بحال أن تشير

إلى أن رفضه للظهور مع مذيعة يحتمل ذلك الإيحاء الذى أصبح فيما بعد «إيفيه» معلوم الدلالة.

ذلك الموقف يمثل عرَضاً بسيطًا لما ذكرته فى المقال السابق «أمعاء آخر شيخ»، حول مآل ما فعله الدكتور باسم سواء قصد ذلك أم لم يقصده،

العَرَض ببساطة هو: زوال الاحترام، وتجريف الأعراف، والقيم وزعزعة الثوابت التى نشأ عليها الناس.

لا أقول فقط زوال التوقير وحفظ حق العالم أو ذى الشيبة الموصى به فى الأحاديث الصحيحة، فهذا الزوال كان للأسف مرحلة تاريخية سابقة، لكننى أتكلم عن وصول الأمر إلى زوال الإحترام الإنسانى الطبيعى لشخص ربما لا يعرف الشاب عنه إلا هذا المقطع، ولا يدرى عن أحواله أو علمه أو تقواه أو تاريخه أى شيء، فقط سمع استعمالاً لغويًا يمكن مع الجو الساخر المحيط وبقليل من سوء الظن حمله محملا سيئًا، فاستهزأ به بكل هدوء أعصاب وأريحية قائلا: «هاتوا له راجل».

هذا أحد الشواهد الواقعية التى تكلمت عنها فى المقال السابق، ولدى غيره الكثير مما تسود به الصفحات من اجتراء وإهانة واستحلال للأعراض، تبعت برنامج الدكتور باسم، الذى يهدم بإصرار تلك الثوابت الناصعة.

فحينما تطالع مثلا على شاشة «البرنامج» صورة «مصطنعة» للدكتور حسين حامد حسان علامة الاقتصاد الإسلامى وأستاذ رئيس قسم الشريعة بكلية الحقوق، ومن لا يتسع المقام لذكر شهاداته العلمية ودرجاته الأكاديمية وخبراته العملية، وتفاجأ به مرتديا خرقة من جلد النمر تكشف عن صدره وكتفه، فى إشارة إلى الصورة النمطية لما يُعرف بإنسان الغاب رمز التخلف والبدائية؛ تعلم حينئذ أنك أمام حالة عبثية لا سقف لها، ومرحلة انعدام لكل معايير المنطق المستقيم، وتسأل نفسك إن كان هذا الجبل من العلم الراسخ والتاريخ المشرف والعمل الدؤوب يباح أن يُرسم بهذه الطريقة المهينة فى عرف الدكتور باسم، فمن إذًا العلماء وأصحاب الفضل ومستحقو التوقير فى نظره؟!

من حقك أن تختلف مع ما قاله الدكتور حسين أو غيره، ولنا أن نفنده ونناقشه، بل وننصح له إن رأينا خطأ طرحه، لكن أن نختزل حال المخالف فى صورة أو مقطع، فذلك ما لا يمكن تصوره أو قبوله،

فلنختلف فى الرأى كما نشاء، طالما نختلف مع من رأيه ليس معصومًا من الزلل ولا محصنا ضد النقد، لكنَّ عِرض المرء وكرامته الإنسانية يظلان موضع صونٍ، تماماً مثل ماله ودمه لما صح فى الحديث: «فإنَّ دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكُم حرامٌ»، لا يُحله خطأ، ولا يجيزه زلل، ولا

ترخصه كبوة أو خلاف فى رأى.

القضية ليست فى علامة «للكبار فقط» التى وضعها الدكتور بعد ذلك على البرنامج، ولا فى مجرد الإيحاءات الجنسية التى اعتبر انتقادها مبالغة، لكنها قضية منهج وأسلوب يستبيح الحرمات ويبرر للسخرية والاستهزاء بغلاف من«الهزار»، وربما يؤدى فى نهاية المطاف إلى استمراءٍ لزوال الشىء الذى اعترف الدكتور بافتقارهم إليه حين وصفتهم إحدى الإعلاميات بقلته-تصريحا لا تلميحا- فأقرها ضاحكا وقال:«أه»

هذا الشىء الذى كان يعرف قديما بالـ«أدب».



٣٥.صناعة الإرهاب

أطفئت الأنوار، واعتدل الجمهور في كراسيهم، واستعدوا لمشاهدة فيلم إسماعيل ياسين الجديد «الآنسة حنفي»، وتجهز كل منهم لسهرة من الفكاهة يقضونها أمام الشاشة العملاقة بسينما «ريفولي» بوسط القاهرة

تعالى من بعيد صوت دوران الشريط السينمائي،

لكن الشاشة أضاءت بأفيش ذي كلمات مختلفة..

«عيون ساهرة».

لكن ليس هذا ما جئنا من أجل مشاهدته.

نعم نعم

إنها جريدة «مصر» السينمائية التي تُبث في بداية الحفلة بإشراف الهيئة العامة للاستعلامات، التي أنشئت بعد انقلاب الضباط الأحرار منذ عامين تقريبا.

لا بأس من بعض الدقائق نتابع فيها ما يريد لنا مجلس قيادة الثورة أن نعرفه ونعتقده في زمان لم يعرف التلفاز بعد، ولم يسمع بالقنوات الفضائية أو التوك شو.

لا بأس من أن نسلم عقولنا برهة لما يبثونه، ثم نعاود الاستمتاع بنكات «سُمعة» وطرافة لكنة عبد الفتاح القصري، وتتعالى ضحكاتنا من جديد.

بدأ الفيلم التوجيهي القصير بمقدمة عن عظمة مصر وجمال عاصمتها ونهضتها ومدنيتها في الخمسينات.

لكن قوى الشر -على حد وصف الفيلم- اختارتها مركزا لهيئة التعصب والإرهاب والقتل والتدمير التي لم تعرف الحق يوما والإسلام منها براء.

استمر صوت المعلق يذكر المشاهدين بما وصفه بجرائم الإرهابيين، والصور تتوالى للراقدين في المستشفيات على إنهم ضحايا لتلك الجرائم، تتلوها مشاهد لترسانات الأسلحة الفتاكة التي نسبها المعلق لهم، بينما تتعالى الموسيقى التصويرية المؤثرة من خلف صوته المسرحي الرخيم.

ثم بدأ عرض صور لما سماه المعلق بجرائم الإرهابيين وأسلحتهم الفتاكة وصور المنشئات والمباني التي أرادوا أن يفجروها

حتى المستشفيات لم تكن بعيدة عن نياتهم المتفجرة، التي لا يعلم أحد من المشاهدين شيئا عن مصدر اطلاع المعلق ومحركيه على تلك النوايا التي لا يعلمها إلا الله!!

لكن الله سلم، وقررت إرادة الشعب التي هي -على حسب قول

المعلق- من إرادة الله أن توقف أولئك (الإرهابيين) أمام محكمة الشعب (العسكرية) ليصدر (الشعب) حكمه وليقول (الشعب برضه) كلمته.

وهنا ينتهي الفيلم القصير، ليبدأ الفيلم الطويل «الآنسة حنفي»، ولتتعالى ضحكات المشاهدين على «إسماعيل ياسين» و«عبد الفتاح القصري» وقد نسوا مؤقتا ما ترسخ في عقولهم الباطنة من مشاعر سلبية تجاه تلك الفئة، التي كانت في ذلك الوقت تقوم ببطولة فيلم أطول

فيلم واقعي من نوع آخر بعيد عن كوميديا «فطين عبدالوهاب»

فيلم حقيقي بدون كاميرات مكانه السجن الحربي والمعتقلات التي تغيب صرخات تعذيبهم خلف جدرانها الحجرية والفكرية.

أعوام تمر وتتغير وسائل تشكيل الوعي الجمعي لتصبح أقل مباشرة، وبدلا من أن توصل الرسالة بشكل واضح كما في الجريدة السينمائية، صارت تبث من خلال الأعمال الدرامية من أفلام ومسلسلات التسعينيات، التي جعلتني يوما في مراهقتي أخشى المرور أمام بعض المساجد التي يرتادها أصحاب هذا السمت الذي رأيته مستعارا على وجه عادل إمام ويجواره كلمة «الإرهابي»!!

جعلتني يوما أعتقد أن القميص الأبيض القصير الذي يرتدونه يخفي تحته شتى أنواع الأسلحة الفتاكة التي ينتظر هذا (الإرهابي) اللحظة المناسبة

ليفرغها في صدري.

ظننت أن هذه المراحل من التوجيه المعنوي المباشر وغير المباشر قد انتهت، خصوصا بعد أن انتشرت الدعوة وصارت لا تخلو عائلة أو جيرة من أحد أصحاب هذا السمت، وعاملهم الناس فاختلفوا أو اتفقوا وأحبوا أو كرهوا لكنهم أدركوا أنهم ليسوا كما صُور لهم، وأنهم كسائر الخلق منهم الصالح والطالح والمتسامح والمتعصب والمنفر والداعي إلى الله على حكمة وبصيرة.

ظننت أن فكرة التنميط والسلة الواحدة قد رحلت بلا رجعة خصوصا أنها أثبتت في العالم كله عدم جدواها وربما أثرها العكسي

لكن يبدو أنني كنت مخطئا!

فالبعض يصر على تسليم عقله للمتاجرين به، والذين يحرصون على تنميط تلك الفئة لتتحمل بأكملها جميع أوزار من أخطأ أو زل أو حتى ضل فيبثون بداخله كل يوم لساعات أن هؤلاء جميعا مجرد إرهابيين،

ومهما استنكروا، أو أنكروا، ومهما أوضحوا حرصهم على الدماء، ورفضهم لإراقتها من أي طرف، فإن الشكل الجديد من التوجيه المعنوي الليلي يصر على حصرهم في ذلك المربع، وترسيخ مصطلح الإرهاب من جديد بشكل تعميمي مقيت

هل هذا هو الحل في نظر الموجهين الجدد؟!

هل الحل أن يُشَيطن فريق من الناس ويصير الأصل أنه مدان دوما في نظر من حوله ليعيش متهما غريبا بينهم؟!

وهل يتصور أن يستقر وطن تعامل إحدى فصائله بتلك الطريقة ويعاقب جميع أفرادها بعاقب جماعي لا يفرق بين مخطيء ومصيب وتبرر الدماء التي تراق دائما بأن أصحابها إرهابيون؟

يؤسفني أن أقول أنكم أنتم بذلك من تحصرونهم في هذا المربع الضيق، ولا تتركون لهم أي مجال لاختيار آخر.

أنتم بذلك وبأيديكم وبأقلامكم وألسنتكم من تصنعون الإرهاب!!



٣٦.للعجوة آكلون ومن السفن قافزون

من الأخبار التى كثر ذكرها فى كتب السير وأخبار الأولين ما رُوى عن حال العرب في الجاهلية حين كانوا أحيانا لشدة تعظيمهم لآلهتهم يصنعون لها أصناما من عجوة -وذلك لارتفاع قيمة العجوة لديهم وغلو ثمنها ويعدون ذلك تبجيلا لها وقربانا- فكانوا يعبدونها نهارا حتى إذا قرص الجوع أمعاءهم صبَّروا أنفسهم بقضمات من تلكم الآلهة المزعومة والتى كانوا منذ برهة يعظمونها، إلا أن تعظيمهم لها لم يواز تعظيمهم لشهواتهم وأهوائهم ولم يقف حائلا بينهم وبين التهامها عندما جاعوا!

من هنا تعود الأدباء والكتاب على استعمال هذا التشبيه كلما أرادوا أن يعبروا عن حال أصحاب مبدأ اللامبدأ من أولئك الذين يتنازلون عن قيمهم وأصولهم وثوابتهم عند المحكات ولدى أول تقاطع أو تعارض لتلك المبادئ مع مصالحهم وأهوائهم.

ويظهر آكلو العجوة كثيرا في أيام الزخم والمتغيرات العنيفة وانتقال مراكز الثقل والقوة فتراهم يميلون مع كل ريح وينحنون لكل موجة ويسارعون إلى مبادئهم ليلتهموها غير آسفين ولا مستحيين

ثلاثة أصناف رئيسية من آكلي العجوة تظهر بكثافة في الأيام الحاسمة والمؤثرة من تاريخ الشعوب والأمم ومنها بلا شك تلك الأيام التي نمر بها

أولهم: أولئك القافزون من السفينة حين يشعرون بغرقها

ورغم أنهم ركبوها من قبل باختيارهم والسعادة والغبطة تتقافز من تصريحاتهم وتظهر على موالاتهم وتأييدهم وأحيانا تطبيلهم إلا أنهم فجأة تتلبسهم الثورية والمعارضة ويتقمصون دورا طالما انتقدونا حينما كنا نمارسه بينما كانوا منشغلين بغنائمهم ومناصبهم

ولو كانوا من أصحاب المبادىء حقا -كما هو المظهر الذي يحلو لهم عند قفزهم أن يظهروا به- لكانوا من البداية لم يقبلوا بركوب تلك السفينة أو على الأقل لكانوا غادروا مرفوعي الرأس بينما المركب تسير في أمان

حينئذ ربما كانوا لِيُصَدَّقوا ويقال عنهم من أصحاب المواقف

أما حين الأزمات فعذرا ما هم إلا آكلو مبادئ

الصنف الثاني هم أولئك المتلونون الذين يسارعون ويبيعون ثوابتهم وشعاراتهم لمن يمتلك القوة أو لمن يدفع أكثر

فتجدهم يتقلبون من حال إلى حال ومن موالاة صاحب منصب إلى التزلف لصاحب مال ويقبلون ما كانوا يرفضونه من قبل ويطبلون لمن ثاروا عليه بالأمس مستعيرين نفسية ميكافيللي ومعلنين أن وسائلهم الحقيرة

تبررها غاياتهم المريضة حتى وإن وطئوا في طريقهم كل ما تغنوا به يوما ما من مبادىء وقيم وشعارات كانت على ما يبدو جوفاء وفي أمثالهم يصدق قول رسول الله ﷺ عن عبد الدنيا وناسك درهمها ودينارها: «إن أعطي منها رضي وإن لم يعط منها سخط»

أما الصنف الثالث فهم أولئك الذين يجعلون خلافاتهم أو كراهيتهم سببا في ابتلاع ثوابتهم وانتحار إنصافهم وتجردهم والرضا بالضيم والذل الذي طالما شجبوه ورفضوه وعانوا منه فتجدهم بكل صراحة ووضوح يطبقون المبدأ الشمشونى الشهير ويرددون كلمة قدوتهم شمشون: «عليَّ وعلى أعدائى» ثم لا يجدون مانعا أخلاقيا أو مبدئيا يحول بينهم وبين هدم المعبد على رؤوس الجميع ما داموا لم يأخذوا نصيبهم مما يظنونه كعكة ومغنما أو في سبيل الخلاص من مخالفيهم وأعدائهم الأيديولوجيين

لازلت أصر على أن هؤلاء اللامبدئيين وآكلي العجوة والقافزين من السفن مهما علا صوتهم وازدادت وقاحتهم لا يمثلون إلا أنفسهم وأن الشرفاء لا يزالون موجودين لا يرضيهم أن تهان مبادئهم بهذا الشكل المؤسف وأنْ تعامل على أنها مجرد صنم عجوة يُلتهم حين يشتهيه المدعون

أحترم تماما من خالف وعارض لمبدأ ومن صدع بما يدين لله أنه الحق حين قل الصادعون وكثر المطبلون والمتنفعون فلم ينظر لمغنم وتحمل دوما المغرم

وأحترم أيضا من ثبت على موقفه حتى وإن اختلفت معه يوما لكن يكفيني أنه لم يتلون ويتقافز على أنغام المصالح أو يتراقص على إيقاع المطامع

وأحترم جدا من لم يضع على عينيه نظارة الكراهية السوداء لتعمي بصره عن رؤية ثوابته وقيمه التي طالما نادى بها والتي ينبغي أن تظل راسخة مهما كانت مآلات الأحداث

هؤلاء من أحترمهم وأسأل الله أن أكون منهم وأن أموت على مذهبهم. لا على مذهب أولئك الذين هم لمبادئهم (العجوة آكلون) والذي هم من السفن قافزون



٣٧. مسمار جحا

- جئت لأطمئن على مسماري!!

هكذا كانت إجابة جحا حين سأله ذلك الرجل الذي اشترى منه الدار منذ أيام عن سبب قدومه في هذا الوقت الذي لا يعتاد فيه الناس التزاور

لم يعترف جحا لنفسه قط أنه قد باع الدار

لم يستطع أن يسلم لفكرة أنه قد تنازل عنها

إن له فيها مسمارا

وإن هذا المسمار هو سبب أكثر من كاف ليعود إلى الدار ويطمئن عليها كل يوم

رحب به الرجل، وأجلسه، وأطعمه.

لكن الزيارة طالت

فجأة خلع جحا جبته وفرشها على الأرض وتهيأ للنوم،

لم يطق المشتري صبرا فسأله:

ماذا تنوي أن تفعل يا جحا؟!

فأجاب جحا بهدوء:

سأنام في ظل مسماري

ليست مشكلة

لعلها مرة اضطر للمبيت وتذرع بتلك الذريعة

سيتركه المالك الجديد ينام هذه الليلة في ظل مسماره على أمل ألا يتكرر هذا الكابوس الثقيل

لكنه كان واهما

لقد تكررت الزيارة

وطالت فترات المكث

والرجل حيي لا يجرؤ أن يطرده أو يرده ولا يكرمه

إن له مسمارا في الدار

وظل جحا يذهب يوميا للرجل بحجة مسماره العزيز

قيل أن الرجل لم يحتمل ذلك الثقل المتكرر وترك الدار في نهاية الأمر

فلتهنأ يا جحا بظل مسمارك الذي جعلته ذريعة لكل شيء وأبرزته كعلة لكل شيء

يُضرب هذا المثل عند اتخاذ الحجج الواهية للوصول إلى هدف ما

وخصوصا لو تكررت وسمجمت الاستعانة بتلك الحجج

والبعض للأسف يتخذ من الدعوة مسمار جحا ومعاذ الله وحاشا وكلا

أن تكون كذلك

- إنما نفعل ذلك لمصلحة الدعوة

- لن تكن لتقوم للدعوة قائمة إلا إذا فعلنا ما فعلناه

- عن أي دعوة تتحدثون في ظل القهر والقمع

- ضيعتم الدعوة!!!

بل أنتم من ضيع الدعوة!!!

بل أنتم من ضيعها!!

بل أنتم !!

بل أنتم!!

هذه نماذج لبعض العبارات التي تستخدم اليوم بكثافة في حوارات تدور بين المتسبين للعمل الإسلامي والدعوة إلى الله

وكم أنت مظلومة أيتها الدعوة !!

يا من جعلتك كل طائفة مطية ومسوغا تبرر به مواقفها وتزايد به على غيرها

فما بين طرف قرر أن يخرس لسانه عن الظالم بل وربما يسير في ركابه مداهنا ويمضي تحت ظله مبررا وكل ذلك بحجة مصلحة الدعوة وحرية وإطلاق يد الداعين

وما بين سوداوي متشائم صار لا يرى للإصلاح مكانا ولا للنصح سبيلا ولا للتغيير وسيلة مصورا لنفسه ولغيره أن الأمر قد انتهى وأن باب الدعوة إلى الله قد أغلق وأنه لم يعد هنالك أي أمل في هداية الخلق أو تصحيح مفاهيمهم ومعتقداتهم

فلا يمكن الدعوة والإصلاح عند هذا الصنف إلا في ظروف مثالية نموذجية لا تتحقق في نظرهم إلا في ظل تمكين خالص وظروف قياسية مكتملة متناسين بذلك أن التكليف على قدر الاستطاعة والتغيير على قدر الوسع وأن المرء متعبد بالبذل لا بالثمرات والنتائج وأن أصحاب الرسالة والقضية يعملون لرسالتهم في كل وقت وتحت أي ظرف

الحقيقة أنني أرى ضرورة لفك هذا الاشتباك الفكري في مرحلة فاصلة من مراحل تاريخ الأمة وتشكيل وعيها

إن الصدع بكلمة الحق أمر شرعي وشرف نسأل الله أن يميتنا عليه وعبادة من أعظم عبادات ديننا من قضى نحبه في سبيلها سماه رسولنا ﷺ بـ«سيد الشهداء» كما في الحديث الصحيح

لكن لماذا يصر البعض على جعلها مدار الدين كله وكأن ثغور الديانة وتكاليف الملة قد اقتصرت على ذلك الأمر الشريف؟!

الدعوة عبادة كما الصدع بالحق عبادة والإصلاح في الأرض قربى كما

منافحة الظالمين والطواغيت قربى

ومنذ متى كانت الظروف المثالية شرطا لإمضاء دعوة الحق والثبات عليها وبث معانيها في الخلق؟!

ومن يحق له أن يقطع الأمل في هداية الخير أو تأل على إرادة المولى بأن يتوب عليهم أو لا يفعل ؟

وعلى الطرف الآخر أتساءل:

من ذا الذي عين المتشدقين بالمصالح الآنية من المتسربلين بثياب الحكمة والعلم ببواطن الأمور ومآلاتها حراسا أو وكلاء حصريين للدعوة إلى الله أو متحدثين باسم شريعته وهوية عباده مستحلين بذلك تنازلات ومواثيات قميئة لحماية مزعومة وحراسة صورية ديكورية

لابد أن يعي هؤلاء وأولئك أن الدين دين الله والدعوة دعوته لها تغرس يداه وعلى عينه تصنع وباسمه مجراها ومرساها

تلك الدعوة التي ستمضي يقينا بنا أو بغيرنا والتي هي موطن خيرية هذه الأمة ومحل رفعتها

ربما تمرض أحيانا وتبتلى أحيانا لكنها أبدا لا تموت

ولو كانت لتموت يوما لكان ذلك أدعى أن يحدث يوم وفاة مبلغها والمبعوث بها رحمة للعالمين

لكنها لم تمت يومئذ ولم تمت رغم كل ما أصاب جسدها الطاهر من طامات وطعنات من خارجها ومن داخلها على مر القرون والأعوام فهل تظنون أنها ستموت اليوم أو غدا؟!

هل تظنون أنها ترتبط بأشخاص أو تنتظر تنازلات ومداهنات أو أنها تتوقف وتنتهي بقمع أو ابتلاء؟!

حاشا وكلا

كفانا تبريرا وتسويغا إذاً ولننظر إلى نقاط الضعف وأسباب الخلل التي جعلت الدعوة تصل إلى تلك المرحلة الحرجة بغض النظر عن قمع أو منع

دعونا نراجع أنفسنا ولنكن معها صادقين ولنسأل: كيف وصلنا إلى تلك النقطة المؤسفة التي جعلت كثيرا من الخلق لا يقبلون منا وجعلت خطوطا حمراء لا يستطيع داعٍ أن يتجاوزها دون أن يُرفض ويتم نبذه بقسوة؟!

خطوطا لم يضعها رقيب أمني أو جهاز قمعي وإنما وضعتها حالة مجتمعية فشلنا خلال ثلاثة أعوام تقريبا أن نحسن التعامل معها دعويا وإعلاميا حتى آلت إلى هذا المشهد الكئيب الذي آثرنا فقط أن ننظر إليه من منطلق الاتهام للغير وليس منطلق محاسبة النفس وتصحيح المسار أو الاعتراف بالخطأ لنستطيع إصلاحه ولنحاول جاهدين أن نضع الآليات

السليمة لمواجهته قبل أن نعلق كل شيء على شماعة القمع والحظر والاستضعاف وهلاك الناس أو يجعل البعض ذلك سببا لمزيد من التنازلات والمداهنات بحجة بقاء الدعوة

الدعوة التي هي دعوة الله التي لن تموت أبدا إن شاء الله

بل ستحيا بإذنه بنا أو بغيرنا فهي ليست ملكا لأحد منا وليس أحدنا وصيا عليها أو وكيلا حصريا لها أو شرطا لوجودها

الدعوة إلى الله ليست مسمار جحا

فإياكم أن تجعلوها كذلك

❋ ❋ ❋

٣٨.عايز إيه؟

هات من الآخر عايز إية؟

هذا السؤال هو لسان حال كثير من الناس اليوم، وأحيانا لسان مقالهم، سؤال يسمعه، أو يستشعره كثير من الدعاة إلى الله؛ حال ممارستهم لتلك المهمة الشريفة، وسلوكهم هذا السبيل الكريم، سبيل سيد ولد آدم عليه السلام والذى أمره ربه ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾، سبيل الذكرى التى تنفع المؤمنين؛ التى أمر بها رب العالمين فقال: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

هذا السبيل صار اليوم مسدودا بحاجز منيع يمثله هذا السؤال الحالى، أو المقالى:«عايز إيه؟ طلباتك إيه من الآخر؟»

سؤال تنطق به نظرات الشك، والتربص، وأمارات الريبة التى تبدو على وجه كثير ممن تُوجه إليهم هذه الذكرى، أو يكونون محلا لتلك الدعوة، والبلاغ

ربما تُترجم النظرات، والإشارات لهذا السؤال الصريح، الذى يفصح عن شبهة خطيرة استقرت فى قلوب البعض،

شبهة ضرورة وجود غاية مادية، أو دنيوية من وراء الدعوة، أو الذكرى التى تنفع المؤمنين، وكأن الداعى، أو المُذكر، أو الناصح الأمين الذى يطبق القاعدة النبوية«الدين النصيحة»؛ لابد أن تكون له «مصلحة» عاجلة من خلف تلك التذكرة التى ما هى إلى مقدمة لطلباته التى ستأتى فى «الآخر».

البعض يفترض أنك حين تكلمه فى الدين مذكرًا إياه بمولاه، أو ناصحًا له بتقواه؛ فإنك تريد بذلك صوته فى انتخابات، أو تريد استقطابه لحزبك، أو ضمه لجماعتك هذا بافتراض أنك منتم لجماعة أساسًا!!

والبعض يظن بك أنك تريد مالاً، أو تبرعًا ستزعم أنك ستعطيه لفقراء، أو أيتام؛ ثم تستولى عليه لأنك طبعًا من تجار الدين، الذين يحذره منهم النخبويون.

وربما يعتقد أنك تقوم بعمل «بروباجندا» أو «شو»؛ لتظهر به أن تيارك ناشط، وقريب من الناس.

وقد يتوجس خيفة حين تتقدم إليه بدعوتك؛ ظنًا منه أنك ستقوم بتطبيق الحد عليه؛ لأنك من الجماعات التى خبروه أنها تفعل ذلك بالمارة.

المهم أنه سيقدم هذا الظن؛ أنت أكيد تريد منه شيئًا!!

لن أدفن رأسى فى الرمال، أو أقول إن مسئولية جبال الجليد التى تقف اليوم حاجزا بين الداعى، والمدعو سببها فقط الإعلام، أو الدعايا المضادة،

أو الشائعات وهى بلا شك تقوم بدور أساسي فى ذلك، لكن سأعترف أن من الإسلاميين من تسبب فى هذا ببعض الأفعال؛ التى أعاقت الدعوة قبل أن تسىء إلى أصحابها.

وأيضا لن أتغافل عن الظروف التى تمر بها البلاد، من انتخابات متوالية، وموجة سياسية عارمة تجتاح الأمة، أدت إلى علو جرعة التعاطى السياسى بشكل رهيب لدى جميع طوائف الشعب تقريبا، وتسببت فى انشغال العقل الجمعى دائما بالخيارات السياسية، ودوران جل الأحاديث، والحوارات، والأفكار حولها مما يجعل تصور وجود دعوة محضة؛ مجردة نصوح، أمرا مستبعدا لدى كثير من الناس!

لكن لابد من وقفة،

لابد أن يذاب هذا الجليد، وأن يظهر من جديد مفهوم «الدعوة المرسلة»، دعوة الأنبياء، والمرسلين سلام الله عليهم أجمعين، الدعوة التى شعارها ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾، وعنوانها ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ودليل مصداقيتها الذى صاح به مؤمن آل ياسين ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرًا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾

دعوة لا يريد أصحابها شيئا من المخلوقين؛ لا مالاً، ولا شرفًا، ولا منصبًا، ولا مقامًا، ولا حتى كثرة أتباع، هكذا كان حال القدوات من

الأنبياء؛ لدرجة أن يأتى النبى يوم القيامة، ومعه الرجل، أو الرجلان، ويأتى وليس معه أحد، نوح (عليه السلام) ظل يدعو ألف سنة إلا خمسين عامًا؛ وما آمن معه إلا قليل، ورغم ذلك ما كل، ولا مل، ولا ذل،

بل استمر فى دعوته المرسلة لا يريد جزاءً ولا شكورًا.

وهذا ما ينبغى أن يُوصل ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾،

طائفة لا هم لها؛ إلا أن تسلك سبيل النبى على بصيرة، وأن تكون من أحسن الناس قولاً ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾

طائفة لا ترجو؛ إلا أن تدل الناس على الخير، ولا تهتم؛ إلا بأن تكون مفتاحًا للخير، مغلاقًا للشر، ونصب أعينها قول النبى لابن عمه وزوج ابنته ﷺ «والله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم»

لابد أن توجد هذه الطائفة، وأن تمارس دورها دون هذه الفرضيات المسبقة من المتلقى وأن يظل الاعتبار قائما بأن السؤال عن البواعث والدوافع لتلك الدعوة ليس له إلا إجابة واحدة

طاعة لله، وطمعًا فى رضاه..

٣٩. قاعٌ قد ازدحم

قاعٌ قد ازدحم

مشاهد لا تغادر الذهن بسهولة، وأحداث لا تمر على النفس مرور الكرام، ومواقف وردود أفعال أقل ما يقال عنها أنها مؤلمة.

هل سيُمحى من الذاكرة يوما مشهد جثث تلقى بإهمال إلى جوار رصيف محمد محمود؟

هل سيرتحل عن المخيلة يوما مشهد جندى يتقافز فوق بطن متظاهر؟!

هل سينسى المرء يومًا مشهد بيادة تدهس جسد فتاة لا حول لها ولا قوة؟

هل سيزول يومًا ألم كرامة تمزقت عن جسد وطن، مع عباءة لم ينشغل بعض بنيه إلا بكونها ذات (كباسين)؟!

وهل سيندمل يومًا قرح نفس تمزقت بردود أفعال البعض، وتعليقاتهم، وجلدهم للضحية، وتحيتهم لجلادها؟

ربما..

لكن ما إن يزول الألم، ويكاد الجرح أن يندمل، حتى يلاحقه مشهد

جديد أشد بذاءة وموقف آخر أكثر قسوة، وقرح أثقل على نفس ملأتها ندوب وندوب!

فلئن زال عن الذهن مشهد المسحول المستلقى على الأسفلت عاريا فهل سيزول يومًا مشهد المصرية التى يجتمع حولها العشرات لينهشوا عرضها؟

هل سيندمل يومًا جرحٌ غائر، شقه النظر لأناس لا يشبهون البشر إلا شكلا، وقد أعمتهم سكرة شهوة هم فيها يعمهون، وفى دنسها يتقلبون؟

حقيقة لست أدرى.

لا أريد أن أتوسع فى وصف هؤلاء الذين زالت عنهم الإنسانية، بل وربما الحيوانية، وتخلقوا فى تلك اللحظات بأخلاق شيطانية سولت لهم أن يجتمعوا على فريسة ضعيفة لاغتصابها أو التحرش بها وطعنها بسكين رغبة قذرة كادت أن تودى بحياتها بعد عرضها، وذلك بحماية سيوف نجسة، ونيران تتطاير لتنافس لهيب الشهوة التى تستعر فى قلوب أولئك الذئاب مع الاعتذار للذئاب التى ربما تتمتع بمروءة أكثر من مروءتهم الضائعة.

لا أريد أن أتوسع فى وصفهم.

ربما لأننى لا أستطيع وصفهم.

فالحقيقة أننى لا أعرفهم،

بل لا أستطيع التعرف على شىء من ملامح الإنسانية فيهم فضلا عن الدين والخُلق!

لا أستطيع التعرف على بقايا آدمية فى سعيهم المحموم خلف فريسة مسكينة،

لا أستطيع أن ألمح أمارة رجولة واحدة فى بذاءة مقصدهم، وخبث طويتهم، وعفونة أياديهم التى تعبث بجسد المصريات.

من أنتم؟! ومن أين أتيتم؟!

وأى قاع هذا الذى فيه ترديتم؟!

لا يكلمنى أحدكم عن الظروف والأحوال والكبت وكل تلك الديباجات التى أقسم أنّي أحفظها جميعًا وأرفض أن يجترىء أحد على تبرير تلك الحيوانية النجسة بها.

إن ما رأيناه فى المشاهد الأخيرة ليس تحرشًا كالذى يهوى الباحثون الإجتماعيون والأطباء النفسيون أن يحللوا أبعاده وأسبابه،

إن ما رأيناه هذه المرة كان شيئًا مختلفًا تمامًا،

لقد رأينا شرًا خالصًا ممنهجا لا ألمح فيه ومضة خير أو لمحة عذر أو تبرير، لقد رأينا سوادًا كثيرا لكنه هذه المرة أشد عتمة وأحلك ظلمة وأخشى أن تتسرب إلى قلب من يجرؤ على تبريره.

هل هو غضب؟!

هل هو انتقام؟!

هل هو تآمر؟!

هل هو فجور مضطرم انبجس فى وجه الضحايا المنتهكات؟!

أم هو مزيج من كل ذلك؟!

ترانى هنا أتذكر مقولة صلاح عبد الصبور وأتساءل معه: كيف ترعرع في وادينا الطيب هذا القدر من السفلة والأوغاد؟!

حقيقة لست أدرى.

لكن ما أدريه جيدًا أننا بصدد قاع يمتلئ ويزدحم، وسنهوى فيه جميعا إن سكتنا أو دفنا رؤوسا فى رمال وانشغلنا عنه بمصالحنا ومعاركنا السياسية والفكرية،

إن كان هؤلاء فى سكرتهم يعمهون..

فأين من ينكرون ويتحركون ويُغَيِّرُون؟

أين الصالحون المصلحون الذين يقومون، وينقذون هذا الوطن من ذلك الدرك الحالك الذى لا يهتم به المتلونون؟

أين من ينتشلون شبابًا من قاع هم فيه يغرقون؟

قاع قد ازدحم!!

٤٠. كلم نفسك

الإنسان يكلم نفسه !!

تلك حقيقة واقعة

ليس شرطا أن يكون كلاما باللسان لكنه حديث النفس الداخلي الذي لا يخلو منه إنسان

أسئلة وإجابات تطرح

آمال وأحلام تتشكل

أحزان وذكريات تسترجع

أفكار وخطرات

لمحات ولفتات

صرخات وهمسات

تمر جميعها بالذهن ولا يخلو منها يوم من أيام عمر الإنسان القصير

مشاعر متباينة تضطرم داخل النفس

غضب وفرح

كره وحب

وأحيانا

حقد وغل وحسد!!

خليط رهيب من كل ما سبق من الكلمات والعبارات تتشاجر أحيانا وتتضافر أحيانا أخرى وتتجمل أحيانا وتكذب على بعضها وقد تتراشق وتتكشف فاضحة نفسها أمام نفسها

لكنها في النهاية تظل داخل صدور لا يعلم ذاتها إلا الله

ويظل اضطرامها داخل النفس عاملا مهما من عوامل إكمال الحياة

نعم

هذا الحديث يعتبر في الحقيقة من أهم وسائل العون وإستمرار المسير في رحلة العيش

تخيل لو أنها كانت نفسا صامتة لا تتحدث ولا تتجاوب ولا تلوم أو حتى تبرر

حينئذ لن تكون نفس إنسان

ستكون في تلك الحالة نفسا مصمتة ويكون صاحبها أشبه بـ (الروبوت) أو الإنسان الآلي وليست هذه هي النفس المطمئنة التي ذكرت في القرآن بل هي نفس متحجرة جامدة

أو تخيل العكس..

نفس متجبرة متسلطة تبرز كل عيب و(تبروزه) في إطار ظاهر وتجلد صاحبها عليه باستمرار موجهة إليه شتى أنواع الإهانات والبذاءات

إنها حينئذ نفس كئيبة مدمرة

وليست هذه هي النفس اللوامة المحمودة بل هي نفس جلادة سادية تهوى العذاب والتعذيب

لكن أغلب الأنفس ليست كذلك

أغلب الأنفس تحدث نفسها حديثا مختلفا تستطيع معه العيش والتعايش مع نقصها وزللها وخطئها

فإن لم تتعاظم جدا فيكون حديثها مع نفسها كله تعظيما ومدحا وتمجيدا كما في حال الأنفس المغرورة المتكبرة لأولئك الذين يرون أنفسهم هدية ينبغي على البشرية أن تفرح بكل سكنة من سكناتهم وتسعد بكل حركة تصدر منهم فإن جل النفوس الباقية تصل في مرحلة ما إلى التبرير أو التسويغ أو التمرير لما تفعله من أخطاء أو خطايا

حتى لو صارحت نفسها بالخطأ ولامت نفسها عليه وربما تابت عنه (وتلك هي النفس الصالحة اللوامة) فإنها في النهاية لابد أن تعبر وأن تتجاوز ذلك الخطأ أو الخطيئة لتكمل الحياة فتحدث نفسها حينئذ بالرجاء والأمل في الرحمة وربما تزين أحيانا ما حدث بدعاوى الاضطرار والضعف

الإنساني أو تستدعي نماذج المخطئين من هنا أو هناك لترى نفسها مثلهم أو أفضل حالا منْهم

المهم أنها ستصل إلى اتفاق في هذا الحوار الداخلي يجعلها تكمل

ربما يكون اتفاقا سديدا موفقا يذهب بها إلى راحة النفس الصالحة المطمئنة

وربما تكون اتفاقيات مبنية على الكذب والتجمل الذي تلجأ إليه كما قلنا لتستطيع الإكمال

المحصلة النهائية أن الكل يتحدث مع نفسه ويحاورها ويصل معها إلى اتفاق ما

وهذا الحوار لا يسمعه أو يعلمه أحد غيره إلا الله

لكن حينما تتجاوز تلك المفردات حاجز الصدور وتخرج إلى الملأ لتتفاعل مع بعضها البعض عيانا بيانا فإن ذلك مؤشر خطير

بل ربما يعده البعض نوعا من الجنون

تخيل واحد ماشي يكلم نفسه

يتشاجر معها

يلومها ويبوخها

فترد نفسه عليه بتقريع مقابل

صوتهما يعلو على بعضهما البعض

الخناقة تشتد بينه وبين نفسه

ثم يعود فيمدحها ويثني عليها ويمجد أفعالها أو يبررها ويسوغها

ماذا ستقول حينئذ عنه؟

جن جنونه

فقد عقله

أعصابه أنهكت وخرج عن شعوره

وربما كل ذلك

للأسف هذا النموذج الجنوني هو الغالب على واقع العمل العام هذه الأيام

الكل تقريبا يكلمون أنفسهم

يخاطبون قواعدهم

لا تكاد تجد أحدا يخاطب إلا أتباعه أو أحدا يسمع إلا موافقيه ولا أحد تقريبا مستعد لتغيير رأيه أو خلع النظارة التي يزوده بها متبوعه ويحرص تمام الحرص على أن يظل مرتديا إياها لا يرى الدنيا إلا من خلال عدساتها

لست أعني واحدة من تلك النظارات التي نعرفها اليوم سواءً الطبية منها أو الشمسية

إنها أعني تلك النظارة التي يرتديها المرء فتصبغ حياته ورؤيته وفهمه بلونها، فلا يرى الأشياء إلا من خلالها ولا يحكم على الأمور إلا بقتامتها التي تحجب عنه تفاصيل وحقائق واضحات بينات لكل من لم يرتديها،

تلك النظارة التي تتعاظم وتتضخم أحيانا لتتحول دون أن يشعر مرتديها إلى سجن كبير، لا يرى الدنيا إلا من خلال نافذته الضيقة التي يقبع أسيرا خلف قضبانها الباردة.

وأسر الأفكار كثيرا ما يكون أشد إحكاما من أسر الأسوار، ولربما تكون قضبان الجهل والتأول أصلب ألف مرة من قضبان السجون.

لكن سجين الفكرة ربما لا يدرك أبدا أنه سجين!

بل قد يظل حبيسا خلف قضبان تلك الأفكار التى تتملكه، دون أن يدرك -ربما لأعوام- أنه كان ينظر إلى الدنيا من خلال نافذة زنزانة تلك الفكرة أو من خلف زجاج نظارتها المعتمة ويصم أذنيه إلا عن صوت من ألبسه إياها.

صوت نفسه

وقد تملك بعض الأفكار والتصورات والمشاعر على المرء حياته، فلا يتصور العيش إلا من خلالها، ولا يمكنه التنفس إلا فى أعماقها، حتى إذا هبت عليه نفحة من نسيم مختلف، حبس أنفاسه خشية أن يختنق

حتى لو كان هذا نسيما عليلا نظيفا

يكفي أنه مختلف كي لا أستنشقه

كذلك فعل قوم نوح

وضعوا أصابعهم في آذانهم ورفضوا أن يسمعوا

واستغشوا ثيابهم وأبوا أن يروا

وأصروا واستكبروا استكبارا!

وكذلك فعل الضلال في كل زمان ومكان حينما جاءتهم رسلهم بالبينات، فردوا أيديهم في أفواههم، ورفضوا أن يفتحوا الأبواب والنوافذ ليدخل الضياء إلى القلوب والعقول أو يخلعوا النظارات ليروا الدنيا بألوانها الطبيعية

والحقيقية

ولو أن أحدهم أقدم وقرر يوما أن يفعل

فيخلع النظارة، ليرى الحياة بلونها الحقيقي، فسيدرك حينئذ الفارق الهائل بين وضوح الصورة ونقاوتها بدون النظارة التي لونت حياته دون أن يشعر، حين كان حبيسا خلف زجاجها القاتم، وقابعا بين أسوار سجنها المظلم، الذى لم يفترض ولو للحظة أنه صواب يحتمل الخطأ، وأن غيره خطأ يحتمل الصواب.

لكن كثير من الناس للأسف يستسلمون لذلك الأسر ويصرون على ارتداء تلك النظارات التي تلون أحكامهم والساعات التي تسيطر على تقديراتهم لكل شيء

نظارات الحب الوردية التي تزين كل سوءة وتجمل كل قبيح

أو نظارات الكراهية السوداء الداكنة التي تنفي كل فضل وتنسب كل شر لم يُنظر إليه بتلك النظارة القاتمة

نظارات التعصب وساعات الهوى

نظارات الشهوة وساعات الشبهة

وما أكثر النظارات وما أشد سماكة الساعات

فى حافلة تزدحم بمجموعة متباينة من الأشخاص من مختلف الجنسيات، والأعراق، والألوان؛ كانت رحلة عودتى إلى مخيمات مِنى؛ بعد أداء طواف الإفاضة، وسعى الحج منذ عدة أعوام.

جاء مجلسي فى تلك الحافلة إلى جوار مجموعة من الحجاج الصينين، وحاج نيجيري، وآخر عراقي.

ظل الأخوة الصينيون طوال الطريق يتكلمون معى فى حماسة بالغة، ويحاولون بإصرار عجيب إفهامى شيئا ما لم أدرك ماهيته إلى اليوم!!

وأنا أحاول إقناعهم -دون جدوى- أنى لا أفقه حرفًا من لغتهم؛ بينما

يُلح علينا «التبَّاع» اليمني كى نساعده فى إفهامهم قيمة الأجرة التى حاولنا جاهدين أنا والأخ العراقى والأخ النيجيرى بيانها لهم بلا فائدة؛

استمر الحوار المحتدم، والصياح المتبادل لأكثر من ساعتين حتى وصلنا إلى أرض مِنى؛ ولم يفهم أى منا الآخر.

يومها تذكرت تلك المقولة العبقرية التى تُذكر حين يعجز كل طرف عن فهم الآخر، فيُطلق على حوارهم «حوار الطرشان»

تلك الصورة الهزلية لمجموعة من الصُم الذين يكلم كل منهم الآخر بحماسة شديدة تبدو أماراتها على قسماتهم، وتدفع كلا منهم للصياح بأعلى صوت ممكن فى أذن محاوره، الذي لا تغادر اللامبالاة وجهه؛ حتى إذا جاء دوره ليتكلم؛ صاح بحماسة لا تقل عن حماسة الأول، الذى تنتقل إليه على الفور حالة اللامبالاة إياها؛ وهو معذور؛ فإنه ببساطة لا يسمع!!

لا يسمع إلا جهة بعينها

فهمه ليس منضبطا إلا على موجة واحدة

موجة موافقيه

نفسه تكلمه ويكلمها

وحسب

نفس الأحداث، ونفس الممارسات، ونفس المواقف تجدها في رواية

بصياغة، وفى رواية أخرى بصياغة مضادة تماما

لابد في كل حادث أو موقف أو خيار أن تكون هناك رواية ورواية مضادة ترددها القواعد ويقنعون انفسهم من خلالها انهم دوما مظلومون مضطهدون ملائكة في مقابل شياطين

فهذا الحزب يخاطب قواعده ويقنعهم أن قراراته لا مثيل له وأنه هو الحزب الأعظم في تاريخ البشرية وأنه الحريص الوحيد على مقدرات البلاد والقارىء الفريد لمناطات الاضطرار والحاجة والمتاح والممكن وأنه هو المحافظ على الشريعة في كل حال والحاقن الأوحد للدماء

فمن يفهم تلك التوجيهات العكاشية اللوذعية التي تصدع كل مساء محذرة من الماسونية الإرهابية ومن يتحمل صرخات تلك المذيعة العصبية أو نرفزات وبذاءات زوجها السوقية أو لا يمل من هدوء أخيه المحنك إلا أتباعهم ومعجبيهم على أريكتهم الوثيرة التي على ظهرها المريح يقبلون ويتحملون كل ذلك ويفهمون ويدركون مغزاها ومدلولها

فالرسائل موجهة لهم هم وهم وحدهم

ومن آن إلى آخر وعبر الأثير سيرسل المغرد سؤاله الشهير الذي يثبت به أتباعه المخلصين قائلا هل هناك دولة؟! وسيدركون جميعا المغزى ويهللون ويرددون صيحات الإعجاب بتلك السنين الضوئية التي يسبق الجميع بها

ولن يفرق معهم بعده حتى لو ظل حبيس التغريدات وكأن شيئا لم يتغير وكأن ثورة لم تقم

حتى من هم أصحاب قضية عادلة كثير منهم للأسف يخاطب نفسه وحسب

إذ لا يتصور مطلقا أن قناعة مخلوق ستتغير أو سيتم تصحيح فكرة أو وعي أو الترسيخ لمبدأ أو حق حين يقال في ختام تلك التوعية أو الدعوة أو النصيحة كلمات من نوعية: هز ديلك أو اشرب برسيم أو بصب اللعنات على المنصوح والمدعو وحين تنصح بتغيير الخطاب لتنجح التوعية وتظهر عدالة القضية تجد حقيقة أن الخطاب ليس توعية ولا يحزنون وأن الأمر في كثير من الأحيان ما هو إلا حديث نفس لتثبيت القواعد أما الآخرون ففي نظرهم لا فائدة أصلا منهم وكأنهم قد حكموا بمآلهم ومصيرهم

الكل في النهاية -إلا من رحم الله- يسقي أتباعه ومؤيديه جرعة التثبيت ويعطيهم الرواية التي تناسبهم والاجابة التي تجعلهم ينامون مرتاحي البال بعد أن يحفظوا تلك الإجابة التي لقنتها لهم أنفسهم -أقصد فئتهم أو نوعهم أو فصيلهم أو حزبهم- ثم يضعونها (كوبي وبيست) عند خصومهم ومخالفيهم وطبعا خصومهم لن يقرأوها لأنهم يرتدون نظارات من لون آخر وهم أيضا مضبوطونعلى موجة معينة لكن مختلفة ولابد لكي

تكلمهم أن يكون ذلك من خلال تلك الموجة وتعطيه الرواية التي يصح معها أن تقول أنه يكلم نفسه ونفسه ترد عليه

بذلك تثبت القواعد

نعم

لكن كل قاعدة تظل على جزيرتها المنفصلة التي تتباعد باستمرار عن الجزر الأخرى وتتقطع باستمرار مع هذا التباعد كل خطوط التواصل المحتملة

وكل فريق يستعمل نفس الحالة أو الموقف فى نصرة فكرته، وزيادة درجة العتمة على زجاج النظارات الداكنة التي يسيطر بها على رؤية أتباعه ومريديه وموافقيه أو مضاعفة سمك السماعة التي تعزل سمع مؤيديه ومحبيه

ورغم أن الصوت عالٍ إلا أنه من النادر أن تجد أحدا يسمع أو يعقل في كل تلك الضوضاء

اللهم إلا من مصدر واحد فقط في النهاية

نفسه

تكلمه ويكلمها

٤١.الرداحة

قدر لى بعد تخرجى بفترة يسيرة أن أعمل فى إحدى العيادات الشعبية القابعة فى منطقة فقيرة للغاية وتتسم بوجود عدد كبير من البلطجية والبلطجيات

وكلمة البلطجيات هى اصطلاح مخفف للاسم الذى يطلق على هذا النوع من النسوة فى تلك المناطق وهو لفظ لا أفضل كتابته لكن أظن أن القارىء الكريم يدركه وخصوصا من عاش أو احتك بتلك المناطق الخطرة وعرف جيدا هذا الصنف من النساء الذى يستعان به فى التشهير أو ما يسمى فى الاصطلاح الشعبى ب«الردح»

فى ليلة بينما أنا منشغل بفم أحد المرضى فوجئت بوصلة من ذلك «الردح» تدوى فى الشارع الذى فيه العيادة التى أعمل بها

الحقيقة كانت أول مرة فى حياتى أتصور أنه يمكن أن تبلغ الشتائم والسباب هذا المبلغ التفصيلى العجيب

لقد كانت (الخناقة) بين «ردّاحة» وأخرى

ولنجعل هذا الاصطلاح - الرداحة- هو الاصطلاح الأهون الذى

سنصف به تلك المهنة العجيبة

فى لحظات اجتمع أهل المنطقة وقام المريض والحكيات ليشاهدوا بشغف هذه الفقرة المدهشة لى والتى بدى من رد فعلهم أنها معتادة بالنسبة لهم

كل ما يمكن أن تتخيله ولا تتخيله من السباب الإباحى والإهانة والتعيير كان موجودا فى تلك الخناقة التى استمرت لساعة أو أكثر سردت فيها كل رداحة تاريخا جنسيا مذهلا للأخرى وأهلها واللى جابوا أهلها

ما لفت نظرى فى تلك المشاجرة ليس مدى فحش القول فيها ولا السباب المسجوع والمنمق الذى يشعرك أنه نوع من الزجل الشعبى اجتذب ضحكات وابتسامات بعض المتفرجين من أبناء الحى

إنما لفت نظرى حقا أن نسبة كبيرة من المعايرة فى تلك المشاجرة لم يكن للطرفين دخل فيه

لقد سردت كل رداحة وقائع زعمت أن أقارب أو جيران الأخرى وقعوا فيها وعيرتها بها

تذكرت هذه الواقعة وهذه الملحوظة وأنا أشهد اليوم تلك الثقافة - ثقافة التعيير أعنى - وقد صارت علامة مميزة على حوارنا المعاصر

حينما تتكلم فى مسألة أو تكتب عن فكرة أو تطرح طرحا فتفاجأ بمن يقف لك قائلا يا بتوع فلان الذي فعل يا أصحاب «علان» الذي سوى يا كذا ويا كذا مستحضرا كل ما يذكره من أمور تورط فيها أو نسبت لبعض

من انتسب لحزب إسلامى أو لجماعة دينية

تعجب حين تجد بعض من يفترض أنهم مثقفون أو عقلاء يتقمصون شخصية «الرداحة» فى كتاباتهم أو حواراتهم مصدرين نقدهم للفكرة أو للمشروع بأخطاء نسبت لبعض الأتباع سواء صحت أم لم تصح ليس ذلك موضوعنا فلا يوجد أى منطق شرعى أو حتى إنسانى بسيط يجيز ذلك

إن الرداحتين اللتين صدرت بقصتهما رغم فحش الخلق الذى تمتعتا به إلا أن كل واحدة منهن حرصت فى معايرتها للأخرى أن تأتى بذكر أقارب لها أو أناس لها علاقة مباشرة بهم لكن واحدة منهن مثلا لم تقل للأخرى لم تعييرها بفعل امرأة لا تعرفها تشبها فى الشكل أو اللون أو فى الوزن مثلا

لا يوجد منطق فى الدنيا يقول أنه إذا سرق أشقر فكل الشقر لابد أن يعيروا بفعله أو لو ارتشى أسمر فكل السمر مرتشون لا أحد يجرؤ أن يقول هذا ولا حتى الرداحات فى الحوارى والأزقة

لكن للأسف بعض العقلاء يستحلون ذلك دون استحياء

قد يكون الأمر به بعض المنطق لو أن المنهج الذى يزعم المخطىء انتماؤه إليه يدعو للرذيلة أو ينظر للكذب فيكون الأمر حينئذ نقد لمنهج هدام أو مفسد لكن منذ متى كان سوء تطبيق او فهم البعض داعيا لهدم الأصل ومحاسبة الكل ؟!

العجيب أن بعض أصحاب ثقافة التعير هم ومناهجهم أو أيديولوجياتهم أكثر من سيخسر إن كانت هذه هى القاعدة المتبعة فحينئذ سيعير الليبراليين بتلك الفتاة التى نشرت صورها متعرية زاعمة أن تلك هى الحرية أو تلك المخرجة التى دعت لترخيص الدعارة وربما يعير الاشتراكيون بمذابح لينين وستالين ويعير الديموقراطيون بجرائم أمريكا بسجن أبي غريب في العراق أو جرائمها في أفغانستان والصومال وهكذا

و لو أن أتباع المذاهب والأديان عيروا بخطايا أتباعهم فستحضر إلى الأذهان صور معروفة وفضائح مشهورة لبعض رموز هذا المذهب أو ذاك الدين فهل يرضى أحد أن يعير كل أتباع الملة أو المذهب بأفعال البعض

الأمر بهذه الطريقة سيتردى إلى مهاوٍ سحيقة لا توجد لها أي علاقة بتلك القاعدة النورانية العظيمة

قاعدة: «ولا تزر وازرة وزر أخرى»

ذلكم المبدأ المنطقي البسيط الذي هو على الرغم من بساطته ووضوحه وبدهيته صار يغيب عن أذهان كثير من الناس اليوم فيعتمدون خطاب الجمع والتعميم ويختارون ثقافة السلة الواحدة التي هي ثقافة مريحة بلا شك لكنها راحة الاستسهال واطمئنان التنطع والكسل

فلماذا ينفق الظالم شيئا من وقته وفكره في التفصيل والإنصاف بينما هو يستطيع أن يلقي الجميع في سلة واحدة و(يخلص)

وإن ذكرته بأنه ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ وأن ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ وأن ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ و«إن أعظمَ الناسِ فريةً الشاعرُ يَهجو القبيلةَ بأسرِها» وسائر تلك الأدلة القرآنية والنبوية الناصعة التي تبرق بنور الإنصاف والعدل فإن تذكيرك هذا سيصطدم بحواجز مصمتة وضعها على عينيه مروجو تلك الثقافة

ثقافة السلة الواحدة والتعميم المقيت ومبدأ السيئة تعم والعقوبة على المشاع

ولو أتعب أولئك المستسهلون ذلك العضو الذي وُضع في جماجمهم وأمروه بالتفكير هنيهة في مآل تلك الطريقة لحقروا أنفسهم ولربما لم يتمالكوا أنفسهم من الضحك على سطحية رؤيتهم وسماجة مبدأهم ثم لا يلبث ضحكهم إلا وينقلب إلى بكاء حين يكتشفون مدى الظلم والغبن الذي دفعهم إليه شنئان قوم.

حين يتفكرون للحظات كيف يحاسب كل أسمر على خطيئة من يشاركه لونه وكيف يعاقب كل أشقر على جريمة ارتكبها شبيهه ولماذا يُلام سمين على كل ذنب اقترفه سمين مثله

مشهد هزلي هو لكنه للأسف يحدث يوميا

مجرد أن تسمع أو تقرأ لإنسان يتكلم مهاجما مخالفه بصيغة الجمع قائلا: أنتم فعلتم وسويتم تعلم حينئذ أنك بصدد أحد أبناء تلك الثقافة

ثقافة التعميم المريح ومبدأ امتداد العقوبة

ذلك المبدأ الذي حذر منه يوسف عليه السلام بكل وضوح حين عرض عليه إخوته أن يأخذ أحدهم بدلا من أخيهم بنيامين فقال: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

وأيضا قالها ذو القرنين حين استنجد به أقوام ليعاقب ظالميهم فقال ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾

فقط من ظلم وأخطأ..

هذا هو الأصل وتلك هي القاعدة الشرعية الواضحة

حتى على مستوى الأعراف البشرية الطبيعية -باستثناء الحقب الفاشية والأمم القائمة على التطهير العرقي والإبادة الطائفية- فإن رفض ذلك مبدأ التعميم الجائر هو الأصل

بل إن هناك دولاً تعد ذلك الخطاب ومآلاته نوعا من التمييز والعنصرية وربما تُخضع مرتكبيها لعقاب شديد يردعهم عن هذا الظلم المقزز والأحمق في الوقت نفسه

بينما المنصفون في كل زمان ومكان لا يجرمنهم شنئان ولا يستخفنهم بهتان ولا يعممون طغيان بل يفصلون ويميزون ويفرقون بين الصالح والطالح والمحسن والمسيء ويرفعون دوما ذلك الشعار القرآني الجليل ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ ولو افترضنا جدلا وقوع الخطأ من أي مخلوق غير معصوم فإن المحاسبة تكون من نصيب مقترفيه والعقوبة بمبدأ

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

بل حتى المنطق الشعبى البسيط الذى يظهر من الأمثال والحكم العامية لا يرضى بذلك فتجد أدبيات لطيفة ترفض ثقافة التعميم مثل قولهم «صوابعك مش زى بعضيها» و«كل واحد متعلق من عرقوبه»

لكن طبعا هذا المنطق لا يستقيم لدى تلك الرداحة وزميلتها في ذلك الحي الشعبي

وكذلك لا يستقيم لدى كل من استخدم ثقافة (الردح) في تعامله مع المخالفين له

في النهاية مهما تنكر بقناع نخبوي أو تدثرت بدثار المثقفة ما داما قد انحدرا لأسلوب التعيير و«فرش الملاءة» فما هما إلا نماذج أكثر أناقة من ذلك الصنف

ما هما في النهاية إلا «ردّاح» و«ردّاحة»

٤٢.حينما تصير الفظاظة أسلوبا للحياة

ماذا حدث للمصريين؟

إنه السؤال الدائم الذي لم أجد له إجابة إلى الآن..

لا شك أن الكل يلاحظ في أى درك نتدنى، وإلى أى مدى وصلنا بكل أطيافنا

وأنا أقولها، وأعنيها.

كل الأطياف تشترك بدرجات متفاوتة في أصل المشكلة

المشكلة الأخلاقية

ولست أعني ها هنا فقط البلطجة، والتخريب، والتحرش الذى صارت تنضح به شوارعنا، وفعاليات ما ينسب زورا وبهتانا للثورة فهذه أمور قتلت بحثا، وكتبت عنها مرارا، وسأكتب بإذن الله طالما ظلت قائمة

لكنني أتحدث هنا عن أخلاق المصري، وأكرر التساؤل الذى أخشى أن يظل معلقا إلى الأبد منذ أن أطلقه الأستاذ جلال أمين في كتابه المعنون بهذا السؤال

ماذا حدث للمصريين؟

لماذا صارت الفظاظة هى الأصل في الناس إلا من رحم الله

أين ذهب الأدب، والذوق، والكياسة، واللياقة، واللباقة، ولين الجانب، والمجاملة اللطيفة، والكلمة الطيبة، والبسمة المشرقة، وحسن الظن، وسائر تلك المعاني (التاريخية)

هل ذهب كل ذلك أدراج الرياح، وجعله الصراع السياسى، والتحزب، والاستقطاب هباء منثورا تذروه عواصف الكراهية، والغل التي تؤجج في كل لحظة؟

نعم هناك مشكلة حقيقية.

مشكلة أخلاقية!!

كلنا يلاحظ هذا فيمن حوله.

بل أحيانا في نفسه، وأقرب الناس إليه، ولا حول، ولا قوة إلا بالله.

البعض يربط ذلك التغير الأخلاقي بالثورة، وما يصحب الثورات دوما من تبدلات جذرية في تفكير، وطبائع الشعوب التي تتعرض لتلك اللحظات الفارقة

ويربطها البعض بالانفتاح الإعلامي الرهيب، وعاصفة المكلمات الليلية التي تتحول كثيرا إلى ما يشبه حلبات مصارعة ترسخ تلك الحالة العنيفة لدى الوجدان المصري الذي يتابعها كل ليلة بشغف

والبعض يحيلها لحالة الاحتقان، والاستقطاب الناشىء عن المنافسة السياسية التي تعد إلى حد كبير جديدة، ومستحدثة على شعب تعود أن هناك من يضع صوته بالنيابة القهرية عنه، ويزور إرادته عنوة.

ويرى البعض أن الظروف الإقتصادية الطاحنة تلعب دورا

بينما يفسر ذلك آخرون بحالة التضخم التواصلي عبر شبكة الإنترنت

وأنا أعتقد أن كل ذلك مجتمعا قد أزال غبارا عن أشياء كامنة فبرزت إلى السطح لكنه لم يستحدثها من العدم.

يبدو أن هذه الآفات كانت موجودة بالفعل في الأعماق، وكانت فقط تنتظر ما يحفزها للظهور

وقد وجدته

شبكات التواصل الاجتماعي على سبيل المثال -الفيس بوك، وتويتر- لعبت دورا كبيرا في تلك المشكلة

إن مجرد إحساس المرء بقدرته على السباب، والإهانة من خلف لوحة المفاتيح -الكيبورد- يعطيه نوعا من الشجاعة الكاذبة، واللذة الخفية، والإحساس بنصر زائف، ورخيص.

وإني لأعلم أناسا في غاية الخجل، وربما الانطواء خارج الفيس بوك، وتويتر بينما تجدهم على هذه الشبكات فرسان البذاءة، وإن كانت البذاءة

ليس لها فرسان

إنها شجاعة من خلف الشاشات، واحتماء بالكي بورد، وأخلاق ضباع تنضح بالخسة، والنذالة

ثم بدأت تلك الشجاعة وإن شئت فسمها الوقاحة تتخذ منحنى جديدا.

فمع كثرة الاحتكاك، والتعامل مع الفظاظة، وقلة اللياقة، وسوء الأدب بدأ البعض يفقدون قدرتهم على التفريق بين الواقع الافتراضي، والواقع الحقيقي، وامتدت الوقاحة، والفظاظة لتصير بالتدريج سمة في مجتمعاتنا، وشوارعنا، ومنتدياتنا العامة، والخاصة

صارت الآداب، والأخلاقيات التي نشأنا عليها لدى الكثيرين ضعفا، وقلة حيلة، وربما يوصف صاحبها بأنها خوار منبطح أو جبان رعديد

فقط لأنه يرفض أن يكون فظا بذيئا

صحيح أن كثيرا من المصريين لا علاقة لهم بمواقع التواصل الاجتماعي، وربما لا علاقة لهم بالإنترنت نفسه لكن نسبة لا بأس بها تكفي لتتأثر بهذه الطبائع الجديدة

نسبة حرجة، وطبيعتها الشبابية تجعلها قادرة على التأثير فيمن حولها ممن لم يباشر بنفسه تلك الوسائل الحديثة لكن ريحها قد تسرب إلى أنفه،

وعقله من خلال التعامل مع من يباشرونها

تماما كالثورة

بدأت من تلك المواقع ثم سرت كالنار في الهشيم بين طبقات الشعب المصري المختلفة

المشكلة أن الحياة الحقيقة ليس فيها حظر أو ما يعرف بـ«البلوك» وهو الوسيلة التي يتعامل بها رواد تلك المواقع مع من يضايقونهم ويؤذونهم بألفاظهم وفظاظتهم

في الحياة الواقعية سنظل نعيش معا، ولابد ان نسمع لبعض وأن نتعلم كيف نتعايش ونواجه هذا المنحنى الجديد الذي يحتاج منا جميعا إلى وقفة حاسمة قبل أن نجد حياتنا قد تحولت إلى صفحة فيس بوك كبيرة، وبذيئة وتصير الفظاظة أسلوبا للحياة

❋ ❋ ❋

٤٣. آفة الانحدار اللفظي

الانحدار في اللفظ والإسفاف في الأسلوب يجلب بلا شك الكثير من الإثارة والتشويق خصوصا إن احتوى على تلميحات وربما تصريحات جنسية أو بذاءات لفظية

أحيانا تكون نية الكاتب والكاتبة تبسيط المعنى وتوضيحه وجذب القارىء لإصلاح فكرة ما أو توعية معينة

لكن رأيي أن هذا ليس سمت الصالحين وإن صلحت النية

وإن لنا في كتاب الله نموذجا ومثالا على رقي العبارة وعذوبة اللفظ حتى عند ذكر موقف قد يقتضي في زماننا لتوضيحه بعض التصريح

موقف مراودة امرأة العزيز لنبي الله يوسف عليه السلام

الموقف بتعبيرات هذا الزمان هو موقف جنسي فيه امرأة تريد الفاحشة وتفعل الأفاعيل لتقترفها

لكن ارجع لوصف ذلك المشهد في كتاب الله

تجد تمام المعنى قد وصل للقارىء وبشكل مكتمل دون أي لفظ جارح أو خادش للحياء الذي هو بالمناسبة خلق هذا الدين بلفظ النبي ﷺ

لقد تم المعنى ووصل بأرقى لفظ وبأبهى عبارة ودون أي تدني في دركات البذاءة أو الفحش والتفحش رغم حساسية الموقف الموصوف

ومثله موقف قوم لوط حين جاءه الأضياف فحاولوا ممارسة الفاحشة معهم

وتم وصف مشهد سكرتهم التي كانوا فيها يعمهون وبدون أي تدني في اللفظ أو بذاءة في العبارة

ووصل المعنى بتمامه أيضا

لماذا لا نحاول الاقتداء بهذا الأسلوب القرآني العظيم ومثله في كلام من كان خلقه القرآن

لماذا لا نرتقي في توصيفنا ونقاشنا قدر المستطاع فلا يكون خلاف ذلك إلا على سبيل الاستثناء ولحاجة كما هو الحال في الأدلة المعدودة التي سيسارع البعض لوضعها كالعادة لبيان الجواز وهو ما لا أناقشه

إنما أناقش وأدعو إلى أن يكون رقي اللفظ وحياء الإشارة وجمال العبارة هو الأصل وما دونه هو الاستثناء لحاجة أو لضرورة

وإن لغتنا العربية ثرية للغاية ومليئة بالبدائل والمرادفات التي توصل نفس المعاني برقي ودقة في نفس الوقت لكن على المرء أن يحاول وسيجد

والحياء شعبة من الإيمان على فكرة

٤٤. «نزّله» من على المنبر!!

صعد الخطيب درجات المنبر العتيق بالجامع الأزهر

لم تمض لحظات حتى بدأ خطبته بحمد الله والتذكير بتقواه، ثم شرع يلهب وجدان الحضور ببليغ لسانه ووافر حجته، فى خطبة تاريخية أبرز فيها فظائع الحملة الفرنسية، ودعا الناس للثورة عليها،

وما إن نزل عن منبره حتى حمله طلبته على الأعناق، وخرجت العمائم البيضاء تتقدم الحشود والمسيرات التى تجوب شوارع المحروسة منددة بالاحتلال، لتنطلق شرارة ثورة القاهرة الأولى، تتلوها الثانية.

وتمر قرون، وتتغير أشكال وأحوال، ويظل الصادعون بالحق على طريق أسلافهم، وليقوم ذلك الإمام بما قام به الأولون، ويجهر على منبره بكلمة حق يخرج بعدها من بيت مولاه محمولا على الأعناق، ولتلتقى الحشود والمسيرات من باقى مساجد مصر، لتسطر بهتافات العدالة والكرامة والحرية أحداث جمعة ٢٨يناير ٢٠١١.

هذه النماذج دوما كانت محل احترام وتقدير، ورغم أنه كان هناك من يخالفهم دائما من علماء آخرين ارتأوا فى ما يحدث فتناً أمروا الخلق باعتزالها؛

إلا أن أحدا لم يقل لماذا يتحدثون برأيهم فى أمور الدنيا والسياسة، وإن هذا مجرد رأى لا يحق لهم عرضه على المنابر.

فجأة؛ حين تعارضت المصالح، وتضاربت الآراء؛ تحول الإعجاب إلى نقمة، والتقدير إلى استهجان، وعُدت النصيحة تدخلا فى السياسة، وطالبهم المستحسنون سابقا بالسكوت حاليا!!

بل تطور الأمر إلى الحث على التطاول، والانتقال من النقاش إلى الامتهان، ومن مقارعة الحجة بالحجة إلى المنع بالقوة، دون نظر لحرمة مكان، أو تعظيم شعيرة، أو مقام عالم أو حامل قرآن، فيما عرف بحملة «نزله من على المنبر»

إن ما حدث فى الجمعة الماضية، وما سبقه من حملات تدعو المصلين لإنزال الإمام إن هو تحدث برأيه فى الدستور، هو أمر فى منتهى الخطورة، وينذر بمرحلة جديدة ينتقل فيها الصراع النخبوى إلى بيوت الله، وتنتقل فيها العلمانية من الشاشات إلى الشعائر، لتفرغ المسجد من دوره التاريخى فى التوعية والنصح للأمة، وتجعله مكانا منعزلا بعيدا عن هموم الناس وواقعهم.

لقد كان للرأى مكان فى كل أحقاب التاريخ الإسلامى، بل عُرفت طائفة من الفقهاء بأهل الرأى، ولم يقل أحد إنه ليس من حقهم بيان

حجتهم، والنصح بما رأوه مصلحة للبلاد والعباد، ولقد كان من حق الأئمة لقرون طويلة أن ينصحوا ويوجهوا بما يرونه خيرا، وما انفك الأئمة عن الصدع بما يدينون به لربهم، وينصحون لأمتهم فى أمور دينهم ودنياهم دون أن يقال هم فى السياسة يتدخلون أو بالدين يتاجرون، بل كان يقال عنهم حينئذ علماء عاملون مجاهدون، ومناضلون بكلمة الحق صدّاعون.

ومن المعلوم أن رأى العالم فى أمر اجتهادى معاصر ليس ملزما أو مقدسا، والكل يدرك هذا جيدًا، ولا يجرؤ من اشتم رائحة العلم أن يدعي قدسية لقوله، ولو حدث ذلك فإنه يقينا لن يلقى من الناس أدنى قبول، لكن نفى القداسة لا يقتضى الحجر على الرأى وليس معناه نفى الأدب والاحترام، ولا انتهاك حرمات وشعائر تعظيمها من تقوى القلوب.

وبخلاف ما يقع فيه أهل تلك الدعوات من لغو فى الجمعات، وإفساد للصلوات، فالسؤال هو: من أين جاءوا بتلك السنة السيئة، ومنذ متى يُنزل الأئمة من على منابرهم فى بلادنا أو يعتدى عليهم بقول أو فعل؟؟ وما الدليل على ذلك المنع من الاجتهاد والنصح فى كتاب أو سنة؟

ولنفترض جدلا أن إماما أخطأ، فهل إثارة الهرج وتعطيل الفريضة وامتهان المسجد هى الحل، أم يكون النصح الهادئ، والنقاش الراقى، أو حتى الشكوى للوزارة المشرفة؛ هو السبيل السليم والشرعى عند الاختلاف

مع الخطيب؟

إن اجتهاد العالم ورأيه مقدر، ومقامه لابد أن يحفظ دائما وليس فقط حين يوافق الهوى دون إفراط أو تفريط،

وإنتزاعه من منبره أو امتهانه بتلك الصورة ليس مجرد إهانة لشخصه، ولكنها سنة سيئة وطريقة همجية لن تبقى للمساجد حرمة، وستنقلنا من عصر ترهيب أمن الدولة، لعصر ترهيب أمن الرأى والفكرة، وستنشئ أجيالا لا توقر كبيرا ولا تحفظ لعالم قدره، ولئن صار الحال إلى ذلك؛ فقل على مصر السلام.

❋ ❋ ❋

٤٥.إغلاق!!

لقد وصلنا إلى مرحلة حرجة!!

مرحلة أراها الأخطر من بين كل ما سبق ومررنا به، وخضنا غماره في سفينة هذا الوطن،

وحالة أعتقد أنها أقرب ما تكون لحالة الإغلاق!!

والإغلاق- لمن لا يعرفه - هو مصطلح شرعي يُطلق على حالة من الغضب المُعمي، التي إن وصل إليها الزوج، فإن طلاقه لا يقع، لقول النبي ﷺ: «لا طلاق ولا عتاق في إغلاق».

والمقصود هنا بتلك الحالة أن حواس الغاضب ومداركه وتفكيره تتعطل تمامًا، فلا يدري ماذا يقول، ولا يدرك أبعاد ما يفعل، فيصير في موقف أشبه بشلل عقلي مؤقت يسقط عنه التكليف ويرفع عنه القلم.

أعتقد أننا في مصر نسارع إلى حالة شبيهة، غير أنني لا أملك أن أقول برفع التكليف فيها، ذلك لأننا ماضون إليها بإصرار وإدراك تام لمآل ذلك المُضي.

لعلي لا أكون مبالغًا أو متشائمًا إن قلت أننا لم نصل لهذه الدركات من

قبل، ولا حتى فى أحلك فترات مصر ما بعد الثورة، وربما قبلها.

إغلاق فكرى، وإغلاق سياسى، وإغلاق اقتصادى، وإغلاق حوارى، وإغلاق أخلاقى، وتباً لذاك الأخير.

لا أحب أن أسود المشهد فى وجه قارئى، ولم تكن تلك طبيعتى قط، ولكننى هذه المرة أجد نفسى مضطرًا للمصارحة.

لا يمكننا أن نستمر هكذا...

لن نستطيع أن نكمل الحياة بهذه الطريقة...

إن الرجل الذى أغلق الغضب عليه حواسه فى مشاجرة أو عراك، إن لم يجد من يمسك بمنكبيه، ويهزهما منبهًا إياه لتلك الحالة التى تسارع إليه ويسارع إليها، فيمتص غضبته ويهدىء من روعه مذكرا إياه بالاستعاذة من الشيطان الرجيم الذى رضى بالتحريش بين المؤمنين فإنه قد يحدث ما لا يحمد عقباه ولربما يندم حين لا ينفع الندم.

نرى هذا الندم دوما، حين يأتى ذلك الغضوب مطأطئًا رأسه فى حسرة مستفتياً يريد مخرجًا شرعيًا مما وقع فيه حال الإغلاق،

ولئن وجد له الفقيه رخصة أو مخرجًا فى أمر، فلربما لا يجد له فى أمور.

ومن هنا تأتى المصائب ويكمن الخطر!

قد تحتمل البيوت تلك الحالة المتفجرة التى تعمى وتصم صاحبها مرة

أو مرتين،

لكن الأوطان لا تحتمل.

إن شعور الغضب المضطرم فى الصدور والذى تؤجحه العديد من العوامل والجهات، وتساهم فى إشعاله أخطاء وزلات وربما حماقات، لابد أن ينتهى إلى تلك الحالة المريعة، حالة الإغلاق.

وإغلاق الحواس مرحلة متقدمة، يسبقها إغلاق آخر أشد خطورة، وهو للأسف ما نعانيه اليوم بشكل واضح، ألا وهو إغلاق العقول والقلوب.

نعم لقد وصل كثير منا إلى إغلاق تام تجاه الآخر، وهذا يشمل جميع التيارات، لقد أغلقنا قلوبنا وعقولنا بمتاريس من الكراهية السوداء، والبغض المظلم، وسوء الظن النكد، والذكريات المؤلمة، والاتهامات الجاهزة والمعلبة من كل فريق للآخر.

وأكرر لن نستطيع الاستمرار هكذا، لابد أن نبحث عن مفاتيح، لابد أن تقوم منا طائفة لتكسر تلك الأقفال قبل أن تتعاظم، وتتحول إلى سدود هائلة تشق جسد الأمة، لابد أن نزيح غشاوات عن أعيننا، ووقرًا عن آذاننا، وقسوةً عن قلوبنا، ونستعيذ بالله ربنا من شر تلك الفُرقة والكراهية العميقة، التى تكاد غمراتها أن تبتلعنا جميعا.

لابد أن نخفض من صوت هذا الضجيج المدوى، لكى نستطيع أن نميز بين الأصوات المختلطة فى ذلك الصخب المريع، لعلنا نسمع لبعضنا البعض، لعلنا نتكلم، و«نفضفض»، ونتعاتب، وربما نتشاجر لكن فى إطار من إرادة الإصلاح، التى إن وجدت فقد وعد الله بالتوفيق.

حينئذ يعتذر المخطىء، ولربما يعاقب، أو ينال عفوًا من أخيه.

لكن بشرط: أن نفتح الباب ونتكلم ونسمع.

لن أغرق فى مثالية المدينة فاضلة أو يوتوبيا كما يسمونها، فسنبقى جميعًا بشرًا نخطىء، ونصيب، ونغضب، ونسامح، لكن ليس بديل المثالية الحالمة أن نسلم بواقع أسود يكلله هذا الإغلاق.

لابد أن نتدارك أنفسنا، وأن نمسك بتلابيب مشاعرنا، التى قد تغشى آذاننا وأعيننا، فلا نسمع، ولا نبصر، ولا نتكلم، ونظل كما يريد لنا البعض على تلك الحالة من الإغلاق.

لا زالت هناك فرصة أن ننفض عن أنفسنا هذا الإغلاق، فمهما غلظت المتاريس وعلت السدود وتعاظمت المغاليق، فإن اليأس مرفوض والأمل باقٍ و«ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها».

٤٦. تكفيريون وإن أنكرتم

- إنتوا بتكفّرونا
- أنتم ترون مخالفيكم كفارا وتعتبرون كل من سواكم مخلدين في النار
- تكفيريون خوارج أنتم مهما أنكرتم

صيغ متنوعة لتهمة معلبة ومملة و(اصطنبة) جاهزة ومتكررة تلقى في وجه أي ملتح أو منتسب للتيار الإسلامي يحاول أن يتكلم أو يقول رأيه

تهمة تُعاد بشكل دوري وتكرر على مسامع الناس في الإعلام وتطالعها أبصارهم بين سطور المقالات والتحقيقات الصحفية التي لم يعد لكثير منها همّا إلا ترسيخها وتثبيتها

لذا لم يعد مستغربا أن تراها تطاردك في كل مكان وتطل من كل حوار ورسالة وقد ترسخت في وجدان الناس وصاروا يعتبرونها أمرا مسلما قطعيا

ما دمت متدينا أو يبدو عليك سمت إسلامي فأنت لا محالة تكفيري

ما تحاولش تنكر

التهمة ملتصقة بك (كدة كدة) مهما حاولت (تفلفص) منها

مهما تعجبت وضربت أخماسا في أسداس وحاولت جهدك ان تفتش في

خزائن ذكرياتك عن المواطن التي كفَّرت فيها الناس بهذا الشكل المطلق أو الحلقات والمقالات التي رميت فيها المجتمع بالكفر والإلحاد

كل هذا لن يفيدك

بل حتى لو وجدت في خزائن الذكريات عكسه وارتطمت عيناك وشنفت آذانك مواطن رفضك لفكرة تكفير المجتمع أو رمي الخلق بالكفر دون برهان من الله وحرصك الدائم على البحث عن العذر وترسيخ معنى إقامة الحجة واستيفاء الشروط الشرعية وانتفاء موانع التكفير

فكل ذلك أيضا لن يفيدك

تكفيري أنت لا محالة

ألم يقل فلان كذا؟

ألم يكتب علان كذا؟

ألم يصرح ترتان بكذا؟

خلاص تبقى إنت كمان مكفَّراتي

يا سيدي أنا مالي

أنا لا أحمل في بطاقتي إلا اسمي ولست مسؤولا إلا عن قولي وفعلي

ما تتعبش نفسك

إنت تكفيري بس مش واخد بالك

مش بس تكفيري

ده إنت متأسلم وتاجر دين وبالمرة إرهابي

طبعا كل تهمة من دول تحتاج مقالا كاملا لمدارستها

لكن خلينا في التكفير ولنتكلم بشيء من الجدية والصراحة وبما أنني لست من محبي الوقوف في أقفاص الاتهام وخانة المدافع المسكين عن نفسه فلنجعل الحديث بشكل تنظيري وموضوعي بحت

ما هو التكفير؟!

الجواب: هو وصف شخص أو فعل معين بالكفر

طيب... هل هو محظور في أصله

الجواب: لا

في أي ملة ودين يوجد ما يسمى بالكفر كما يوجد الإيمان

وفي الكتب السماوية لكل ملة تجد وصفا مفصلا ومتكررا لمن كفروا بها

في القرآن مثلا ورد لفظ «الكفر» ولفظ «الضلال» ومشتقاتهم أكثر من ستمائة مرة وكذلك وردت ألفاظ مشابهة عن الخروج من الملكوت وخلافه في الإنجيل ولطالما ذكر فعل الكفر في كل دين مرتبطا بأفعال ومعتقدات معينة من فعلها فهو كافر بتلك الملة

ومن الطبيعي أن من اعتنق دينا فهو كافر بغيره وإلا فلماذا لم يعتنق ذلك

الدين الآخر؟!

هذه بديهيات..

بل هو ابتداءً شرط لصحة معتقدك واستمساكك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها

نعم.... الكلام كما قرأته تماما

الكفر هنا شرط أوَّلِي لصحة المعتقد

قال الله: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾

إذن فمعتقدك يحمل الكفر والإيمان معا

فلكي تكون موحدا لابد أن تكون كافرا بكل معبود يُعبد من دون الله وهو ما يعرف بالطاغوت الذي طغى وجاوز حد العبودية

الأمر إذن يحمل تفصيلا

أين المشكلة إذا؟!

المشكلة في التوسع في التكفير أو التكفير بمجرد فعل الذنوب دون استحلالها أو اطلاق الكفر على شخص معين دون استيفاء الشروط الشرعية وانتفاء الموانع وثبوت الحجة

وهذا التوسع والاجتراء على هذا الحكم (الشرعي) على شخص أو

مجموعة معينة يرفضه ويحذر منه الجميع إلا بعض الغلاة والجهلة وبعض مستحليه من فرق معينة يخالف اعتقادها معتقد أهل السنة فيكفرون مثلا فاعل الكبيرة بمجرد فعلها حتى لو لم يستحلها وهؤلاء عرفوا بجماعات التكفير والهجرة وقديما سُمي أسلافهم بالخوارج

أما من لم يعتقد هذا الاعتقاد وتحرز من ترهيب النبي لمن قال لأخيه يا كافر خشية ان يكون هو أحدهما الذي يبوء بها

ومن قدر الأمر حق قدره وعلم خطورته فما علاقته بما سبق؟!

ولماذا تصر على كونه تكفيري؟!

بل لماذا تقع كثيرا أنت بنفسك فيما تنهاه عنه؟

هذا ما نكمل مناقشته في المقال القادم إن شاء الله



٤٧. تكفيريون وإن أنكرتم «٢-٢»

«لينا رب وليكوا رب»

«لا علاقة لكم بالدين»

«متأسلمون والإسلام منكم براء»

كل هذه وغيرها من عبارات نسمعها ممن يفترض أنهم نخب مثقفة تتهم دائما المخاطبين بتلك العبارات بأنهم تكفيريون!!

وياللعجب

عبارات قطعية الدلالة التكفيرية يستعملونها لوصف من يرون أنهم تكفيريين!!

طب تيجي إزاي؟!

أتنهى عن خلق وتأتي بمثله؟

لو افترضنا -جدلا- أن الفئة المخاطبة تكفِّر غيرها فهل المقابل أن تكفر أنت أيضا وما الفارق والكل يكفر بعضه في النهاية؟

هذا باعتبار أنهم فعلا تكفيريون وإلا فكما أوضحت في المقال السابق وأكمله في هذا المقال أن هذه التهمة ليست دوما دقيقة وغالبا لا تحمل من

مدلولها الشيء الكثير وأن البعض يسرف جدا في نفيها حتى يكاد ينفي وجود الكفر نفسه على الرغم من عدم خلو ملة أو دين من اعتبار بعض الأفعال والأقوال من الكفر

وهكذا خلق الله البشر ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾

وفي القرآن والسنة نجد كثيرا عبارات مثل ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ مقترنة بأفعال وأقوال معينة

وفي المسيحية نجد الحرمان من دخول الملكوت لأناس لم يعتقدوا أو يفعلوا أشياء بعينها وكذلك في اليهودية وسائر الملل

هناك مؤمن بها وكافر

المعيار إذن ليس في مطلق التكفير ولكن في حدوده وضوابطه.

هل هناك من يغلو؟

نعم وبلا شك منذ قرون هناك من يغلو ويكفّر الناس بالذنب وبالمخالفة

لكن الغلو لا يمرر كقاعدة إلا إذا كان جزءا واضحا من الأدبيات يقول به المنتمون للفكر

جماعة التكفير والهجرة على سبيل المثال كانت تصرح بذلك وتقطع به في أدبياتها وتبين لأتباعها أنهم هم فقط جماعة المسلمين وأن من لم يهاجر

ويلحق بهم هم كفار ومرتدون وكانت تصرح بكفر فاعل الكبيرة وكفر العلماء الذين لا يكفرونه وتحرم الصلاة في مساجد المسلمين وخلف أئمتهم وترى كل المساجد ضرارا عدا المساجد الأربعة إلى آخره...

هؤلاء تكفيريون..

هكذا وبوضوح انطبقت عليهم وعلى أدبياتهم الشروط التي تجيز وصفهم بذلك

هل قرأت من قبل عن تطور فكر منظري تلك الجماعة ورؤوسها وفي مقدمتهم المؤسس شكري مصطفى؟

هل هم فقط المدانون فيما وصل إليه فكرهم أم أن هناك من دفعهم دفعا بسلوكياته وبطشه واستهانته بالثوابت إلى أن يصلوا لهذه الدرجة؟

إن لكل فعل رد فعل وليس شرطا في المسائل الفكرية أن يكون مساويا له في المقدار بل ربما يكون أشد وأعم مع وجود الجهل والمناخ الملائم

وما يتضح مما حدث بالأمس ويحدث مثله اليوم أننا بصدد دفع مطَّرد نحو تلك الأفكار لتعلو وتزدهر في مناخ قاسي يباهي فيه بعضهم بأنهم لا يعرفون دينا إلا مصريتهم وآخرون يقولون لنا رب وليكم رب في سعي حثيث بقصد أو بغير قصد لن يوجد إلا حالة من التطرف والتطرف المقابل

إن سلوك بعض المتدينين قد ينفر الناس عن دينهم وهذا لا شك فيه

واعترفنا به مرارا من خلال النقد الذاتي الذي لا تنقصنا الشجاعة لممارسته منذ سنين ومقالاتنا وحلقاتنا شاهدة وأفضل منها قول الحبيب: «إن منكم لمنفرين»

لكن ماذا عن الدفع إلى الجهة الأخرى؟

ماذا عن المبالغة في الاستهزاء والاجتراء على الثوابت والقيم جنبا إلى جنب مع الإقصاء والازدراء والقمع؟

ماذا عن الإصرار على وصم شخص لا يتساهل في التكفير بأنه تكفيري؟

ألن يؤدي كل ذلك إلى نفور إلى الجهة الأخرى؟!

إذا كان المرء رغم إصراره على رفض عقيدة التكفير بالذنب أو تكفير المخالفين بإطلاق ورغم حرصه على نشر مبدأ التحرز في مثل هذا الأمر الجلل واستيفاء شروطه وانتفاء موانعه ثم في النهاية يُنبذ ويقال له تكفيري أنت مهما انكرت

ما الذي يتبقى ليمنع هذا الشخص أن يكون كما يصرون على وصفه إلا حرصه على نظر ربه ومعاملته له وحده بتحرزه وتورعه عما يصفون حتى لو ظل في النهاية في أعين الناس تكفيري...

وإن أنكر

٤٨.خدعوك فقالوا الشريعة مطبقة فى مصر

يتساءل كثير من الناس عن سبب كثرة ذكر الشريعة فى كلام الإسلاميين ويتجاوز الأمر لدى البعض مرحلة التساؤل إلى مرحلة كيل الاتهامات والرمى بالمتاجرة بالدين وبتدنيس إسم الشريعة التى لم يقربها أحد فى زعمهم

بل يتطور الأمر لدى البعض فتنتفخ أوداجه وتكاد حمالاته أن تتمزق وهو يقول بحسم ويؤكد للناس بنشوة بالغة وكأنما اكتشف شيئا عظيما أن كل هذه القضية «فشنك» وأن طرح مسألة الشريعة إنما هو محض افتعال لا حقيقة له لأن الشريعة - بزعمه - مطبقة فى مصر وأن الأمور غير المطبقة منها معدودة لا تمثل نسبة تذكر من الشريعة الإسلامية

و الحقيقة أنه من بين كل الشبهات التى تثار حول قضية تحكيم الشريعة والتى آليت على نفسى منذ مدة أن أتناولها فى مقالاتى بالرد فإن تلك الشبهة بالذات كانت وستظل أكثرها طرافة نظرا لتطرفها الشديد فى الكذب وبعدها عن أى منطق مستقيم يدركه كل من له مبادىء علم فى هذا الباب

و قبل أن أفصل فى بيان مجافاة ذلك الادعاء لحق وبعده عن الواقع علينا

أن نرسخ أصلين أولهما أن قضية تحكيم الشريعة ليست فقط قضية تطبيق إنما هى قضية إيمان واعتقاد فى المقام الأول وتسليم بوجوب تحكيمها والأدلة على ذلك من القرآن أكثر من أن تحصى ومن أراد أن ينهل منها فما عليه إلا أن يطالع سورة المائدة ليجد العديد من الآيات المحكمة التي تربط تلك القضية بالإيمان وتربط ضدها بالجاهلية والكفر والفسوق والظلم

الأصل الثانى أنها واجبة التحكيم بالكلية وأنها غير قابلة للتجزأة من حيث مبدأ الوجود فلا يؤمن المرء ببعض الكتاب ويكفر ببعض كما فعلت يهود ولكن ندخل فى السلم «كآفة» كما أمرنا الرب المعبود

ومسألة التدرج بعد ذلك والإسقاط الواقعى وفقه الاضطرار الذى يدخل تحته فعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ حين أوقف العمل بحد السرقة لظروف المجاعة له مناطات وشروط معروفة أغلبها إن لم يكن كلها غير متحقق لدى من يقولون ويتحججون به اليوم

لكن حتى فى إطار ذلك لم يطلق سيدنا عمر الحكم ولم ينف الحد وإنما نفذ الشرع الذى يقر أن الضرورات تبيح المحظورات وأن من اضطر غير باغ لا إثم عليه وكل ذلك فى إطار الإقرار التام والكامل بحكم الله

نأتى للإسقاط على واقعنا للنظر فيه ونرى هل الشريعة مستقرة فى قوانيننا المصرية وهل يقر التشريع المصرى بأصولها التى لا خلاف عليها ؟

الحقيقة أن الجواب = لا

ليس ذلك فى العقوبات فقط كما يزعم البعض ليوحى للناس أن الداعين لتطبيق الشريعة ليس لهم هم إلا الجلد والرجم وقطع الأيدى والأرجل وإن كانت تلك الأمور من الشرع ومنصوص عليها فى الكتاب والسنة الصحيحة بنصوص واضحة لا لبس فيها ولو أنها غير مطبقة أو حتى أحدها دون مبرر شرعى سليم فإن هذا لا يقبل ولا تعد بدونه الشريعة مطبقة

إلا أنه بخلاف قانون العقوبات الذى لا ينكر عاقل أنه في كثير من مواضع القانون المصري الوضعي أبعد ما يكون عن الشريعة الإسلامية وذلك باعتراف أكبر القضاة وأفقههم إلا أنه حتى القوانين الأخرى كالقانون المدنى مثلا تمتلىء بالمخالفات الشرعية الصريحة التى لا يختلف اثنان على تحريمها

فقانون تنظيم القروض مثلا - وليس عن البنوك أتحدث - بل القروض العادية بوصل أمانة إنها ينص على وجوب الزيادة حال تأخير السداد ويحدد النسبة دون عودة للنظر فى الضرر الذى تسبب فيه التأخير من عدمه

ماذا يكون هذا إن لم يكن عين الربا؟

الربا الذى هو بالمناسبة غير ممنوع أو مجرم قانونا رغم قطعية تحريمه في الكتاب والسنة

و قوانين تنظيم الميسر وصالات ممارسة القمار وفرض الضرائب عليها وتقنين حمل السلاح فيها معلومة لكل دارس قانون

ليس عن العقوبة أتحدث إنما عن إقرار الميسر والمراهنات وتقنين ما يسمى باليناصيب

و أيضا لا نتحدث عن العقوبة حين نذكر أن الخمور فى مصر مباحة تماما رغم الاتفاق بالنصوص القطعية على تحريمها وكونها رجس من عمل الشيطان إلا أن القانون المصرى العتيد يرى أنها لا تمنع فقط إلا فى الطريق العام ويرى أيضا أن التقنين والترخيص لمصانعها ومتاجرها وحاناتها أمر مشروع فى دولة يزعم البعض بكل ثقة وأريحية أنها تطبق الشريعة!!

هذا بخلاف ما جرمه الشرع ولم يجرمه القانون كالزنا

و أؤكد مرة ثالثة أننى لا أتحدث هنا عن الحدود فقط ولكن عن مبدأ التحريم والتجريم نفسه الذى لا يمكن أن ينكره مسلم بينما يرى القانون المصرى أنه مجرم فقط فى حالة وقوعه في طريق عام أو ارتكابه من قبل رجل متزوج وعلى فراش الزوجية ومن المرأة المتزوجة إذا اشتكاها زوجها ومن المرأة التى تمتهن الدعارة (وليس مطلق الدعارة لكن بشرط أن تكون دعارة

بدون تمييز ويأجر مما يفهم منه أنه لو كان بتمييز وبدون أجر فهو ليس بجرم في قانون مصر)

المضحك أن العقوبة فى تلك الحالة الأخيرة -الدعارة بأجر- هي ثلاثة أشهر أو غرامة ثلاثمائة جنيها بينما غير المتزوجين من الرجال أو النساء اللاتى لم يتخذن العهر مهنة فلا بأس من فعلهم وفعلهن فى قانون مصر التى تطبق الشريعة بزعمهم

حتى اعترفوا فلا يوجد نص يعاقبهم أو يجرم فعلهم يعاقبهم فى بلادنا العامرة

هذه نماذج يسيرة وهناك الكثير غيرها يبين كذب تلك الدعوى الباطلة التى يروج لها اليوم تهوينا من شأن تلك القضية العقدية التى أؤكد أنها أكبر من ذلك بكثير ليس فقط فى القوانين ولكن فى برمجة الدولة ككل لتسير وفق منهج القرآن وفى إطار الشرع الربانى المحكم

ولطالما نادى المصلحون فى القضاء المصرى بتطبيق ذلك وأقروا بأن الشريعة ليست مطبقة فى معظم القوانين المصرية ولكلامهم بسط يطول أذكره فى المقال القادم إن شاء الله

٤٩. تشابه البقر عليهم (١ -٢)

دائما ما كنت أتعجب من نموذج التمرد المستمر، والعصيان الدائم الذى ضربه الله فى كتابه ببنى إسرائيل،

قوم شق الله البحر لهم، وأنجاهم من عدوهم، وأغرقه أمام أعينهم. ورفع الجبل فوقهم، وأخذ عليهم العهود والمواثيق مرارًا، فلم يمنعهم كل ذلك أن يعلنوا تمردهم صريحا فجا بقولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾

لعل أفضح أمثلة ذلك التمرد فى قصة بنى إسرائيل؛ هو موقف البقرة؛ ذلك الموقف الذى بدأ بأمر يسير للغاية:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾،

هكذا أطلق اللفظ بتنكيره الذى يفيد العموم؛

مجرد بقرة؛

أى بقرة!

مسألة بسيطة، واضحة، تخلو من التكلف، ومصدرها معلوم موثوق؛ إنه نبيهم الذى رأوا على يديه آيات ومعجزات للأسف لم تشفع له لديهم حين أمرهم بذبح بقرة! بل الحقيقة أنه ليس هو من أمرهم، هو فقط أبلغهم

أمر ربهم فكان رد الفعل السريع والفج حين قابلوا دعوته، وبلاغه بسوء ظن واتهام تجلى فى قولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾!

نعلم جميعا ماذا حدث بعد ذلك؛ وكيف أنهم تكلفوا، وتنطعوا، وافتعلوا تشابها وهميا. فتارة يطلبون بيانها، وتارة يسألون عن لونها، ثم عن وصفها، وفى كل مرة كانت تأتى الإجابة مصدَّرة بالجملة البسيطة الواضحة تسبق الوصف الذى عنه يستفهمون؛ جملة ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾ وفيها التأكيد على أمرين؛ الأول ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ﴾ أى أن الآمر هنا هو الله وأن مصدر التلقى هاهنا هو النص الإلاهى،الأمر الثانى أنها مجرد بقرة،أى بقرة.

المشكلة أنهم أصروا على افتعال اختلاف متكلف، وشددوا فشدَّد الله عليهم، وظهر ذلك جليا فى قولهم ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ﴾.

والحقيقة أنه لم يتشابه؛ لكن العلة كانت فى غياب إرادة الامتثال؛ كما تبين بعد ذلك من قول ربهم: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

وهنا مربط الفرس ومحل الإشكال ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾

إن افتراض الاختلاف، واشتباه الأمر؛ لا يدعو أى عاقل إلي ترك الفعل نفسه، ولكن العبرة بالرغبة فى التنفيذ التى إن وجدت فإن الأمور بعد ذلك تكون يسيرة؛ إلا على القلوب القاسية كالحجارة،أو أشد قسوة.

أتذكر تلك القصة القرآنية اليوم كلما سمعت تلك الشبهة المتكررة التى

يطرحها البعض عند ذكر الشريعة والدعوة لتطبيقها؛ وتتلخص فى سؤالهم: عن أى شريعة تتحدثون، وقد اختلف العلماء، وتعددت المذاهب؟!

بالطبع من حق أى إنسان أن يسأل عن الحل عند ورود الخلاف، وأن يبحث عن الوسيلة المثلى للتعامل معه، ولكن ما يحزن المرء أن البعض لا يسأل مستفهمًا؛ وإنما يُطرح السؤال غالبا فى إطار الشبهة المعطلة، وكأنه مادام العلماء قد اختلفوا؛ فالحل أن تُنحى الشريعة، أوتستبدل بقانون وضعي الطريف أنه أيضا يُختلف فى تفسره!!

وأى منطق هذا الذى يقول إنه إذا اختُلف فى تفسير شيء تُرك من بابه؟!

لو أن أصحاب تلك الدعوى نظروا إلى أنفسهم؛ إذا مرضوا-لا قدر الله-واختلف الأطباء فى طريقة علاجهم؛ فذهب طبيب إلى ضرورة التدخل الجراحي، ورأى آخر أن الأدوية تكفى، واعتقد ثالث أن العلاج الطبيعى هو الحل، هل سيترك أصحابنا الطب حينئذٍ؛ ويلجأون للدجل أو الشعوذة؟!

أشك.

الطبيعى أن يختار المريض رأى الطبيب الأعلم، والأوثق بعد أن يستنفذ وسعه فى السؤال، والبحث حتى يطمئن قلبه.

كذلك تختلف التفسيرات، والرؤى فى القوانين، والدساتير الوضعية؛ ورغم هذا لم يطالب أحد يوما أن تُترك لأجل هذه العلة؛ فلماذا يحدث ذلك مع الشريعة بالذات، وفى بلد الأزهر؟!!

لقد اختلف صحابة رسول الله فى فهم أمره لهم بصلاة العصر فى بنى قريظة؛ فهل قرر أحدهم ترك الصلاة؛ نتيجة اختلاف الفهم؟!

أم أن كلاً منهم اختار فهمًا من الفهمين، وفى النهاية جميعهم صلوا، وأجروا بإذن الله.

الأمر يا سادة ببساطة يحتاج فقط إلى تقنين، وبذل جهد من المتخصصين للخروج بالتفعيل الواقعي المعاصر للشرع المنزل؛ التى لا يبلغ فيه الخلاف السائغ ذلك الحد المفزع الذى يصوره البعض.

ولقد حدثت بالفعل محاولات، ومشاريع رائعة للخروج بتقنين للشريعة فى صورة مواد واضحة، وسلسة مستمدة من الأقوال الفقهية المعتبرة منها مشروع تقنين الشريعة فى السبعينات والذى اكتمل فى أوائل الثمانينات وأعلن ذلك فى جلسة لمجلس الشعب عام ١٩٨٢ قام فيها رئيس المجلس الدكتور «صوفي أبو طالب» أستاذ القانون ورئيس جامعة القاهرة ورئيس البرلمان الأسبق ليعلن إنجاز تقنين للشريعة الإسلامية أعاد كل مواد القوانين إلى الأصول الإسلامية، وأشار إلى المصادر الفقهية التي استند إليها

هذا التقنين منتقيًا الرأي المناسب من المذاهب الفقهية المعتبرة في صورة تقنين حديث، تقوم فيه «الأصالة» بتحقيق المصالح المعاصرة وذلك بالاستعانة بفريق متميز من علماء الشرع والقانون تضافروا لتلك المحاولة الرائعة ولإنجاز هذا المشروع الكبير وفى جلسة البرلمان التى شهدت نهاية رئاسته للمجلس أحال الدكتور صوفي أبو طالب المشروع للّجنة التشريعية بمجلس الشعب لمناقشته في أجواء احتفالية يملؤها البشر والسرور قال فيها: «تاقت النفوس من أبناء شعب مصر العظيم منذ فترة طويلة إلى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، كما تطلعت إلى اليوم الذي يكون فيه مرد الأمر إلى أحكام الله تبارك وتعالى التي فطرت عليها طبيعة هذا الشعب» وللاسف ظل المشروع المتكامل حبيس الأدراج إلى يومنا هذا،

كذلك هناك أطروحة رائعة للمستشار على جريشة فى هذا الشأن، ومحاولة أخرى معاصرة يقوم بها حاليا مجموعة من القضاة والمستشارين بمركز دراسات التشريع الإسلامي وتطوير العدالة، وغيرها من الجهود الهادفة التى تحاول أن تطرح إجابة لقوم أخشى أن يكون لسان حالهم:

«إن الأمر تشابه علينا»

وللحديث بقية إن شاء الله.

٥٠. تشابه البقر...عليهم (٢-٢)

بعد ادعاء بنى إسرائيل أن البقر تشابه عليهم، وافتعالهم ذاك الخلاف المتكلف (الذى ذكرته فى المقال السابق) ختموا جدالهم بكلمة غاية فى الأهمية فقالوا: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾.

كانت تلك من المرات النادرة التى أبدوا فيها تواضعًا، أو اعترافًا بحاجتهم للهداية إلى الصواب، قدموا فيها المشيئة، وطلبوا الاهتداء فاهتدوا وعرفوا بقرتهم،

وهذه نقطة مهمة حال الاختلاف والاشتباه،

أن يعترف الإنسان بحاجته للاهتداء، ثم يأخذ بأسبابه صادقًا فى طلبه

و معلوم أن المختصين فى كل علم هم من يمتلكون الآليات اللازمة لذلك ولقد بينت فى الجزء الأول أن الاختلاف فى التفاسير والأفهام أمر مطرد فى كل العلوم وأن ما تعارف عليه البشر أن يرجعوا للمختصين فى كل علم ليفصلوا بينهم حين النزاع والتشابه كما عاد بنوإسرائيل لموسى عليه السلام وسألوه عما كان أدرى الناس به فهو مبلغهم هذا الأمر عن ربه.

لقد ورَّث الأنبياء علما ولم يورثوا درهما ولا دينارا ومن ثم فإن الأقرب

للمنطق والفهم البسيط أن يتولى ورثتهم ذلك التفسير والبيان عند الاختلاف فى أمر من أمور الشرع، يقدم فى ذلك الأكفأ، والأعلم؛ وذلك بآلية الاختيار المناسبة، والعادلة؛ كما يحدث فى كل علم، بعيدا عن فكرة الكهنوتية ؛ التى يُرمى بها كل من ينصح بالرجوع إلى أهل الاختصاص فى الشرع بينما يقبلونها بكل أريحية مع القانون أو الدستور وما معارك المحكمة الدستورية عن الأذهان ببعيدة.

المؤسف أن هناك من يصر دومًا على ذلك الافتراض المريح لهم ولمحبيهم فيفتعلون اشتباها وهميا زاعمين أن من يدعون لتطبيق تلك الشريعة إنما يتحدثون عن مبهمات ومطلقات لا يوجد لها تفاصيل ملموسة ويدَّعون أن علماء المسلمين لم يمتلكوا يوما تصورًا تفصيليًا متكاملاً لتطبيق الشريعة الإسلامية وتقنينها.

والعجيب أن مؤسسي مذاهبهم لم يُلزموا أنفسهم أو يلزمهم أتباعهم بوضع برامج تفصيلية لكل صغير وكبير فى شئون الدول التى حكموها منذ أول لحظة!!

حتى كبريات المذاهب والأيدلوجيات الوضعية لم تهتم إلا بالمبادىء الأساسية، ولم تعن بما وراء ذلك من التفاصيل والجزئيات

الشيوعية كمثال كان اهتمامها فى البداية منصبا على الجوانب الذي يجب

هدمها حتى يمهد الطريق لإقامة المجتمع الجديد على قواعد وأساسات عامة، أما الخطوات الجزئية، والبرامج التفصيلية، والإجرائية فلا تكاد تجد في كتابات روادها الأوائل ما يغطي شيئا من ذلك، بل إن ماركس في رسالته إلى صديقه (تيسلى) عام١٨٩٦ اعتبر أن من الرجعية رسم خطة للمستقبل، ومن هنا يقرر ندلوب ميلا أن ماركس كان بخيلا جدا في تحديد المجتمع الجديد وفى امتناعه عن اعطاء صورة واضحة عنه (راجع كتاب الأيديولوجية الانقلابية للبيطار).

وكذلك الثورة الفرنسية لم تجمع الناس إلا على ثالوثها المعروف:الحرية والإخاء والمساواة ثم جاءت التفاصيل بعد ذلك

لكن الأمر مختلف تماما بالنسبة لشريعة حكمت أمما بالفعل منذ أول لحظات تكونها ولأكثر من ثلاثة عشر قرنا من الزمان ولله الحمد والمنة.

فمن المعلوم أن المشروعات المعاصرة للقوانين المستمدة من الشرع على كافة مذاهب الفقه موجودة، وجاهزة؛ سواء تلك التى أنجزها الأزهر، ومجمع البحوث الإسلامية، أو المشروعات الأخرى التى أنجزتها وزارة العدل ومحكمة النقض، ولا تحتاج تلك المشروعات إلا إلى المناقشة، والتفعيل لمن شاء ألا يبدأ من أول السطر؛ هذا بخلاف مشروعات جامعة الدول العربية، والجامعات الإسلامية، والمجامع الفقهية فى مصر، والعالم الإسلامي.

ولعل أبرز النماذج التفصيلية المعاصرة؛ مشروع مجلس الشعب المصرى؛ برئاسة د.صوفى أبوطالب،

ذلك المشروع العملاق الذى بدأ عام ١٩٧٨ وتم الانتهاء منها خلال ما يقرب من أربعين شهرا وتحديدا فى يوليو ١٩٨٢ ليكاد يخرج إلى النور هذا العمل المشرق والذى تكون من ١٠٤٤ مادة تمثل القانون المدنى و٦٣٠ مادة مثلت قانون العقوبات و٧٧٦ مادة مثلت قانون التجارة و٥١٣ مادة مثلت قانون التقاضى و١٨٢ مادة مثلت قانون الإثبات و٤٣٣ مثلت قانون التجارة البحرية كل منها مقترن بمذكرة توضيحية لمواد كل قانون وبنوده وجميعها مستمدة من الشريعة الإسلامية بمذاهبها الأربعة وإن غلب عليها فى المجمل المذهب الحنفى،

لقد جمعت تلك التقنينات بين الدقة، والأصالة المرجعية، وبين المصطلحات القانونية المألوفة؛ تسهيلا للأخذ بها، وقد كان بعضها أساسًا لقوانين طُبقت بالفعل فى دول عربية شقيقة.

جدير بالذكر أن هذا المشروع الرائع كان أنموذجا فريدا لتضافر العمل بين علماء الشرع والقانون ولقد شارك فى صياغته الشيخ جاد الحق على شيخ الأزهر الأسبق ومفتى الديار آنذاك والدكتور عطية صقر والدكتور جمال الدين محمود أمين المجلس الأعلى للشئون الإسلامية والمستشار بمحكمة النقض والمستشار أحمد حسين هيكل رئيس محكمة النقض الأسبق والشيخ

صلاح أبو إسماعيل وعشرات غيرهم من أساتذة وعلماء الشرع والقانون.

فى فى النهاية طبعا ظل المشروع حبيس الأدراج رغم المناشدات المتكررة من شيخ الأزهر الأسبق جاد الحق بتفعيله وخطابه لبرلمان د. رفعت المحجوب والذى حمّل فيه نواب الشعب مسئولية التقاعس عن تفعيل ذلك المشروع العملى العلمى المتكامل ولقد صرح بذلك فى حواره مع أخبار اليوم ٢٢/ ٢/ ١٩٨٥. قائلا ما نصه: «إن مجلس الشعب وكيل عن الشعب وإنه إذا لم يأخذ نفسه بإصدار تلك القوانين بحيث لا يقتصر على مجرد المناقشة فى شأنها فإنه يكون قد خالف موكله وهو الشعب وإنها أمانة وإن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ولقد شارك علماء الأزهر رجال القانون والقضاء والاقتصاد فى أعمال اللجان التى شكلها مجلس الشعب برئاسة الدكتور صوفى أبو طالب وثابروا واستنهضوا الهمم حتى أتمت اللجان مهمتها التشريعية ولذلك فإن دعوى بعض المسوفين بأنه يضع دراسات أو مشروعات إنما هى دعوى لتمييع القضية والأزهر يحذر من هذه المقترحات الى تهدف إلى إضاعة ما أنفق من جهد ومال ووقت طيلة فصل تشريعى كامل لمجلس الشعب فى تطهير القوانين وإعدادها لتكون مستمدة من فقه الشريعة الإسلامية إمضاء لحكم الله وإرضاء لإيمان وعقيدة الناس التى تسن لهم وعليهم هذه القوانين»

كما أضاف رحمة الله عليه: «إن مصر مهيأة تمامًا اليوم لتطبيق الشريعة الإسلامية وإنه يكفى أن تنزل إلى الشارع المصرى لتسمع رغبة الناس فى الأخذ بها، بل إنه ترد إلى مكتبى بالأزهر العديد من الكتابات من أفراد الشعب يُلحون ويطلبون ويستعجلون ويستفسرون عن الأسباب الداعية إلى تأخير إصدار القوانين المأخوذة من الشريعة الإسلامية.. ثم تساءل قائلا: لعل مجلس الشعب يجيب على ذلك؟!»

للأسف البعض يصر على تجاهل كل ذلك، ويصورون الدعوة إلى تحكيم الشريعة على أنها مجرد كلام مطلق يخلو من البرامج التفصيلية، ويزعمون أن الأمر مشتبه، ومفتقر للتصور العملي، وتؤول بنا دوامة ادعاءاتهم إلى أن شرع الله غير قابل للتطبيق عياذا بالله، أو أن اختلاف الفقهاء فى بعض الفروع مدعاة للترك، أو للإبدال؛ وكأن التعددية فى منطقهم العجيب تعنى العدمية، ويتناسون فى خضم شبهاتهم أن ما يدعون لتطبيقه من أيديولوجيات، وبرامج مستوردة مختلف فيها أيضًا وبشكل أكثر حدة. ولنسمع لشهادة شاهد من أهلها وهو مكسيم رودنسون الكاتب الفرنسى وأحد الماركسين المعروفين يقول :«الحقيقة أن هناك ماركسيات كثيرة بالعشرات والمئات، ولقد قال ماركس أشياء كثيرة، ومن اليسير أن نجد في تراثه ما نبرر به أية فكرة إن هذا التراث كالكتاب المقدس حتى

الشيطان يستطيع أن يجد فيه نصوصا تؤيد ضلالته» (من كتاب الإسلام والعلمانية وجها لوجه للدكتور يوسف القرضاوى)

ولنتأمل كلام الاشتراكى مكسيم لورا في كتابه «رادة الاشتراكية الفرنسية» إذ يقول: لا شك فيأن هناك إشتراكيات متعددة، فإشتراكية بابون تختلف أكبر الأختلاف عن إشتراكية برودون، وإشتراكية سان سيمون وبرودون تتميزان عن إشتراكية بلانكى، وهذه كلها لا تتمشى مع أفكار لويس بلان، وكابيه، وفوربيه، وبيكور. وإنك لا تجد داخل كل فرقة أو شعبة إلا خصومات عنيفة، تحفل بالأسى والمرارة (المرجع السابق)

وكذلك ستجد خلافًا واضحًا بين الديموقراطيات، وبعضها؛ والليبرالية أيضا تتنوع رؤاها. ورغم ذلك لم يزل أصحابها يروجون لها، ولم يجعلوا علة اختلاف الرؤى، والتفاسير سببا فى الترك.

لماذا إذًا مع الشريعة فقط؛ يظل هذا الادعاء، الذى للأسف يشبه كثيرًا ادعاء بنى إسرائيل: ﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾؟!

لعل ما قاله بنو إسرائيل بعد تلك الدعوى شفع لهم، ويلغهم الاختيار الذى يصبون إليه.

فهل نسمع يوما من يقول فى تواضع: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾.

أعنى

٥١.الدولة القضا - قراطية

منذ سقط مبارك وسقط معه دستور ١٩٧١ بدأ الحديث عن التعديلات الدستورية، والاستفتاء عليها

فى نفس التوقيت تقريبًا بدأت «مكلمات» الإعلام فى ترديد مصطلح الدولة الدينية، أو التعبير الأكثر نخبوية«الدولة الثيوقراطية».

ومنذ ذلك الحين لم تكف النخب العلمانية والليبرالية عن الصياح على الشاشات والصحف محذرة من تلك الدولة، ومرهبة الناس من خطورتها، دون التفات لأصوات بُحت منذ ذلك الحين إلى يومنا هذا فى بيان أن ذلك المفهوم الذى يدندنون حوله لا علاقة له بالدولة فى المفهوم الإسلامي.

حاول الإسلاميون كثيرًا دون جدوى التبرؤ من اتهام قرر النخبويون إلباسهم إياه (بالعافية)، بل ومحاكمتهم عليه، وتكليفهم بدفع ثمنه الباهظ؛ مهما أكدوا أن دينهم وشريعتهم لا تعرف تلك الثيوقراطية المتمثلة فى تقديس الأشخاص، كنموذج ولاية الفقيه الإيراني، أو كهنوت الدول الأوروبية فى العصور الوسطى والتى بلغ تسلط رجال الدين فيها حد المتاجرة بصكوك الغفران، وبيع أراضى الجنة للناس، والتحكم المطلق فى

الملوك والحكام وغير ذلك من صور الثيوقراطية التى تجلت بوضوح فى قول الأبِ «جريجوري السابعِ» مخاطبا رجالَ الدين بكنيسته: «ألَا فليُدْرِكِ الْعالَـم أجمع أنّه إن كان بمقدورِكُم الرَّبْطُ والحلُّ في السَّماء؛ فإنَّكُم على الأرض قادرونَ على أن تُعطوا الْـمُلْكَ من تشاءُون، وتنزعُونَه مِمَّنْ تشاءُون في الإمبراطورياتِ والممالكِ بَلْ إنْ شئتُمْ: في كلِ ما يمتلكُه البشر».

أو قول الأب «جلازيوس» مخاطبا الإمبراطور «انسطاسيوس الأول» قائلا: «إِنَّ أحدًا لا يمكن أن يعلو بنفسه بأساليب بشريّة، ليقارب تلك المكانة السامية للذي خاطبَه صوت المسيح وفضلَّه على الآخرين (يعنى رجال الدين)».

(من شاء الاستزادة من تلك النقول فليرجع لكتاب الدولة والكنيسة لرأفت عبد الحميد وفيه كم كبير من تلك النقول منسوبة إلى مراجعها الأصلية والمترجمة ومن شاء الاستزادة أكثر فليرجع إلى كتاب آخر للمؤلف بعنوان «الفكر السياسى الأوروبى فى العصور الوسطى» فهو أكثر اختصارا ومنه نسخة إليكترونية)

تلك الأقوال وغيرها يتبين منها وجود قدسية وعصمة لرجال الدين تجعلهم فى منزلة أعلى من منزلة البشر العاديين، وتجعل لهم تحكمًا وسلطانًا بالحق الإلهي، وهو ما لا يُعرف أبدًا فى عقيدة أهل السنة والجماعة، حيث لا

عصمة إلا للوحى، ولا معصوم بعد المعصوم.

ردَّد عقلاء الإسلاميين طويلاً كلمة أبي بكر الصديق ﷺ: «وُليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني؛ وإن أسأت فقوموني؛ أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»

وكذلك كلمة الفاروق«الحمد لله الذي جعلني في قوم إذا مِلتُ عدلوني» (رواه بن المبارك فى الزهد والذهبى فى سير أعلام النبلاء وإسناده فيه كلام)

وقوله «أصابت امرأة وأخطأ عمر» (أخرجه أحمد والنسائي وعبد الرزاق وابن أبي شيبة وغيرهم وضعفه الشيخ الألبانى وحسنه الشيخ العدوى)

وغيرها من الشواهد التى تؤكد أن عقيدة أهل السنة لا تعرف هذا الكهنوت، والتقديس؛ وأن المُقَدَس فقط هو الشرع المُنَزَل مِن عند القدوس المنزه.

لكن بلا فائدة فالحكم قد صدر وسبق السيف العذل

استمر الاتهام بالتقديس، والرمى بالثيوقراطية.

حتى حدثت المحكات الشهيرة مع القضاء المصري

هنا تحول جُل المناهضين للثيوقراطية، والمنادين بعدم تقديس الأشخاص إلى مقدسين للقضاء ورجاله!!

صاروا من حيث لا يشعرون ثيوقضائيين أو قضاقراطيين أيا كان الاشتقاق الذى ترتاح إليه.

تناثرت تصريحات من هنا وهناك تنضح بالتقديس والغلو من بعض القضاة ومن بعض من يفترض أنهم ثوار كانوا يوما يطالبون بأقسى العقوبات على قتلة الثوار أو بإقالة أذناب نظام مبارك داخل كل مؤسسات الدولة ومن ضمنها القضاء.

فجأة ولاعتبرات معروفة وتحزبات مقيتة تم تناسى كل ذلك وصار القضاة خط أحمر لا يجوز الاقتراب منه ولا تعقيب عليه وسبحان من لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه.

من قال أن محاسبة القاضي وتطهير منظومته بالأساليب التى يتفق عليها والتى تمنع حدوث انتهاك وتغول السلطات على بعضها لا يتنافى مع الاحترام العام لتلك المؤسسة؟!

إن الفارق كبير جدًا بين احترام القاضي وبين إنزاله فوق منزلته، أو تقديسه وتنزيه أحكامه واعتبارها عنوان الحقيقة المطلقة كما يفعل البعض ويكأن القضاة منزهون عن الزلل، أو معصومون من الخطأ؛ وهذا أمر فى

غاية الخطورة.

القضاة أولاً وأخيرًا بشر يحكمُون بقانون وضعه بشر، يصيبهم الزلل، ويعتريهم النقص والخلل.

بل حتى لو أنهم حكموا بالشرع كما نتمنى وليس بالقانون الوضعى الحالى، فهم ليسوا حينئذ أيضا مقدسين، ولا معصومين؛ بل من بين كل ثلاثة منهم قاض فى الجنة، وقاضيان فى السعير كما ثبت عن البشير النذير.

بل إن رسولَ الله ﷺ نفسه كان فى مقام القضاء بين الناس ينبه أنه يقضى ببشريته كما صح عنه قوله: «إنكُم تَختَصِمونَ إليَّ، ولعلَّ بعْضَكُم ألحَنُ بِحُجَّتِهِ من بعضٍ، فمن قضَيتُ له بحَقِّ أخيهِ شيئًا بقوله، فإنما أقْطَعُ له قِطْعَةً من النارِ، فلا يأخُذها» (رواه البخاري).

و ها هو نبى الله داوود عليه السلام يخر راكعا تائبا بعد قضاء قضاه خشى أن يكون قد فتن فيه

قال تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ﴾

هذا حال نبى وليس رجل عادى ومع ذلك كما قال جمهور المفسرين لما تبين أنه قد استمع إلى أحد الخصمين تواضع وخر راكعا وأناب خشية الافتتان.

لم يقل حكمى عنوان الحقيقة ولا معقب له

إنما تواضع وخر واستغفر

القضاء يا سادة هو مجرد آلية لتحقيق العدل وهو محض وسيلة بينما العدل نفسه مقصد وغاية، وكم من قاضٍ لا يقيم العدل فى ذاته قبل غيره فلا يتورع عن توظيف ولده بالواسطة كما قد يكون وُظف هو نفسه من قبل، بل ربما لا يحترم حتى قانون المرور فى سيارته داكنة الزجاج مجهرية الأرقام، ومثل هذه النماذج يفترض أن يطهر منها القضاء لا أن تفتعل لها قداسة وهمية!

ليس بيننا وبين القضاة الشرفاء مشكلة فلا داعى لافتعالها بإلباسهم ثوب القدسية، والغلو فيهم بهذه الطريقة الفجة التى تحمل من ورائها أهدافًا سياسية، ومقاصد أيديولوجية واضحة جلية.

ارفعوا أيديكم عن القضاة، ولا تكونوا عونًا للشيطان عليهم بإنزالهم منزلة فوق منزلتهم؛ فترسخوا بذلك لدولة ثيوقراطية من نوع جديد كهنتها المعصومون هم القضاة المقدسون!

دولة قضا - قراطية داخل الدولة،

بل فوق الدولة

٥٢.عودوا من حيث أتيتم

- عودوا من حيث أتيتم

قالها متأففًا وهو يحدق في لحيتي بامتعاض.

قلت: ومن أين أتينا؟!

هل ترانا قد تسللنا من دولة أخرى؟! أم هبطنا عليكم من الفضاء؟!

قال متجهما: عودوا إلى مساجدكم!

فى دهشة قلت: أوليست مساجدكم كذلك؟! ومن قال إننا قد تركناها لنعود إليها؟! ألا فليعد إليها من تركوها وهجروها.

قال متسائلاً: مالكم أنتم وأمور الدنيا؟! أنتم أهل دين، فدعوا الدنيا لأهلها، لماذا تدخلون الدين في كل شيء؟!

قلت: ديننا الذى نعرفه ولا نعرف غيره صلاة، ونُسك، ومحيا، وممات، وجهاد، ودعوة، وعلم، وعمل، وعقيدة، وسلوك، وحُكم، ودولة، وإصلاح ما استطعنا. أما قاعدة الفصل«دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله»؛ التي هي مرجع شبهتكم، ومنتهي رغبتكم، فلسنا نعرفها في ملتنا، فهلا دللتمونا على مكانها، وموضع الاستدلال بها؟

قال بسرعة: ألم يقل النبي «أنتم أعلم بشئون دنياكم»؟

قلت: بلى لكن هلا ذكرت الحديث بتمامه مشكورًا،

لقد قال النبي ذلك في معرض الكلام عن نصيحة نصحهم بها من منطلق الظن البشري، ووضح ذلك في أول الحديث حين رأى قوما يلقحون النخل فقال: «مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شَيْئًا».

ثم ظهر أكثر فى توضيحه بعد ذلك:«إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ فَإِنِّى إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا فَلاَ تُؤَاخِذُونِى بِالظَّنِّ وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللهِ شَيْئًا فَخُذُوا بِهِ فَإِنِّى لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ». وزاد فى رواية حماد بن سلمة «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»

وها هنا تفريق واضح بين مقام التشريع الذي لا مجال فيه للظن، وبين رأى قاله النبي بمقتضى بشريته، فالحديث ليس فيه نهي أو أمر أو سنة أو ندب، وقد قال منذ البداية «ما أظن» ولم يقطع. ثم أكد على هذا البيان مرة أخرى حين بلغه قلة الثمر لتوقفهم عن التلقيح، فقال: «فإني إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن»، ولو سُحِب الكلام على كل قول، أو أمر، أو نهي لأبطل الدين، ولما بقي تشريع، ولا أُحل حلال أو حُرم حرام، فهل هذا ما تريدونه؟!

قال بعصبية: ومن أنتم لتتحدثوا باسم الدين، وتُحلوا وتحرموا كيفما شئتم؟!

قلت: ومن قال إننا نتحدث باسم الدين أو نشرع بدلا من الله؟! ومن يجرؤ أن يقول ذلك؟!

إن علمت أحدًا يزعم هذا الزعم، فدلني عليه لأوبخه وأبرأ من فعله فورا، فديننا ليس دين كهنوت، ولا أحد يوحَى إليه من الله بعد الأنبياء.

إنما نحن قوم نؤمن أن إجابة السؤال الرباني ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ هي: لا أحد. فنعتقد أن الخير كله في شرعه المنزه، وحكمه المنزل؛ وهذان موجودان بين أيدينا وأيديكم في كتابه وسنة رسوله الصحيحة، حلالها بيّن وحرامها كذلك، ففرِّق بين بلاغ ما هو موجود أصلاً والدعوة لتطبيقه والمنافحة عن ذلك، وبين إحداث شرع جديد وادعاء حق ليس لبشر.

قال: ولكنكم شوهتم صورة الدين، أم أذكرك بفضيحة فلان وفلان؟

قلت: يا عزيزي كل نفس بما كسبت رهينة،

ألم تسمع يا أخي قول ربك ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾؟!

وهل من الإنصاف أن تعمم السيئة، ويعاقب المرء بذنوب اقترفها غيره!

ثم قل لي بربك هل علمت تيارًا سُلط عليه الضوء بهذه الطريقة الرهيبة، وضخمت أخطاء أتباعه لهذه الدرجة؟!

وهل تظن أنه لو حدث ذلك مع التيارات الأخرى ستكون النتائج مختلفة؟

هلا دللتني على أولئك المعصومين بيننا ممن لا يزلون، ولا يذنبون؟

قال: وماذا عن الاختيارات الخاطئة، والمواقف السياسية غير الموفقة بعد الثورة وقبلها؟

قلت: لقد سبق وأعلمتك أنه لا عصمة بعد الأنبياء، والاجتهاد في الخيار السياسي نسبي، وأنا أُسلِّم بحدوث أخطاء، وأرى أن بعضها فادح، لكن فرق بين عصمة المنهج وبشرية التطبيق، والحل ليس الإقصاء، وإنما الإصلاح والنصح، أما المنطق الذي يطرد المخطئ لمجرد رأيه أنه أخطأ فهو منطق ديكتاتوري إقصائي معيب، أربأ بفطنتك عنه.

قال: ولماذا لا تنزهون الدين عن دنس الدنيا، وتعودون إلى منابركم ودعوتكم التي قصرتم فيها؟

قلت: لا أُسلِّم لك بهذا التقصير الذي تُعمِّمُه، وإن سلمت به جدلاً فهل يقابل التقصير بتقصير؟!

لقد أوضحت لك أننا نعتقد أن ديننا شامل لكل ميادين الحياة، فهل نقصِّر في ميدان لنصلح في آخر؟! أم نسدد ونقارب كما أمر ديننا؟

سكت قليلا ثم نظر إليّ متأففا وقال: عودوا من حيث أتيتم.

قلت من جديد: ومن أين أتينا؟!

٥٣. حبظلم !!

فيها.. لأخفيها

بصوته الأجش الذى لا يناسب حداثة سنه صاح حبظلم بتلك العبارة ذات الوقع المألوف على الآذان.

وقع نذكره منذ أيام الصبا حين كنا نفاجأ بمثل هذا الغلام المتنمر - حبظلم - يقف في منتصف الملعب قاطعًا الطريق على باقي الصبية، مانعًا إياهم عن متابعة اللعب، رافعًا صوته بهذا المبدأ الأناني السافر:

«فيها... لأخفيها»

يا حبظلم يهديك... يرضيك،

لا فائدة.

لقد قرر حبظلم أن يلعب، ويفرض نفسه بصوته العالي، وربما بذراعه إذا لزم الأمر.

إنه نوع من الصبية لا يأبه أن يكون مظهره بما يفعل مُشيناً، كما لا يُعنى كثيرًا أن تكون كرامته بذلك مهدرة أو

مراقة بطريقة لا تزيد من حوله إلا ازدراءً له وربما شفقة على حاله.

ليس مهمًا أن تتردى مبادئه، أو تنحدر أخلاقياته، فحبظلم -غالبًا- لم يسمع في البيئة التي ترعرع فيها عن تلكم المصطلحات الغامضة:

مبادئ،

أخلاق،

قيم، تجرد،

تقديم للمصلحة العامة...

ما هذا الكلام الغريب؟!

المهم فقط والذي يأبه له مثلُه أن ينفذ رغباته وأن يشبع شهواته وأن يرضي نزقه، وهو الآن يشتهي اللعب،

الآن

وليس بعد قليل، فليتوقف العالم إذًا،

المهم أن يلعب، وليكن بعد ذلك ما يكون!

لكن المباراة قد بدأت بالفعل وقد حُدِدَت الفرق.

أفلا تنتظر حتى تنتهي؟!

أفلا تتمهل حتى يُعاد تقسيم الفرق؟!

هلّا جلست ترقب المباراة الحالية، أو تتجهز للمباراة القادمة، ربما يكون لك فيها مكان؟!

ألا تذكر رفضك لأن تكون حارسًا للمرمى حين عُرض عليك ذلك؟!

هل يعقل أن يهدم كل شيء ويبدأ اللعب من جديد لمجرد أنك فقط عجول ولا تحتمل الانتظار ؟؟

للأسف... لا فائدة

مهما حاولتم إقناعه، أو تهدئته، ومخاطبة عقله؛ فإنه لا يستجيب

فِكر أناني، وعقلية لا تقبل التفاهم، ولا يحركها منطق، أو يؤثر فيها حوار

فقط شيء واحد يقودها ويوجه دَفتها:

المصلحة!

ومصلحته التي تبدو له الآن: أن يلعب.

إذًا سيلعب يعني سيلعب!!

والمبدأ واضح وقد أعلنه صاحبنا مرارًا وتكرارًا

«فيها.. لاخفيها»

فأنى يُستهدى بمنطق؟

وأنى يُجدِي حوار؟

العجيب أن هذا النوع من الصبية تجدهم منعدمي الروح الرياضية، غير متقبلين للهزيمة، وربما كان هذا هو السبب الذي أدى لعدم رغبة باقي

الصبية مشاركته اللعب؛ إنهم يعرفون أنه لا يرضى لنفسه ما يرضاه لهم الآن، والعجيب أنه يعترف بذلك دون مسحة حياء أو خجل.

كيف لا ؟؟

إنه حبظلم !

لذلك فالصبية يدركون أنه لا يعي أن اللعب مكسب وخسارة، وأن المباريات سجال، يوم لك، ويوم عليك وأنه متى مُني بخسارة، أو حدث تبديل للفرق فإنه بمصطلحاتهم الصبيانية اللطيفة «يحمرَق»، ولا يعترف أنه قد خسر، أو أنه قد آن أوان التأخر قليلا ريثما يلعب غيره.

يعرف أقرانه ذلك جيدًا ؛ لذا يأبون مشاركته اللعب بهذه الطريقة، وينفرون من أسلوبه المتدني، وهو يصر كل يوم على إثبات صحة رأيهم فيه.

أما لو تجمع الفتية ورفضوا أن يدخلوه اللعبة بهذا الأسلوب؛ فإنه يُرغي، ويزبد، ولا يلبث إلا ويأتي بباقي رفاقه المتنمرين الذين يتناسون فورًا كل ما بينهم وبينه من خلافات، وربما شجارات وعداءات، ويسارعون للتكالب على الصبية الذين دخلوا الملعب بالأساليب الطبيعية.

وبرغم غرابة اجتماع المتنمرين مع التنافر الواضح بين طباعهم، فإن تلك الغرابة تزول حينما تتذكر على ماذا اجتمعوا وما المساحة المشتركة التي التقوا فيها.

لقد التقوا واجتمعوا على مواجهة الفتية الذين يشغلون الملعب، تلك المواجهة التي ربما تتطور في نهاية الأمر إلى معركة تؤول - عادة - إلى توقف اللعب، وضياع اليوم في النزال، وقد نفذ حبظلم وعدَه الأول:

«فيها.. لاخفيها»

ولو أن الفتى حبظلم سلك الطريق الطبيعي للعب، فصبر حتى قضيت المباراة الأولى، ثم جاء بفريقه يطلب النزال في مباراة جديدة تنتهي بمكسب أو خسارة؛ لكان ذلك بلا شك أولى وأكثر احتراما.

لكنه في النهاية........... حبظلم !!



٥٤.بين تفريغ شحنات وغضب للحرمات

لا شك أن خليطًا من مشاعر الغضب والغيرة، بل التقزز، هو ما يسارع إلى قلب وعقل أى مسلم طبيعى حين تُهان مقدساته، ويُستهزأ بدينه، ويُسب قدوته وإمامه بهذه الطريقة الحقيرة التى يُصر البعض على استفزاز المسلمين بها من حين إلى آخر.

ولا شك أيضًا أن هذا يُعد امتهانًا غير مقبول فى كل الأعراف والشرائع التى يدين البشر بها، ويتعارفون عليها. بل تجد أحيانًا بعض الأفكار والأحداث التاريخية يُعد مجرد الحديث حول ثبوتها خطًا أحمر لدى مجموعات بشرية تنافح بكل ضراوة إذا ما تم تجاوزه، وحال النفوذ الصهيونى المتغلغل فى مفاصل المنظومة العالمية يعد مثالاً واضحًا لسياسة الخطوط الحمراء، خاصة إذا تم الاقتراب من مَبكى «الهولوكوست» أو لاحت فى الأفق تلك المعاداة المعلبة للسامية.

ورغم أن الهولوكوست ليست ديانة، ولا رمزية مقدسة لها، ورغم أن معاداة طائفة غاصبة للحقوق، منتهكة للحرمات ليست تهمة فى أى منطق مستقيم، إلا أننا نجد تلك المنظومة العالمية ترضخ لتلك المعايير الصهيونية،

وتضع ألف حساب للغضب اليهودى حال تجاوز تلك الخطوط الحمراء. إذن فقضية الغضب لمثل هذه النوعية من الانتهاكات والاعتداءات يُعد أمرًا معتبرًا، ومعترفا به، خصوصًا إذا صدر عن صاحب قوة وتأثير. المشكلة إذن ليست فى الغضب كشعور طبيعى، بل صحى فى بعض الأحيان، المشكلة فى تفعيل ذلك الشعور النابع عن الحب والتعظيم، واستثماره فى شكل طاقة إيجابية خلاقة، وليس مجرد تفريغ شحنات لحظية تُرضى المرء أمام نفسه، وتجعله ينام قرير العين، وفى اعتقاده أنه قد أدى ما عليه ورد على تلك الإهانات الموجهة للعالم الإسلامى. نعم للعالم الإسلامى. تلكم هى للأسف الحقيقة المُرة، الإهانة وإن كانت تبدو فى الظاهر موجهة لشخص النبى ﷺ، إلا أنها فى الواقع ليست كذلك. النبى قالها يوم أن سبه المشركون، وبيّـن أنهم إنما يدعون «مذممًا»، وهو محمد صلوات ربى وسلامه عليه. بل قالها مولاه جل وعلا من قبله، وذلك فى مُحكمة من مُحكمات القرآن يحفظها الجميع: «إنا كفيناك المستهزئين».

وفى الموقف الأخير أيضًا نجد أن من ظهر بتلك الصورة المبتذلة والمقززة إنما هو رجل سفيه تافه لا علاقة له من قريب أو بعيد بالصادق الأمين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

ما حدث فى تقديرى إنما هو إهانة وُجهت من حفنة من الموتورين لأمة

لم تكن عنوانًا مشرفًا لمنهج سيد المرسلين، أُمة عجزت أن يكون لها حد أدنى من المهابة والعزة والقدرة على التصعيد المُؤثر يُشبه أو حتى يُدانى ما لدى نائحى الهولوكوست. الواقع أنه إن لم يحدث مثل هذا التحرك الحاسم والمؤثر فلا أتوقع أن تتوقف تلك المهازل قريبا، هذا على الصعيد الخارجى.

أما التوظيف الأكثر إيجابية لتلك المشاعر الطبيعية بل الضرورية على الصعيد الداخلى فلا أجد أفضل ولا أكمل من التوجيه القرآنى المُحكم الذى خُتمت به سورة الفرقان، تلك السورة التى تكرر فيها كثيرًا لفظ «وقالوا» وذكر الله فيها بيانًا مفصلاً لشُبهات واستهزاء المشركين بحبيبه، فتجد التوجيه العجيب فى السورة والذى لم يسبق ذكره بين دفتى المصحف، توجيه للجهاد بالقرآن ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ ثم تختم السورة العظيمة بالتوجيه لصناعة النموذج القرآنى البديع، النموذج المتكامل الراقى الذى يُلجم رونقه، ونضارة وحيوية أخلاقه، وفكره، ومعاملاته، وعباداته، ألسن الخراصين، وابتذال المغرضين، نموذج عباد الرحمن، نموذج المجتمع المسلم المترابط الذى يُعنى بمعالى الأمور، ويترفع عن سفسافها قائلا للجاهلين سلامًا، هذا النموذج المتكامل الذى يجمع بين إخبات العباد ونقاء الزهاد، وبين اعتدال الناجحين وقصد المقسطين الذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كرامًا.

إلى غير ذلك مما ذُكر من الأخلاق العظيمة، والصفات الجليلة لهذا المجتمع الراقى بخصاله النموذجية، وبمعاملاته، وعباداته وعدله، وإقساطه. وهذا هو أبلغ رد على من ينتقصون مِن مُعلم هذه الأمة، أن نُثبت للدنيا أننا قد تعلمنا، وأن نكون عنوانًا وضيئًا لخاتمة الرسالات.

أما والحال على ما هو عليه الآن، والجفوة القائمة بين مجتمعاتنا وبين تلك التعاليم والأسس التى يقوم عليها هذا النموذج، فللأسف تكون الأمة قد شاركت من حيث لا تدرى فى تلك الإهانة لدينها وهى تصر أن تكون أسوأ عنوان لرسالة نبيها.



٥٥. من الإمام؟!

إن في النفس البشرية ميلا دائما للثناء وحبا خفيا للمناقب والشرف الألقاب وفي الحديث الصحيح: «ما ذئبانِ ضاريانِ في حظيرةٍ يأكلان ويُفسِدان بأضرَّ فيها من حُبِّ الشَّرفِ وحبِّ المالِ في دِين المرءِ المسلمِ» صحيح الترغيب

لذلك تسعى بعض النفوس سعيا حثيثا لإثبات وجود تلك المناقب والمحامد المثاني حتى لو بأحساب ومناصب وموروثات بينما الأصل المنطقي أن ليس الفتى من قال هذا أبي ولكن الفتى من قال ها أنا ذا ويوافقه الأصل الشرعي كما في الحديث: «أربعٌ في أمّتي من أمرِ الجاهليةِ، لا يتركوهنَّ -منها- الفخرُ في الأحسابِ»

والأصل أن المبالغة في التزكية والتوسع في التفاخر والتباهي بالألقاب والمناصب هي أمور مذمومة شرعا؛ «إن الله لا يحب كل مختال فخور» وكما في قوله ﷺ «وأما الخيلاء التي يُبْغِضُ اللهُ - تعالى -: فاختِيَالُه في الفَخْرِ».

لكن حتى لو افترضنا وجود مناقب للمرء يتحدث بها غيره ويثنى بها عليه فإن تلك ليست مسألة موروثة أو مهداة والمنطق يقول أنها مكتسبة بجهد الإنسان ومواقفه ونتاجه وثمراته التي وفقه الله إليها وليست بمجاملة

أو منصب أو كرسي بل الأصل أن المرء هو من يضفي على كرسيه الوجاهة والشرف وذلك إن أخذه بحقه واستعمله فيما يرضي الله جل وعلا وبذلك يكون المنصب حجة له لا عليه.

والمعلوم والمتيقن أيضا أنه ليس في الإسلام كهنوت ولا قداسة لشخص أو لمؤسسة بعينها وترسيخ نفي ذلك واجب شرعي، وبيان أنه ليس هناك عهد أو كتاب ينزل من السماء ليعين إنسانا بأنه الأعظم أو الأكبر أو الأشرف هو أصل من أصول الشرع الحنيف.

ربما كان ذلك التنزيه وتلك القداسة مفهوما بين أتباع المذاهب والأديان الكهنوتية التي يظن معتنقوها أن كبيرهم أتى باختيار سماوي بقرعة مقدسة أو عهد إلهي موروث أو تكليف من إمام غائب في سردابه

أما المسلمون من أهل السنة فلا يعرفون ذلك فالأئمة عندهم باستحقاقهم وتقديمهم إنما يكون بكسبهم وبنتاجهم وبتلاميذهم وبثمرتهم وبتزكية العلماء الثقات لعلمهم ولإمامتهم وذلك كله بتوفيق من الله لهم استحقوه بصبرهم ويقينهم وعبادتهم ودعائهم

وكما ورد عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾

وهم عباد الرحمن الذين تخلقوا بصفاتهم ودعوا ربهم «والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما»

وهم مع ذلك يُحسَبون كذلك ولا يُزكى على الله أحدٌ وذلك معنى بدهي ومنطقي ومعتقد إسلامي هام يظهر في العديد من الآيات والأحاديث الصحيحة، لعل أوضحها وأحكمها قوله تعالى «فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى»،

إنها مُسَلَّمة شرعية تقضي بأن الله وحده يعلم مصير الإنسان ومآله وحقيقة تقواه ودينه: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

ولقد لخص النبي ﷺ ذلك المعنى في جملة قالها يوم موت صاحبه عثمان بن مظعون ﷺ، حين جاء البعض يزكونه، ويجزمون له بالجنة، فقال: «والله ما أدري -وأنا رسولُ الله- ما يُفعَلُ بي ولا بِكم».

ورغم ما له ﷺ من المبشرات والمنزلة عند ربه، إلا أنه على ما يبدو أراد إطلاق القاعدة وتعميمها على نفسه لترسيخ وبيان ترك الأمر كله لله وإثبات تمام الافتقار والتسليم المطلق في أمر المصير إليه حتى مصيره هو نفسه.

ولما جاء الصحابة يزكون رجلا مات أثناء الجهاد، إذا بالنبي ﷺ يفاجئهم بأن الأمر ليس كما يتصورون، وأن الرجل إنما اتكأ على سيفه وقتل نفسه.

وغير ذلك من الآيات والأحاديث التي يمكننا من خلالها تبين تلك الحقيقة، التي من المفترض كما قلت وكما بدا من المثل أنها بديهية ومنطقية.

العجيب أن الصحابة أنفسهم كانوا يخشون على أنفسهم النفاق، ولا يأمن أحدهم على نفسه لهذه الدرجة!

بل وحتى الأنبياء عليهم السلام كانوا يحرصون على دعاء ربهم بالثبات واجتناب عبادة الأصنام، وما دعاء إبراهيم ويوسف عليهما السلام بالشيء الذي يغيب عن الأذهان، لقد دعا الأول ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام، بينما طلب الثاني الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين، كما تضرع نبينا ﷺ لمقلب القلوب كي يثبته على دينه.

فمن أين يأتي البعض بكل هذه التزكيات والتنزيهات والتقديسات لأحياء لا تؤمن عليهم الفتنة أو الزيغ؟

للأسف الشديد بعض المصرين قد نسوا أو تناسوا تلك الحقيقة الشرعية والمنطقية، وظهر نسيانهم هذا من خلال لسان حالهم ومقالهم الذي ينم أنه قد تسربت إلى أولئك دون أن يشعروا خصلة من خصال قوم قالوا يوما: «نحن أبناء الله وأحباؤه».

صحيح أنهم لم يقولوها بتلك الفجاجة والاستعلاء، لكنهم أكدوا معناها من خلال إصرار بعضهم على إنزال جنسهم أو أشخاص وطوائف

عندهم فوق منازلهم وإضفاء هالة من التقديس والتنزيه على مناصب ومؤسسات بعينها، وكأنما اتخذوا عند الله عهدا، فيه ذلكم الجزم المزعوم أنهم بمنأى عن الفتن وبمعزل عن الزلل والنقد والرفض لشيء من خياراتهم ومواقفهم إلى يوم الدين!

من أوضح الأمثلة على ما أقول هي تلك الهالة من القداسة والتنزيه التي يصر البعض على إضفائها على المؤسسة الأزهرية جنبا إلى جنب مع ذلك الإصرار على وصف من يُعين في وظيفة أو منصب شيخ الأزهر بالإمام الأكبر أو الأعظم أو إمام المسلمين وتحصين تلك الألقاب والمناصب بحصون تكاد تكون كهنوتية لدرجة تجعله حاملها فوق النقد أو الاختلاف أو رفض المواقف والخيارات.

لا أريد أن أنفق سطور مقالي هذا على تحليل لحالة بعينها أو شخص محدد شغل أو يشغل أو سيشغل هذه الوظيفة أو يُعين في ذلك المنصب لكن ما أريد أن أناقشه هنا هو المبدأ نفسه بشيء من التحرر والتجرد والإطلاق:

هل مجرد الانتساب لمؤسسة أو التعيين في منصب ما فيها سبب كافٍ لإضفاء تلك الهالة والرفع لتلك المنزلة؟!

لكي نستطيع الوصول لإجابة متجردة على هذا السؤال لابد لنا من تساؤلات تمهيدية

لابد أن نعلم أولا ما هو الأزهر ومن هو شيخه وكيف يصل إلى تلك المكانة وذلك الكرسي؟!

الأزهر هو الجامع المعروف والمؤسسة الدينية العلمية الإسلامية العالمية الأشهر في العالم والجامعة التعليمية المعروفة والمنارة العلمية المحترمة التي أخرجت أجيالا من العلماء والدعاة جابوا الدنيا دعوة وإصلاحا وتنويرا

لا يسع منصفا يقرأ تاريخ تلك المؤسسة بعد عودتها لأحضان أهل السنة والجماعة بسقوط الدولة الرافضية الفاطمية في منتصف القرن الهجري السادس أن ينكر ذلك التاريخ المشرف وتلك العلامات العلمية البارزة في تاريخ الأمة الإسلامية ودعوة الحق الربانية التي سطعت من منابر هذا الكيان العلمي المحترم

لكنه كمكان للمدارسة ومؤسسة للدعوة ونشر العلم ليس له في ذاته فضل ثابت أو تزكية إلهية خاصة

نعم قد تنطبق عليه مطلقات الشرع الحنيف من تزكية للعلم النافع وثناء على حملته ومبلغيه ونحسب أنه كذلك.

لكن هل هناك مكانة خاصة في نصوص الشرع لهذا الجامع تحديدا أو تلك الجامعة بعينها؟

الجواب: لا

إذ كيف ستكون التزكية الشرعية الخاصة عقلا إذا كانت تلك المؤسسة أصلا حادثة ولم تعرف إلا بعد عهد الوحي ووفاة مبلغه ﷺ بمئات الأعوام؟!

المسألة إذاً تزكية مطلقة لمنارات العلم وأماكن طلبه التي تضع الملائكة أجنحتها لسالك سبيلها وطالب رحيقها.

أكرر هي تزكية مطلقة وليست خاصة، وقيمة ذلك كما استفتحت في مبدأ الاستحقاق نفسه وكيف أنه مكتسب وليس شرفيا موروثا خاصة لو نظرنا لتاريخ تلك المؤسسة تحديدا وكيف أنها كانت حين أسست محلا لنشر التشيع حيث أنشئت في عهد الدولة الفاطمية الشيعية لهذا الغرض، فهل ينطبق عليها حينذاك ما ينطبق على مستحقي تلك النصوص المطلقة المزكية للعلم النافع وأهله؟!

أعتقد أنني لست بحاجة للإجابة فهي واضحة معلومة لكل متجرد لم ترهبه الألقاب ولم تخفه التابوهات ذات القداسة الوهمية.

وما ينطبق على الأزهر من تزكيات مطلقة لأماكن وسبل العلم وحامليه ينطبق على جامع وجامعة الزيتونة بتونس وعلى الجامعة الإسلامية بالحجاز وعلى كل مؤسسة بشرية حادثة عنيت بنشر العلم النافع وتبليغه للناس.

ومطلقات التزكية الشرعية للعلم وأهله دون قصر أو جزم إنما تصح طالما صحت المؤسسة وقامت بحق تلك التزكيات المطلقة.

نأتي بعد ذلك لشيخ الأزهر وهو المنصب الذي استحدث في أواخر القرن الهجري الحادي عشر في عهد الدولة العثمانية (أي بعد ما يقرب من سبعة قرون من إنشاء الجامع الإزهر) وقد كان النظام المتبع قبل ذلك أن ينتخب من بين كبار العلماء (ناظر) يشرف على شؤونه منذ إنشائه إلى عهد الحكم العثماني حيث استحدث منصب شيخ الجامع الأزهر ليتولى رئاسة علمائه، ويشرف على شئونه الإدارية، ويحافظ على الأمن والنظام بالأزهر.

وشيخ الأزهر اليوم هو ذلك الشيخ الذي يُعين على رأس تلك المؤسسة، وكلمة (يُعين) هي أيضا كلمة حادثة بالنسبة للأزهر إذ لم تعرف إلا بعد انقلاب الضباط الأحرار أو ما يشتهر بين الناس بـ «ثورة يوليو» وتولي عبد الناصر لزمام الأمور وهو الذي قرر أن يمسك بتلابيب كل مؤسسات الدولة بما فيها ذلك المكان العلمي الدعوي الذي كان يتم اختيار إمامه وكبيره من خلال كبار علمائه ومشايخه بغض النظر عن جنسيتهم أو لونهم أو عرقهم أو رأيهم السياسي.

ورجل قومي عتيد كعبد الناصر لم يكن ليسكت على هذا، فكيف يرضى بأن يتولي أكبر كرسي ديني في البلاد رجل مغربي الأصل كالشيخ

حسن العطار رحمه الله أو رجل جزائري الأصل تونسي المولد تعلم وتخرج من جامع الزيتونة لا من الأزهر كمحمد الخضر حسين رحمه الله

ذلك الجبل الأشم الذي طالما صدع بالحق في وجه السلاطين وأصحاب الجاه.

وهو صاحب القول المأثور «إن الأزهر أمانة في عنقي أسلمها حين أسلمها موفورة كاملة، وإذا لم يتأتّ أن يحصل للأزهر مزيد الازدهار على يدي، فلا أقل من ألا يحصل له نقص».

وقد استقال هذا الشيخ الجليل -محمد الخضر حسين- من الأزهر عندما قام عبد الناصر بضم القضاء الشرعي إلى القضاء الأهلي أو المدني وقد جهر الشيخ بوجوب حدوث العكس.

وكيف لا يجهر بذلك وهو صاحب النقض الشهير لذلك الكتاب الخبيث للمدعو علي عبد الرازق والمسمى «الإسلام وأصول الحكم» وكتاب «نقض كتاب في الشعر الجاهلي» الذي كان باعتراف طه حسين من أهم الردود عليه وأشدها حجة.

ولما جاء وفد من عبد الناصر يساومه على تلك الاستقالة فأجابه قائلاً: «قل للرئيس يكفيني من دنياكم كسرة خبز وكوب لبن،، وعلى الدنيا بعدها العفاء وقد ضمنها الله لي، وهذه استقالتي تحت تصرفكم».

بعد ذلك الموقف بفترة قرر ناصر أن يوقف تلك العملية الانتخابية الاختيارية بالأزهر وجعل المنصب الخطير بالتعيين

ومِن مَن ؟!

من رئيس الدولة.

تخيل يا مؤمن!!

ضابط جيش أو حتى رجل مدني محدود العلم خاصة الشرعي يقرر من يعتلي كرسي الإفتاء ومن يتصدر تلك الجامعة العلمية العريقة وذلك المنبر الدعوي الجليل!!

بأي حق وفي أي شرع وتحت أي منطق؟!

المعروف أن شيوخ ما قبل يوليو ٥٢ كانوا يتمتعون بالاستقلال والحرية التي كانت تورثهم قوة وعزة أمام الملوك والسلاطين حيث لم يكونوا تابعين لا لحكومة ولا لحكام وكانوا يتقاضون رواتبهم من ريع الأوقاف الإسلامية التي يشرف عليها الأزهر نفسه لا من خزينة الدولة أو الحكومة.

وقد ظل منصب شيخ الأزهر محاطا بالهيبة والوقار، ولا يستطيع أحد من الولاة عزل صاحبه، حتي أقدم الخديوي إسماعيل علي عزل الشيخ مصطفي العروسي رحمه الله وهو الشيخ العشرين في سلسلة مشايخ الجامع الأزهر في سابقة هي الأولي من نوعها في تاريخ الجامع الأزهر، وقد شجعه

ذلك علي تكرار مثل هذا العمل وهو الأمر الذي عرض المنصب للاهتزاز حتي تولاه خمسة في عهده بحيث لم يبق فيه أحدهم أكثر من ثلاث سنوات.

ومع الجهود المبذولة لتطوير الجامع الأزهر وإصلاحه ظهرت جماعة كبار العلماء في عام (١٢٣٩هـ ـ ١٩١١م) في عهد المشيخة الثانية للشيخ سليم البشري رحمه الله، وتكونت من ثلاثين عالم من صفوة علماء الأزهر واشترط في دخولهم هذه الهيئة ألا تقل أعمارهم عن ٤٥ سنة، وأن يكون قد مضي على العضو وهو مدرس بالجامع الأزهر عشر سنوات علي الأقل من بينها أربع سنوات في القسم العالي، وأن يكون معروفا بالورع والتقوي

وقد نص قانون الأزهر أن يكون اختيار شيخ الجامع الأزهر من بين جماعة «هيئة كبار العلماء» وكان ذلك يضمن ما يجب أن يكون عليه شيخ الأزهر من العلم والمعرفة والسمعة وحُسن الخلق. باستثناء حالة واحدة عيّنها الملك فاروق عام ١٩٤٥ ولم يكن حينئذ عضوا في جماعة كبار العلماء وهو الشيخ مصطفي عبدالرازق رحمه الله.

أما بعد انقلاب يوليو ٥٢ وفي ظل القانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١ فقد أصبح شيخ الأزهر موظفا كبيراً في الدولة بدرجة رئيس وزراء وقد جعل هذا القانون شيخ الازهر هو الإمام الأكبر وصاحب الرأي في كل ما يتصل بالشئون الدينيه وفي كل ما يتعلق بالقرآن وعلوم الاسلام علي ان يتم تعيين

شيخ الأزهر بقرار جمهوري من بين أعضاء مجمع البحوث الإسلامية وهم هيئة كبار العلماء في القانون القديم - ٢٦ لسنة ١٩٣٦ - والذين كان ينتخب من بينهم شيخ الأزهر. ولكن ألغيت الهيئة في القانون الحالي - ١٠٣ لسنة ١٩٦١ - وحل محلها مجمع البحوث الإسلامية (والذي يأتي أعضاؤه أيضا بالتعيين) وكذلك رئيس جامعة الأزهر وعمداء الكليات الأزهرية، بل وشيوخ المعاهد الأزهرية وهذا عكس سيطرة الدولة التدريجية علي الأزهر والذي أصبح شيوخه من الامام الأكبر وحتي شيخ المعهد موظفين حكوميين وانتفت عن بعضهم الاستقلالية الدينية المطلوبة.

ومع ذلك ظلت هالة القداسة والتعظيم وظل الإصرار على وصفه بالإمام الأكبر والأعظم وإلزام الناس بنتائج تلك الألقاب ولوازمها!!

لا أنكر أن هذا التعيين الجمهوري لم يمنع بشكل مطلق أن يعتلي سدة الأزهر رجال محترمون لم تمنعهم هيبة حاكم أو سوط طاغوت من أن يصدعوا بكلمة الحق في وجهه وأن يعرفوا للمنصب حقه وانطبق على بعضهم ما قاله الشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله في رسالته (الحرية في الإسلام):

«ولا نجهل أن القرون السالفة تمخَّضت فولدت رجالاً تمتلئ أفئدتهم غيرة على الحق والعدالة، فصغرت في أعينهم أبهة الملك، وازدروا بما يكتنفها

من أدوات الاستبداد، فجاهروا بالنصيحة المُرَّة».

لكنني أصر هنا على إجلاء وتوضيح فكرة عدم لزوم التزكية في حالة التعيين ويبقى أن الأصل هو الكسب والجهد والثمرة بعد فضل الله جل وعلا وتوفيقه.

إن المنصب إذا أردناه حاكماً أو قاضياً في الأمور المختلف فيها وأردنا له أن يبقى بوقاره وهيبته واستقلاله وقوته فيجب أن ينزه عن الانتماء السياسي والولاءات الحزبية وهو ما لم يحدث في حالات متعددة ومعروفة.

لذلك كان لابد في تقديري من وضع الأمور في نصابها، وبيان أنه على الرغم من الاحترام الكامل والتقدير المطلوب والاعتراف بالفضل لأهل الفضل ومستحقيه إلا أنه في ظل هذا الهوس الإعلامي بالتقديس وتلك الشعوبية والعنصرية المقيتة التي تتعالى نبرتها ينبغي أن نُذَكِّر أنه لا الأزهر شعب الله المختار ولا مؤسسته كهنوتية معصومة تتلقى وحيا إلهيا أو تزكية ربانية خاصة، ولا شيخه أو إمامه اليوم يأتي نظرا لسبقه العلمي أو ثمراته الدعوية ونتاجه التصنيفي أو مواقفه البطولية بل أحيانا ما كان يعتلي سدته من يعلم هو نفسه أن من بين رجالاته من هم أعلم وأكثر جهدا وثمارا

وربما من الأمثلة الواضحة على ذلك وجود قامة علمية كفضيلة الشيخ الشعرواي رحمه الله تعالى حيا يرزق في مصر بينما كان هناك آخرون يتولون

مشيخة الأزهر فهل كانوا -مع كامل الاحترام لهم - هم الأعلم والأعظم ثمرة من الشيخ طيب الله ثراه ؟!

هذا طبعا بخلاف من ليسوا من رجالات الأزهر ومع ذلك علِموا وعلَّموا غيرهم ولم ينقطع الخير عنهم رغم أنهم ليسوا أزاهرة.

إن العلم والتعليم والدعوة إلى الخير ليسوا حكرا على مؤسسة بعينها وليست لطائفة دون أخرى أو لعرق دون غيره، وخير دليل على ذلك أن ما يدرسه الأزهر من مذاهب الأقدمين وتصانيف الأولين منها الكثير والكثير لرجال لم يكونوا أزاهرة ولا مصريين وقد ولدوا وماتوا دون أن يسمعوا عن الأزهر ولا عن مشيخته.

دعونا إذاً من ذلك الإصرار على تلك الشعوبية المقيتة والعصبية العنصرية ولنفكر بعقولنا جنبا إلى جنب مع تدبر نصوص شرعنا ولنسأل بعد تلك المحاولة للحراك الذهني الحر:

هل الإمامة العظمى أو الكبرى ألقاب ومناصب تعطى أم أنها حياة ومواقف وثمرات ونتائج وقبل كل ذلك فضل واصطفاء يوفق الله له من يشاء

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾

٥٦. الحل السحري

إنه ذلك الحل الذي ينتظره الجميع، وتلك الإجابة التي يظنون أنك قادر على أن تسقيهم إياها برشفة واحدة يسيرة،

جُلهم ينتظر المنقذ والمخلص الذي يمتلك الحل ويعرف إجابة كل تلك الأسئلة الصعبة التي تحيط بنا.

نعم هي أسئلة صعبة،

لا بد أولًا أن نعترف بذلك

فتلك هي بداية المشكلة حيث يضطر البعض لإنكار تلك الصعوبة، نظرًا للضغوط التي تمارس عليهم لإجبارهم على إيجاد الحل السحري السريع، ومن ثم يبحثون عن الوهم المعسول الذي يُغرقون فيه أتباعهم ومحبيهم بالتدريج، من خلال مخدرات فكرية وواقعية تمارس عليهم باستمرار، حتى تبدو الحلول التي يطرحها المفكر أو المنظر أو القيادي وجيهة ومنطقية في مواجهة تلك الأسئلة التي سهلتها تلك المخدرات والأوهام الفكرية.

لذلك لابد ابتداء من التخلص من تلك المخدرات الفكرية، التي

يحرص البعض على بثها في عقول مريديهم، مصورين الأمور كلها سهلة وبسيطة، ومهونين من شأن المرحلة الحرجة التي نمر بها، وموهمين أتباعهم ومصدقيهم أن النصر أقرب إليهم من شراك نعالهم

لا بد من الإقلاع عن تعاطي تلك المخدرات الفكرية، والنظر إلى الواقع جيدًا، لا لنيأس أو لنحبط ونقعد باكين على اللبن المسكوب، فتلك ليست خيارات أصلًا؛ بل لنحسن العمل والتأثير في إطار المتاح والممكن والواجب، ولتتكامل الرؤى بغية الوصول لأقرب الحلول من خلال التفكير الجمعي ذي الوحدات المتواضعة المتعاونة، وليس من خلال المنقذ الأوحد الذي يمتلك كل الحلول والإجابات.

علينا أولًا التحرر من تلك الأطروحات الوهمية لنستطيع أن نُقَيِّم الواقع تقييمًا سليمًا، وأن ندرك ببساطة أنه لا حلول سحرية، وأنه ثمة فارق ليس بيسير بين التحليل والتوصيف من جهة، وبين إيجاد الحلول الناجعة والسبل النافعة التي تمكن المرء من حل تلك المعضلات المحيطة من جهة أخرى.

البعض للأسف تذوب لديهم هذه الفوارق

فإما أن يهونوا التوصيف لكي تسهل الأمور ويجدوا حلولا سحرية مخدرة لا علاقة لها بحل المعضلات الحالية التي لا يعترفون أصلًا أنها

معضلات كما بينت في السطور السابقة، وإما أن يختاروا الاستسلام كحل واليأس كخيار، وذلك حين يعترفون أن الواقع صعب وأن الحياة صارت قاسية والخلاص صار مستحيلًا.

وأحيانا يكون الإحساس باليأس خيارًا مريحًا،

خصوصًا اليأس من التغيير وفقد الأمل في الإصلاح، وقد يلجأ البعض إلى هذا الخيار دون شعور منهم، وربما دون تصريح؛ لكن لسان حالهم وربما بعض مقالهم يصرخ بتلك المحصلة التي وصل إليها سعد باشا قبلهم حين قال: «ما فيش فايدة».

ولو أن المرء استطاع أن يميز بين التحليل والتوصيف من جهة، وبين إيجاد الحلول من جهة أخرى، وأن يفرق أيضًا بين إيجاد الحلول المؤثرة والمغيرة، وبين القيام بواجب الوقت حتى لو لم يكن فيه الحل الجامع والعاجل =لاستقرت نفسه ولاستطاع أن يجد له مكانًا سديدًا في ذلك الواقع القاسي.

حين يجيد المرء التوصيف ليفاجأ بقسوة الوضع الراهن قد لا يجد حلًّا عاجلًا يستطيع أن يجزم من خلاله بالإجابة الصحيحة، التي من خلالها تفك طلاسم تلك المعضلات الآنية والمعادلات الصفرية؛ لكن ما ينبغي عليه هو أن يعلم ويتذكر أنه على الرغم من تلك الصعوبات والمعضلات فإنه لم يزل

مكلفًا بواجب مهم: واجب الإعذار إلى الله.

والإعذار لا يشترط فيه أن يكون حلًّا آنيًا أو عاجلًا، والصدع بالحق على مدار التاريخ لم يكن دائمًا سبيلًا موصلًا لنهاية دنيوية سعيدة لمن قام به.

بل بمقاييس الدنيا كان الصدع بالحق والقيام بواجب الإعذار إلى الله في أحيان كثيرة طريقًا للاستضعاف والاضطهاد، وربما القتل بأبشع الوسائل من قِبَل من صُدع في وجوههم، وما كان صَلب السحرة وتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وما كان قتل حبيب النجار مؤمن آل ياسين وغيره من الصادعين على يد قومهم، إلا نماذج خالدة توضح أن النجاة الدنيوية ليست شرطًا

ولو أن أصحاب الرسالة قد التفتوا لتثبيط المثبطين، وتخذيل المعوِّقين الذين لم يفرقوا بين التوصيف وبين التكليف، لما صنعوا شيئًا أمام معضلات واقعهم القاسية، ولكان مآل حالهم القعود واليأس، ولما اؤتمر بمعروف ولما نُهي عن منكر، ولما صُدع بحق أو أُبطل باطل.

لكن صاحب الرسالة يمضي في طريقه ولا يلتفت، ولا يُسلم أذنيه لأهل التثبيط والكسل واليأس والإحباط، وهو حين يمضي يضع نصب عينيه أمرين أساسين: أولهما: الإعذار إلى ربه والسعي لإرضائه. وثانيهما: الأمل في التغيير من خلال المتاح والممكن، ذلك الأمل الذي لا ينقطع وإن

انقطعت الأسباب.

يظهر ذلك جليًّا في رد الناهين عن السوء في قصة أصحاب السبت، حين جاء المثبطون والمحبطون ليعوِّقوهم وليكسروا عزائمهم، زعمًا منهم أنه لا فائدة ترجى من صنيعهم، فكان الرد حاسمًا ساطعًا براقًا: ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]

فإن لم يستطع المرء برؤيته العاجلة وتحليله للحالة المعاصرة ظاهرًا أن يجد أثرًا لما يفعل في تغيير الواقع، فليس هذا معناه أن التكليف قد سقط عنه ذلك، لأن الله لم يتعبده بالنجاح والثمرة، ولكنه تعبده بغرس الفسيلة وإن لم ير نتاجها، وكفى بالمرء شرفًا أنه حاول وغرس واستفتح وأعذر إلى ربه. إنها تلك القيمة التي لخصها النبي ﷺ في الحديث المشهور: «إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها».

حتى في ذلك الظرف الرهيب الذي تيقن فيه أنه لن يأكل منها فإنه مُكلف بالغرس، مُكلف بالنفع المتعدي طالما كان ذلك بيده.

ربما كان الأمر على سبيل المبالغة في الحث على غرس الخير؛ فإن زلزلة الساعة شيء عظيم، تذهل فيها المرضعة عما أرضعت، ومن باب أولى يذهل حامل الفسيلة عن غرسها؛ لكن المعنى واضح والقيمة ظاهرة، معنى غرس الفسيلة بغض النظر عن إدراك ثمرتها وصنع الخير دون انتظار نتائجه

العاجلة، وقيمة تجاوز الآمال الضيقة والعاجلة والأعمار المحدودة، ومخالفة طبيعة التمحور حول الذات، والتفكير أحيانًا في أن هناك شيئًا يقال له العطاء، ولا يدري المرء لعل الله يسوق له ثمرة ذلك العمل من حيث لا يحتسب.

المهم أن يقوم العمل ويقع النفع، المهم أن تُغرس الفسيلة، وأن يحاول ويبذل ولا يتوقف ولا يتثاقل طويلًا في انتظار الحلول السحرية، ولا يستسلم للحسابات المادية التي لا ينكر أحد ممن تلقوا علمًا شرعيًا أن في دين الله اعتبارًا لها، ولتقدير المصالح والمفاسد وللمآلات المتوقعة والنتائج المفترضة؛ لكن ما يُنكر هو المبالغة في ذلك، وتكلفه بشكل يؤدي إلى تحول الدين إلى تنازل مستمر أو استسلام على طول الخط.

ولو أن كل تضحية أقدم عليها إنسان وكل موقف شرف وعزة وقفه أهل الإسلام سبقته كل تلك الحسابات المادية المعقدة، والمعادلات المتكلفة، والمخاوف المزعومة، والمرجوات والمطامع المتوهمة، والشروط التعجيزية، والرؤى الانبطاحية -لما صدع بالحق صادع، ولما ثبت على مبادئه ثابت، ولما أمر بمعروف آمر، ولا نهى عن منكر ناهٍ، ولاختفت من تاريخ المسلمين كل مواطن العزة والإباء، ولاندثرت في نفوسهم معاني التضحية والفداء، ولصار على مر العصور أقصى أمانيهم ومنتهى أحلامهم أن يرحمهم

عدوهم، وأن يُبقي على حياتهم ظالمهم.

لكن الله سلم

وقيض للحق أناسًا، يبذلون في سبيله كل غالٍ ونفيس، ويقفون لنصرته في كل موطن شريف، حتى لو أنفقوا في سبيل ذلك أموالهم، ويذلوا أنفسهم التي كانوا قد أيقنوا من قبل ذلك أنها ثمن رخيص لسلعة غالية، وأن البيع رابح فالله هو من اشترى،

ليس هذا معناه إهمال الأسباب، أو التقصير في البحث عن التأثير والإثمار، ورفض نصح الناصحين، وعدم اعتبار حرص الحريصين على الأفضل؛ لكنه فقط وضع للنقاط على الحروف، ونبذ للتخذيل والتثبيط وأهله.

إنه نبذ لعبادة الثمرات والنتائج، وتعلق القلب الدائم بالأسباب السهلة والحلول السحرية، والذي قد يورث يأسًا وإحباطًا واستسلامًا وقعودًا في انتظار معجزة خارقة؛ مما يؤدي إلى توقف جهد التغيير، نظرًا لاستبطاء النتائج والتقصير في الواجب العيني بسبب استصعاب التغيير العام،

إنما يُلقي الصادقون عِصِيَّهم، ويصدعون بما يدينون به لله به، وهذا ما يجب ابتداءً، وبعده أو معه تكون محاولة البحث عن حلول حقيقية تحرك هذا الوضع التقليدي الكئيب وتزحزحه إلى الأفضل،

ويدون حلول سحرية.

٥٧.التعايش بالحق ومع الحق

منذ فترة كتب الدكتور عمرو خالد على صفحته الرسمية سطرا بغير تقييد، عاما بغير تخصيص عن تلك القضية التي أحترم أصلها والتي يركز عليها الدكتور عمرو في الفترة الأخيرة ويعدها رسالة حياته وفحوى برامجه منذ سنوات

والفكرة في حد ذاتها مهمة ومقبولة ولطالما كتبنا عنها ودعونا إليها ولي كتيب إلكتروني عن فكرة التسامح والتعايش بين المسلمين وبين غيرهم نشرته منذ ثلاثة أعوام تقريبا بعنوان «هذا ديننا» بيد أن الجملة الأخيرة التي عرَّف بها الدكتور عمرو التعايش كانت صادمة للغاية ومنافية لنصوص صريحة في الكتاب والسنة ومناقضة للمنطق الإنساني البسيط مما استدعى شيئا من النصح والتنبيه لعل الدكتور يعود ويضبط عبارته فيقيد مطلقها ويخصص عامَّها ويوضح مقصدها كي لا يلتبس المعنى ويحمل على ظاهره الصادم

نص جملة د. عمرو هو: «التعايش هو أن تتنازل عن جزء مما تؤمن أنه الحق من وجهة نظرك كي يتعايش الناس دون إراقة دماء»

اختيار الألفاظ في تلك العبارة كان -في رأيي- غير موفق للأسف خصوصا في لفظين

اللفظ الأول هو «تؤمن» واللفظ الآخر هو «الحق»

والحقيقة أن ثمة فارق كبير بين التنازل عن بعض مقتضيات أو تطبيقات ما يؤمن به الإنسان وبين أن يتنازل عما يؤمن به ويعتقده

ولدينا نماذج نبوية واضحة ينجلي من خلالها الفارق بين الأمرين

منها مثلا بناء الكعبة على قواعد إبراهيم عليه السلام حيث أكد النبي ﷺ أن هناك ما هو أولى وأحق فقال: «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية حديثو عهد بإسلام لهدمت الكعبة ولأقمتها على قواعد إبراهيم وجعلت لها بابين»

ولكن النبي ﷺ لم يفعل ذلك لظروف حداثة العهد بالجاهلية الأمر الي قد يؤدي إلى حدوث فتنة لا تحمد عقباها

إلا أن تركه حينذاك كان للتطبيق نفسه ولم يكن تركا للبيان أو المعتقد والفارق كبير وظني بالدكتور عمرو أنه يعرف الفارق فهل خانه اللفظ أم ماذا ؟

العجيب أن هذا اللفظ تحديدا ورد في مقام ذم بني إسرائيل في قول الله «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض»

فالإيمان أمر ينعقد في القلب حتى إذا ما انعقد لم يجز للإنسان التنازل ولو عن قليل منه

«ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا»

الكلمة الثانية التي لم يكن الدكتور موفقا فيها هي كلمة «الحق» وعدم التوفيق هنا يكمن أساسا في ألف ولام الاستغراق حيث أدى وجودهما في أول الكلمة إلى اشتمالها على جنس الحق نفسه

ربما كان يقبل الكلام لو قيدت الكلمة مثلا بحق المرء نفسه أو طائفته كأن يقول: أن تتنازل أو تعفو عن جزء من حقك أو تتنازل عن أمر اجتهادي أو رأي سياسي وهذا جائز بل مندوب في أحيان أن يعفو الإنسان ويصفح عن حقه الشخصي

لكن حق غيره أو مطلق الحق الذي يعتقده فليس ملكا له أصلا ليتنازل عنه

والدكتور عمرو نفسه كان يُعَرِّف الحق ويدعو إليه يوما ما بشكل مختلف تماما

أتذكر قوله في إحدى حلقات برنامجه «باسمك نحيا» يقول فيها نصا: ((الحق.. كلمة حروفها قليلة جداً، ولكنها تزن السماء والأرض، وعليها قامت السموات والأرض قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾

كل شئ في كونه قائم بالحق، وقد أنزلنا الأرض وقال لنا عيشوا بالحق، وأكملوا في هذا الكون الصغير المسمى بالأرض بالحق)).

ويعرِّف الحق في نفس الحلقة قائلا: ((الحق نقيض لكلمة الباطل، ويضدها تعرف الأشياء، وهو ماتيقنت منه يقيناً دامغاً تاماً فثبت في يقينك ١٠٠٪ أنه موجود وأنه ثابت وأنه حقيقة...وبالتالي فإنه لابد أن يكون من أسماءه الحسنى (الحق) لأنه هو أول الحقائق، وأعظم الحقائق هي وجود الله تعالى، لأن أمره حق، ونهيه حق، وفعله حق. انظر إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّۗ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ ...﴾ [يونس:٣٥]، بمعنى إذا كان هو الحق، وقوله حق، ويهدي إلى الحق فكيف تبحث على الحق عند غيره؟!)) انتهى كلامه...

وهكذا يتبين من تعريف الدكتور عمرو القديم لهذه القيمة أن مثل هذا الحق لا يمكن التنازل عنه أو الحيدة عن صراطه حتى وإن كان الثمن حياته نفسها وفي الحديث الصحيح أن سيد الشهداء رجل قام إلى إمام جائر يصدع بكلمة الحق فقتله

ويغلب على الظن أن الجائر الظالم سيقتل من يصدع بكلمة الحق في وجهه لكن أن يموت الإنسان على ذلك الحق فياله من شرف..

وقد صرح الدكتور في ذات الحلقة قائلا: ((هدفنا أن نحيا بالحق،

ونقول الحق، ولانكتم الحق، ونموت على الحق))

تأمل قوله: ((ونموت على الحق))!!

ويقول في خاتمة تلك الحلقة القديمة: ((نتفق على ماقد أخبرتكم به في أول الحلقة وهو أن تحبوا الحق، وتعيشوا بالحق، وتقولوا الحق، ولاتكتموا الحق، وتموتوا على الحق، احيوا باسمك ياحق نحيا، أحبوا الحق من كل قلوبكم، لأن الحق هو الله، وأرجوكم يا من تعيشوا في هذه الأرض لا تفسدوا فيها، ويا من تعيشوا على الحق فإنكم منتصرين منتصرين لامحالة، قال تعالى: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾)

كلام رائع لا أملك إلا أن أنقله كما هو دون زيادة أو نقصان وعليه تدور النصوص الشرعية وكذلك الأفكار المنطقية

لكن كما قلت قد يحدث اضطرار ما في بعض المراحل والأحداث فلا يستطيع المرء أن يطبق كل مقتضيات ما يدين لله أنه الحق ومن ثم يتنازل عن شيء من التطبيق ويبقى الحق ماثلا في صدره يجهر به كلما أمكن ولا يكون مما يكتمونه

ومثل هذا التنازل عن بعض التطبيق يسمى اضطرارا وليس تعايشا كما قال الدكتور عمرو

ولقد صنف الدكتور عمرو في حلقته الناس تبعا لموقفهم من الحق

فقال: ((للناس أشكال شتى مع الحق، فمنهم من يكتمه، ومنهم من يخشى على نفسه أن يقوله، ومنهم من يلبسه على الباطل، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾، ومنهم من لايعرف أين الحق وأين الباطل، ومنهم من يعلم الحق وهو على باطل ويصر على الباطل)).. انتهى كلامه

ترى تحت أي تلك الأصناف يندرج الذين يتنازلون عن جزء من الحق كما في جملته الصادمة والمثيرة للجدل؟!!

قد يرى البعض أن الدكتور عمرو قيد الحق بقوله: من وجهة نظرك

والحقيقة أن هذا ليس تقييدا فكل صاحب اعتقاد يؤمن بشيء معين يعتبر ذلك الحق من وجهة نظره هو وهذا أمر بدهي وإلا لماذا اختار أن يعتقده ويدين به؟؟

والتعايش لا يعني أبدا أن يتنازل المرء عما يؤمن به ولكن أن يتمكن من الوصول لصيغة تعينه على الحياة مع من يخالفه بغير اعتداء أو انتقاص لحقهم أيضا

التعايش أو التسامح لا يؤثر على معتقد الإنسان ولكنه يظهر على معاملته وقدرته على التفاهم والتواصل مع أصحاب الأفكار والمعتقدات المخالفة

والتمسك بالحق لا يعني أبدا تعجيل الأجل أو إراقة الدم ففي الحديث عن رسول الله ﷺ «لا يمنعنَّ رجلًا هيبةُ الناسِ أن يقولَ بحقٍّ إذا رآه أو شهِدَه فإنه لا يقرِّبُ من أجلٍ ولا يباعِدُ من رزقٍ أو يقولَ بحقٍّ أو يُذكِّرَ بعظيمٍ»

أما الحق المطلق فلا ينبغي أن يضيع أو يُتنازل عنه وأسترجع هنا جملة جميلة قالها د.عمرو قديما بعد أن تلى قول الله: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾

ثم قال: ((إذا ضاع الحق ضاعت الأرض))



٥٨.حالة إنكار

عند الأحداث المفصلية الهائلة والمؤلمة تبرز إلى السطح حالة من الإنكار اللاإرادي تجعل الإنسان يستطيع التكيف مع بقايا وازع أو ضمير يقبع في أعماق نفسه قد يرفض تلك الأحداث

هذه الحالة من الإنكار تدفع بالإنسان إلى طريق من اختلاق الأوهام أو قبول الحجج والمبررات الواهية التي تنسج في خياله واقعا بديلا يستطيع التعايش معه

لو لم يفعل الإنسان ذلك لحدثت مواجهة عنيفة بين نفسه وبين واقعه الحقيقي قد تؤدي إلى صدمة تؤثر على طريقة تقبله لفكرة الحياة نفسها

لذلك يعد هذا الإنكار المبدئي من وسائل الدفاع النفسية التي تؤهل المرء تدريجيا لتقبل واقعه الجديد

كان لابد من تلك المقدمة لأستطيع أن أقرب إلى ذهنك عزيزي القارىء تفسير تلك الحالة من الاستسهال العام لكل ما يحدث من كوارث أو أحداث مؤسفة

نعم هي حالة إنكار جماعية واضحة

بها يرتاح الضمير -إن وُجد- ويطمئن البال لفكرة السلة الواحدة ولا تؤرقه مدى فداحة الجرائم التي رآها

هذا إن كان قد رآها أصلا

فإن قلت وما ذنب الأبرياء؟

ولماذا يعمم العقاب؟

ولماذا لا يطبق فقط على من ثبت أنه ارتكب جريمة أو حرض على جريمة؟

لو قلت هذا أو بعضه لصُدِّرت التهمة في وجهك فورا ولصرت أنت أيضا مدافعا عن الإرهاب

بل ربما صرت أنت نفسك في تلك اللحظة بنظرهم إرهابيا مكتمل الأركان

فالتهمة جاهزة والمقصلة الفكرية منصوبة وليس أمامك إلا أن تسير في ركب التهليل والتصفيق لكل ما يحدث وإن كان لديك بقايا ضمير يتأذى بالخلل أو يأنف من الظلم فحينئذ ليس لديك إلا الحل الأول

الإنكار...

الإنكار وليس حتى الاستنكار

وقائمة المسكنات والمهدئات الضميرية جاهزة أمامك فاختر منها ما شئت

فأمامك مسكن التعميم الشامل واستدعاء مشاهد التجاوزات والتصريحات المتطرفة من البعض لتبرر بها انتهاك الكل ممن يشبهونهم في الخيار السياسي أو حتى في المظهر

أو إن شئت فتناول مهدىء المؤامرة الكونية وأقنع نفسك بأن هؤلاء يقتلون أنفسهم وأبناءهم بأيديهم وأن أولئك يمزقون أبناءهم

وإن أردت يمكنك الاستعانة بالأدوية التاريخية التي تستدعي مواقف سابقة لخصمك تراه قد (استندل) فيها معك لتبرر بها نذالتك معه وتنسيك أن الواصل ليس بالمكافىء وأن الحق ومواقفه تقوم بذاتها وليست تقوم كرد فعل لمواقف أخرى أو كأجر في مقابلها وتنسيك أيضا أن كثيرا ممن ينتهكون اليوم لم يرتضوا بالأمس تلك المواقف السابقة لأشباههم وكانوا إلى جوارك فيها

يمكنك أيضا الاستعانة ببرشام التكفير وحقن التخوين والتفسيق لتستطيع التكيف مع دماء خصوم تراهم كفارا خونة أعداء للوطن

أما إن كان وخز ضميرك مؤلما فعليك بمخدر نزع الإنسانية عن خصومك ومخالفيك واعتبارهم قطيعا من (الخرفان) لا يحرك فيك شيئا أن يتم ذبحه وسلخه أو حتى حرقه حيا

كل تلك الأدوية والمسكنات ستساعد على تثبيت حالة الإنكار لدى

جميع الأطراف وستعينهم على غض الطرف عن أي دماء تراق بل وربما الفرح بها والرضا عنها وتنسي الجميع هذا الحديث الجامع الذي أهديه لكل نفسية نعامية تصر على دفن رأس ضميرها في الرمال

قال رسول الله ﷺ: «إذا عُمِلتِ الخطيئةُ في الأرضِ؛ كان من شهِدَها فكرِهَها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها (فرضيَها) كان كمن شهِدَها» رواه أبو داوود

❋ ❋ ❋

٥٩.هل أتاك حديث الإرهاب

- إيه اللي بتقول ده يا إرهابي؟!

جملة قيلت لي في مثل هذه الأيام العام الماضي حيث حدث لي موقف أجده يلح على ذهني بشدة رغم مرور سنة كاملة عليه

كان ذلك ليلة عيد الفطر الماضي وقد خرجت من معتكفي بعد انقطاع وعزلة عن أخبار الدنيا وأحوال الناس

فتحت موقع التواصل تويتر لأطالع أحوال الدنيا وجديد الآراء والأحداث

فوجئت تلك الليلة بموضوع يتناوله كثير من الشباب بشيء من السخرية والمزاح ويدور حول تمييز تلك الليلة -ليلة العيد- بتعاطي الحشيش وكيف أنه على حد قولهم: مصر (تحشش) في تلك الليلة المهم

مررت سريعا على التغريدات لأصطدم بتغريدة هزتني كتبتها ناشطة شهيرة على هذا الموقع وبدأ تداولها بعد أن جعلت منها وسماً أو (هاشتاج) كما بمصطلحات شبكات التواصل

الجملة نصا كانت «حشش الله مساءكم»

كانت الجملة صادمة للغاية ولم أكن قد تعودت - ولا زلت لم أتعود - على ذلك الاجتراء على المقام الإلهي الذي يحلو لبعض النشطاء التباهي به

المهم وحتى لا أطيل عليك عزيزي القارىء لم أكن وحدي من صدمت بل وجدت نقاشا حادا يدور حول تلك الجملة التي اعتبرتها الناشطة نوعا من المزاح وخاض ذلك النقاش الطويل معها عديد من رواد الموقع ومشاهيره كان من ضمنهم المهندس فاضل سليمان الذي ناله بعد هنيهة نفس ما نالني حين أدليت بدلوي بتغريدة كتبت فيها ناصحا إياها ومذكرا بما ينبغي من التعظيم عند ذكر مقام الله جل وعلا وكيف أن فعل (التحشيش) منقصة تعالى الله عنها وعن مثلها علوا كبيرا

أعتقد أن هذا بديهي...

بس يا سيدي عينك ما تشوف إلا النور

في لحظات كان الرد الصاعق من الناشطة المصونة: إيه اللي بتقول ده يا إرهابي يا متخلف وإيه شكلك المرعب ده (بلوك) يا إرهابي

و(البلوك) لمن لا يعلم هو الحظر أو المنع من الحوار والنقاش مع صاحب الحساب

وهكذا وبكل بساطة انتهى الحوار قبل أن يبدأ وصُدِّرت التهمة التي

كانت أهم حيثياتها أن شكلي مرعب وأن نصحي خالف الهوى لذا فأنا بلا شك (إرهابي)

يومئذ سألت نفسي:

لماذا؟

لماذا أنا إرهابي؟!

ما هي الحيثيات التي صدر على أساسها هذا الحكم؟

«كيف تسمحون للإرهابيين بالكتابة؟!»

كان هذا السؤال الاستنكاري نموذجا لما تم توجيهه لي من إهانات وانتقاص تعليقا على مقال سابق بإحدى الصحف التي أكتب فيها بشكل دوري ثابت وكنت قد تناولت فيه وانتقدت ما رأيته تناقضا في مواقف أحد السياسيين المشهورين قبل وبعد المنصب

والمرء دوما يتوقع عاصفة من الهجوم والإهانة والسباب حين يقترب من أحد (التابوهات) المقدسة لفئة من الناس أو يكتب رأيا مخالفا لما عليه كثير من الأقلام المتصدرة وكل ذلك صار المرء يتجاوزه ويحتسبه عند الله وكما قال ابن حزم رحمه الله: من تصدر للعمل العام فليتصدق بعرضه على الناس

لكن ما لفت نظري هذه المرة هو تكرار الرمي بالإرهاب بكل بساطة

وهدوء أعصاب والمدهش أنني لم أجد أيضا أي حيثيات لتلك الصفة يمكن فهمها من المقال اللهم إلا رأيي المخالف ولحيتى التي تبدو فى الصورة المرفقة بالمقال في الجريدة الورقية وموقعها الإلكتروني

تذكرت موقف الناشطة مع مع تساؤل المعلقة الكريمة عن سبب السماح للإرهابيين أمثالي بالكتابة في هذه الصحيفة التي أكتب فيها بانتظام لأعوام إلى جوار غيرها من التعليقات والرسائل الكثيفة التي اتفقت جميعا بين عشية وضحاها أن العبد الفقير إرهابي بل وبلغ الأمر ببعضها التوعد بقطع اللسان الذي ينطق بأي رأي أو تقييم أو توصيف مخالف لما يراه البعض يحدث في مصر

وكالعادة لم أجد للسؤال إجابة

لماذا إرهابي ؟

حاولت جاهدا أن أعتصر ذهني لأتذكر ترويع الآمنين الذي اقترفته

بذلت جهدي لأسترجع المذابح التي قمت بها والدماء المعصومة التي تخضبت بها يداي بعد أن أرقتها أو حرضت يوما على إراقتها

أنفقت وقتا أبحث في طيات ذاكرتي عن حيثيات الإرهاب المذموم الذي جناه قلمي أو لساني أو يدي

لكن للأسف بلا فائدة

إما أنني فقدت الذاكرة وإما أن هؤلاء الناشطين والناشطات والمعلقين والمعلقات والحاكمين على الناس والحاكمات يعرفون عني ما لا أعرفه عن نفسي!!

«أنت حاجة تانية يا دكتور»

أكاد ألمح هذا الرد من البعض

من أولئك الذين يعرفونني جيدا

من أقاربي وأصدقائي وأحبابي ممن ارتضوا أن يعمموا الحكم على غيري بالإرهاب بلا حيثيات أدلة في زمان صارت فيه الاتهامات والتصنيفات ولعا لدى البعض وصار رمي الناس أهون الأشياء

ثم تكرموا واستثنوني!!

فقط لأنهم يعرفونني أو يحبونني

وهكذا تجده تمرينا مشهورا متكررا

دول إرهابيين

طب صاحبك فلان أو أخوك علان أو ابن خالتك ترتان ؟

لا لا لا

ده حاجة تانية غيرهم طبعا

لكن الباقي إرهابيين إنت بس اللي مش واخد بالك

و هكذا وكالعادة الجديدة في بلادي يذوب المنطق وتتراجع الحكمة ويكاد يختفي العقل

ولأن مجرد الدفاع يعني قبول الوقوف موقف المتهم فأنا لن أنفق أسطر مقالي في دفع ذلك الوصف ولا تعنيني كثيرا محاولة إقناع من قرر أن يظلم ويطلق أحكامه المسبقة على غيره

ما يعنيني في الأمر هو خطورة ذلك الطرح الذي أحذر منه منذ أسابيع. والذي لا يقل خطورة عن الطرح المناقض الذي يرمي المخالف بتعميم فسق أو كفر والذي طالما حذرت منه أيضا طوال العام الماضي

إن المداومة على استعمال تلك التصنيفات الصادمة وخصوصا ذلك المصطلح الخطير الذي احتارت مراكز بحثية عالمية في تعريفه تعريفا دقيقا متفقا عليه هو أمر في غاية الخطورة قامت على إثره حروب طاحنة لم تزل شعوب بأكملها تسدد فاتورتها

لقد أدى اختلاف الدول في نظرتها إلى الإرهاب من حيث مفهومه ومعناه إلى صعوبة اتفاقها على المستوى الدولي بشأن التعامل مع هذا المصطلح وأبعاده.

وقد جسدت بعض الأدبيات ذلك الخلاف في تلك العبارة المختصرة التي تقول: «إن الإرهابي في نظر البعض هو محارب من أجل الحرية في نظر الآخرين».

وأدى ذلك إلى فشل أغلب الجهود الدولية في الوصول إلى تحديد دقيق لحقيقة الإرهاب، مما حال دون الاتفاق على درجة من التعاون الدولي لمواجهته، لدرجة أن المؤتمر الدولي الذي عقد في عام ١٩٧٣م لبحث الإرهاب والجريمة السياسية قد انتهى إلى أن عدم وجود مفهوم واضح للأسباب التي تؤدي إلى ممارسة النشاطات التي تنشئ حالة الإرهاب هو العقبة التي تحول دون اقتلاع الإرهاب واجتثاث جذوره على حد قولهم

ويختلف الوصف الذي يطلقه رجال الإعلام على أعضاء المنظمات الإرهابية باختلاف الموقف السياسي الذي يتخذونه تجاهها، ومن ثم استخدمت أوصاف مختلفة عند الإشارة إليهم، فهم إما إرهابيون أو مخربون أو عصاة أو منشقون أو مجرمون متمردون، وإما جنود تحرير أو محاربون من أجل الحرية أو مناضلون أو رجال حركة شعبية أو ثورية وأحيانًا يوصفون بأنهم خصوم أو معارضون للحكم وتوصف عملياتهم في نظر بعض الكتاب بأنها عمليات إرهابية أو أفعال إجرامية دنيئة وغادرة، وفي نظر بعضهم الآخر تعد عمليات فدائية أو عمليات مقاومة أو تحرير وتعد حركات مقاومة الاحتلال نموذجا واضحا لتلك الإزدواجية الدولية في التوصيف وصلت مؤخرا للأسف إلى بلادنا وصار البعض ممن ينتمي لأوطاننا يكتب صراحة واصفا إياها بلفظ «سرطان المقاومة» !!

فاليوم يتصدر هذا المصطلح المشهد وتلقى التهمة فورا كمبرر يريح به المرء ضميره عند رؤية دماء مخالفيه أو مشاهدة قمعهم وتكميم أفواههم فهم مجرد إرهابيين مجرمون يستحقون كل ما يحدث لهم

فإذا تساءلت عن حيثيات هذا الحكم الخطير الذي يبرر القتل كانت الإجابات تدور حول ما ذكرته مرارا من تعميم للخاص وإطلاق للمقيد ومن تربص بكل تصريح أو زلة أو حتى جريمة ليتم تعميمها على كل من يشبه مرتكبها

فإن تساءلت عن ذنب الأبرياء ورفضت تعميم العقاب وطالبت بتطبيق القانون فقط على من ثبت أنه ارتكب جريمة صُدِّرت التهمة في وجهك من جديد وصرت أنت أيضا مدافعا عن الإرهاب بل ربما صرت إرهابيا مكتمل الأركان ولم تعد من المواطنين الشرفاء الذين من أهم خصائصهم اليوم أنهم يوافقون ويؤيدون ويفوضون فقط ولا يعترضون أو يجادلون ويناقشون

فقط إذا فوضت وأيدت وطبلت ونافقت أو ابتلعت قلمك ولسانك وتغاضيت عن أي شيء وكل شيء هنا فقط تنزع عنك التهمة وتصير من أولئك الشرفاء

أي منحنى هذا الذي يعبره قطار الوطن؟!

بل أي مصيبة نحن مقبلون عليها تلك التي تسمح للمواطنين أن يحكم بعضهم على بعض وأن يترتب على هذا الحكم الاستهانة بالدماء والترخص فيها ؟؟

إن إشراك الناس في مثل ذلك الحكم على بعضهم بالتوازي مع شحن إعلامي أحادي الجهة والمصدر والتوجه سيسبب -بل سبب بالفعل- مهازل مجتمعية فرقت الأسرة الواحدة ومزقت البيت الواحد وصارت أخوة الملة ثم التماسك الوطني على شفا جرف هار بسبب هذا التساهل المسرف في هذا الوصف

وهنا يصير الناس شيعا وفرقا وينقسمون انقساما أشد مما هم فيه وتضيق صدروهم تجاه بعضهم البعض أكثر فأكثر خصوصا حين تتحول أحكام بعضهم في بعض إلى رصاصات تتطاير هنا وهناك لتستقر في النهاية في صدر صاحب النصيب الذي سيأتي يوم تجتمع فيه الخصوم ويؤتى بقاتليه ومن استحلوا دمه وحللوه وبرروه ورضوا بإراقته بحجة أنه إرهابي فيتعلق برقابهم ويسألهم حينئذ نفس الأسئلة الذي لم يجد إجابتها في الدنيا

بأي حق سميتني إرهابي؟

وبأي منطق استبحت عرضي ودمي؟

وبأي ذنب قتلتني؟؟

٦٠.اسمه جوزيف

في رعب شديد صاح بأعلى صوته لعل أحدا من الجموع المتزاحمة على ضربه يسمع أو يفهم: يا عالم يا هوو اسمي جوزيف اسمي جوزيف

لكن هيهات

من سيسمع ومن سيفهم في خضم تلك الأمواج البشرية وبين دوى الصفعات وأصوات السباب البذىء تتعالى من حوله: يا تاجر الدين يا متأسلم يا إرهابي يا بابن...

يمكنك أن تضع ما شئت مكان تلك النقاط فلا أظنك تجاوز مدى البذاءات التي قيلت لجوزيف!!

وجوزيف مواطن مصري وكما هو واضح من اسمه هو غير مسلم أوقعه حظه العاثر ذلك اليوم في المرور من تلك المنطقة التي احتدمت في مظاهرة مناهضة لحكم الإخوان

المشكلة أن جوزيف كان مطلقا لحيته لم يشذبها منذ فترة طويلة وقد يبدو للعين غير المثقفة وفي أثناء الليل والزحام والدخان أن جوزيف سلفي يطلق لحيته تسننا

لكن جوزيف ليس مسلما مما يجعلنا نقطع بيقين جازم أنه لم يطلق لحيته تشبيها بالنبي ﷺ وطلبا للأجر والمثوبة وإنما هى مظهر شخصى ربما بدت في مكان آخر وإضاءة مختلفة متناسبة مع شكله العام وتصفيفة شعره المجعد

لكن في تلك الظروف الساخنة بدا في نظر من ضربوه إخوانيا مندسا أو سلفيا متآمرا ولحيته هاهنا دليل إدانته بجريمة المرور في مكان ممنوع فيه مرور المتسننين مما يبيح ضربه وإهانته

هذا ليس مشهدا تخيليا ولكنها واقعة حقيقية حدثت بالفعل وأعرف شخصيا بعض من لهم علاقة مباشرة بجوزيف

آثرت أن آتي بهذا الموقف الغريب الذي أثق في حدوثه لثقتي في رواته ولأنني أوقن أن مثله تكرر بأشكال وملابسات أخرى

آثرت أن آتي بهخ لبيان خطورة التعامل مع الناس على أساس مظهرهم أو سمتهم الخارجي واخترت ضرب المثل بمواطن قبطي لتوضيح طبيعة المرحلة الهزلية التي نمر بها والتي حين تحتدم فإنها لا تميز والكل حينئذ يدفع الثمن

و إلا فإن النماذج الأخرى للمتحين ومنتقبات تعرضوا لمضايقات أو اعتداءات في الفترة الأخيرة أكثر من أن أحصيها في مقال وربما كنت بنفسي شاهدا على بعضها أو حتى مورست ضدي شخصيا

موقف شبيه حدث مع مواطن قبطي آخر مر في إحدى مظاهرات الإسلاميين وكان ملتحيا أيضا ولمح البعض وشم الصليب على يده عرضا فتم الإمساك به اشتباها في أنه مندس ليفسد المظاهرة

إن جوزيف هو مواطن مصري قرر أن يتخذ هذا المظهر ويطلق لحيته ربما لأسباب تختلف عن أسباب خالد أو حمزة أو مصعب الذين اتخذوه أيضا لأسباب أخرى تتعلق بدينهم وكذا فعلت رقية وخديجة وأسماء اللائي قررن أن ينتقبن أو يلتحفن بالخمار

و هم جميعا بهذه القرارات المتعلقة بمظهرهم لم يختاروا خيارا سياسيا يضايق من قرروا الاعتداء عليهم أو يستوجب عدم مرورهم أو مرورهن من تلك الأماكن التي يرى من استولوا عليها أنه ليس من حق الملتحين أو المنتقبات المرور منها أو التواجد فيها

بل حتى وإن كان لهم خيار سياسي وموقف مخالف فليس من حق أحد قط أن ينتقص شيئا من حقوقهم لأجل خيارهم السياسي

قبل ثورة يناير وفي ظل النظام السابق تعرضنا لمضايقات بسبب سمتنا ومظهرنا، ولم يكن من النادر أن يتم إنزالنا على طرق السفر في الكمائن لنمكث ساعات، وأحيانًا أياما، نُستجوب عن أصلنا وفصلنا، وتطرح علينا أسئلة سخيفة من نوعية: أين تصلي؟ ولمن تسمع؟ وماذا تقرأ؟

لم يكن من المستغرب أن نُستدعى إلى مقرات أمن الدولة، أو يؤتى بنا من بيوتنا فى ظلمات الليل ليلقى بنا في ظلمات أقبية الجهاز، لا لجريرة إلا كوننا ملتحين ونصلي في المسجد. وكنا نتحمل ونصبر مدركين أننا بصدد نظام جائر طاغ لا يرحم.

لكنني أزعم أيضا أننا في تلك الأيام السالفة لم نخش يومًا المرور من شارع أو ميدان، بينما نفاجأ اليوم باستضعاف من نوع آخر بعد ثورة مفترض أنها أعادت الحقوق وأسقطت الظلم

استضعاف داخل شوارع بلادنا، وهذا ما لا يمكن تصوره ولا استيعابه فضلا عن قبوله والاستسلام له !

ربما يكون لبعض أصحاب هذا السمت ممارسات ومواقف أثرت في الجموع خصوصا بعد التركيز عليها إعلاميا، مما أدى إلى تكوين صورة ذهنية قاتمة لدى كثير من الناس تجاههم، ولقد كتبت مرارًا في نقد تلك المواقف والأفعال التي تدخل تحت قول رسول الله ﷺ: «إن منكم لمنفرين»، لكنه قال منكم وليس كلكم!

وهل يعقل أن يكون كل ملتحٍ تاجر دين وكل متسنن منافقا؟!

أعتقد أن كل عاقل سيجيب بـ «لا»، والله يقول ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

إذًا فماذا يحدث؟!

وكيف نسمح أن يكون خيار المرء في دينه أو سمته أو موقفه السياسي سببًا في الانتقاص من حقوقه، أو مبيحًا للتطاول عليه بالقول أو الفعل من قبل مخالفيه؟

وهذا الكلام بالمناسبة ينطبق على كل الأطراف، وليعلم كل منا أنه لو ترك التعامل يتدنى إلى تلك الدركات في حق غيره، فإنه لن يلبث أن يحدث في حقه،

حينئذ لن تكون هذه دولة أو وطنا يصلح للعيش، وسيدفع الجميع ثمن السكوت على ذلك، سواء كان مهتما بالسياسة أم لا

وسواء كان ملتزما بدينه أم لاهيا عنه

وسواء كان اسمه عمر أو جوزيف.



٦١. ثقافة العناوين

لا يستطيع أحد أن ينكر حالة الاحتقان والاستقطاب المشوب بسوء الظن والتربص والتخوين التى باتت تسيطر على الحياة السياسية والفكرية بمصر فى الأيام الأخيرة

هذه الحالة التى عانى منها وتجرع مرارتها عدد لا بأس به من الرموز والشخصيات العامة من مختلف التيارات والأيديولجيات.

و الحقيقة أن الدور الأكبر فى الوصول لتلك الحالة الحرجة لعبته العناوين.

نعم..

العناوين البراقة والصادمة والمثيرة التى تخطف العين وتحرك بواعث الفضول فى نفس المتلقى.

و المؤسف أن الأمر لم يعد قاصرا على مقطع مبتور عن سياقه أو خبر كاذب أو محرف فى جريدة صفراء - رغم ما تمثله تلك الأمور من خطورة - وإنما تفاقم الأمر حتى صار التشويه وتكوين الأحكام الاستباقية بمجرد عنوان لن يقرأ الأكثرون ما تحته من تفاصيل ولن يجدوا الوقت ولا الرغبة

التى تدفعهم لمشاهدة المقطع المعنون له.

لقد صارت عناوين مقاطع اليوتيوب التى يضعها أشخاص لا شأن لهم بأبطال المقطع ولا تعبر فى الغالب عما فى المقطع ولا تمثل إلا رأى كاتبها المستتر خلف اسم مستعار هى ما يتحكم اليوم فى جزء كبير من الرأى العام وتشكيل وعيه الجمعى لدى قطاع عريض من المصريين.

و كم من فرقعات سببتها مقاطع مبتورة زاد من تشوهها عنوان كاذب أو مبالغ فيه وضعه شخص مجهول.

و كم من فتن وآلام سببتها تلك المقاطع والعناوين المدلسة.

لقد أصررت قبل كتابة هذا المقال على دراسة هذه الظاهرة ومحاولة ربط عناوين المقاطع بمحتواها فوجدت النتيجة مؤسفة.

هناك انفصال واضح واختلاف ظاهر بين محتويات تلك المقاطع وعناوينها.

و هذا الانفصال قد يرجع - إن أحسنا الظن - بواضع المقطع (المجهول) إلى فهمه القاصر للمحتوى.

هذا الفهم الذى فرضه دون أن يشعر على آلاف البشر الذين كونوا فكرة مسبقة عما فى المقطع من خلال عنوانه.

هذا إن شاهدوه أساسا !!

إن جزءا كبيرا من المطالعين سيكسلون عن مشاهدة المقطع أو حتى إكماله وسيكتفون بقراءة العنوان عبر رئيسية صفحاتهم على «الفيس بوك» أو على أى موقع إخبارى يتصفحونه عبر هواتفهم الجوالة دون أن يكلفوا أنفسهم عناء وتكلفة المشاهدة وهذا أمر معلوم لكل من له علاقة بشبكة الإنترنت.

أما إن أسأنا الظن فسنجد كثيرا من المبررات والدوافع لدى كاتب العنوان المدلس دفعته لكتابة العنوان بهذه الطريقة التدليسية المضللة.

بعض تلك الدوافع أيديولوجى تحكمه الكراهية والتعصب لتمحو أى أثر للأمانة والإنصاف فيما يكتبه.

و بعضها سياسى تحركه المنافسة والخصومة السياسية.

و بعض تلك الدوافع لا يستبعد أن يكون أمنيا أو استخباراتيا سواءا كان داخليا أو خارجيا القصد منه صناعة وتوجيه الرأى العام

و هذا كما هو معلوم أسلوب متبع فى العالم أجمع ويلفت النظر إليه ويثير الشكوك حوله أسلوب صناعة بعض هذه المقاطع والوصول إليها وطريقة وتوقيت نشرها.

و الحقيقة أن المرء يحزن وهو يكتب هذه الكلمات نظرا للتدنى الذى آلت إليه مصادر التلقى فى مجتمعنا والانحدار الذى صارت إليه معايير

تشكيل الوعى الجمعى لدى القطاع الذى يعد الأهم فى قطاعات المجتمع المصرى.

قطاع الشباب المتعلم الذين يشكلون القطاع الأكبر من رواد الإنترنت.

و الحقيقة أن هذه المشكلة ليست قاصرة على الفضاء الإلكترونى فحسب إنما هى تمتد لتشمل القطاع الأكبر من المصريين

ليس فقط بسبب الانتشار التدريجى الذى تحظى به الشبكة العنبكوتية ولكن لأن محتوى هذه الشبكة من تلك العناوين المثيرة والفضائح الجذابة قد صار معينا رئيسيا لبرامج «التوك شو» ذات نسب المشاهدة الأعلى بين البرامج وهى معين رئيسى كذلك لكثير من الصحف وأيضا تعد مدادا لا ينقطع لأقلام الكتاب والصحفيين من محبى الإثارة أو المتأثرين بها.

و المراقب لتلك الوسائل الإعلامية يدرك جيدا أن ساحات الصراع على «تويتر» و«فيس بوك» تنتقل تدريجيا لتصير حاضرة بقوة فى الإعلام المرئى والمقروء وهو الذى يشكل الوعى الجمعى للأغلبية العظمى من سكان مصر

و لا يتبقى لتشكيل هذا الوعى إلا معين واحد وهو المعين الدينى الذى له مصدران رئيسيان عند عموم المصريين

خطبة الجمعة والقنوات الدينية.

أما الأولى فملقوها بشر وهم على علمهم المفترض وإطلاعهم الشرعى إلا أن كثيرا منهم أيضا يسرى عليهم ما يسرى على باقى المجتمع من تأثر بما يدور حولهم وبما يطالعوه عبر تلك الوسائل المرئية والمقروءة وبالتالى فهم محل للتفاعل معها سلبا أو إيجابا

و أما الثانية وهى القنوات الدينية فمن الملاحظ أيضا أنها بدأت تستعين بذات المعين وتعرض فى بعض براجها مقاطع من اليوتيوب وتعلق على ما يثار عبر تلك الوسائل ولكن طبعا مع الحفاظ قدر الوسع على ضوابطها ورؤاها.

إذا فقد خلصنا مما سبق أن تأثير تلك المقاطع وعناوينها متسع بشكل لا يمكن الإستهانة به أو التقليل من شأنه ولذلك ينبغى أن تكون هناك وقفة مع هذه القضية التى أعدها فى غاية الخطورة.

و كيف لا تكون كذلك وهى قضية متعلقة بتشكيل وعى أمة صار كثير من بنيها يحركهم ويبنى حكمهم على الأشياء مقطع مبتور وعنوان لا يدرون شيئا عمن كتبه ولا يدرون من بتره ولا من بحث عنه ولا لماذا نقب وتكلف حتى وصل إليه

و السؤال الذى يجول بخاطرى وأنا أعاين تلك المشكلة فى مصادر تلقى الأمة

هل هو تربص وامتداد لحالة الاستقطاب وحالة التخوين العامة التى نعانيها أم هو فراغ وضعف فكرى يجعلنا عالة على تلك المصادر العوراء أم هو انحدار تربوى جعلنا نهوى الفضائح والإثاريات لدرجة جعلت بعضنا ينسى أننا أمة ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾؟

أرى أنه لابد من بذل الوسع لإيجاد وسيلة مناسبة لرأب هذا الصدع وضبط ذلك السيل الذى لا يتوقف من العناوين والمقاطع

لكن إلى هذا الحين وحتى نجد وسيلة لضبط هذا الأمر فإننى أرى انه صار من الضرورى التذكير دوما بالمنهج القرآنى المبهر الذى قامت عليه قواعد علم من أعظم علوم المسلمين وهو علم الحديث وأسانيده

إنه منهج التبين والتثبت فى قول الله تعالى ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾

أرى انه صار من الضرورى أن يبدأ كل منا بنفسه مرددا قول الله جل وعلا ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾

❋ ❋ ❋

٦٢.نعم........ نستطيع

دوما ما كان يلفت انتباهى هذا الشعار الذى صاحب حملة الرئيس الأمريكى باراك أوباما خصوصا مع اهتمامى القديم بالخصائص المجتمعية للولايات المتحدة الأمريكية وطبيعتها المتباينة وكيف ان وجود رئيس زنجى ومن اصول مسلمة كان يعد أمرا مستبعدا تماما داخل المجتمع الأمريكى حتى وقت قريب

إختار أوباما وحملته هذا الشعار الذى أعتبره شعارا فى منتهى العبقرية خاصة أنه يستفز مكامن الرغبة فى التغيير ويستثير طاقات التحدى الموجودة داخل الإنسان ليثبت لنفسه على الأقل أنه فعلا قادر على التغيير

فرح الشعب الأمريكى بتنصيب أوباما رئيسا كان يتخطى مجرد الفرح برئيس منتخب جديد لكنه كان يبدو للمراقب عن كثب فرحا بإثبات هذه القدرة والفوز بهذا التحدى

لقد صار لأمريكا ولأول مرة فى تاريخها رئيس ملون ومن أصول إسلامية يدل عليها بوضوح إسمه الأوسط وهو شىء لم يكن ليتوقعه كثير من أصدقائى الذين يعيشون فى الولايات المتحدة لأبعاد يطول المقام لذكرها

ولا أجد له ضرورة الآن

ما أريد أن أخرج به هو قيمة الشعار الفكرية التى نحتاج أن نتوقف أمامها طويلا

قيمة «نعم نستطيع»

قيمة الإحساس بالثقة وعدم العجز

إنها قيمة للأسف يغفل عنها أو يتغافل عنها كثير من سوداويى النظرة رغم أن العجيب أننا أولى الناس بها ولا نحتاج لاستيرادها مطلقا

فديننا ومعتقدنا يؤكد تلك القيمة ويدعو إليها بشكل مطرد يتجلى ذلك واضحا فى قوله ﷺ «استعن بالله ولا تعجز»

تأمل الكلمة المختصرة الجامعة المانعة

لا تعجز

و كيف يعجز من ركن إلى الله ولاذ بحماه واستمد من لدنه السند والبأس

كيف يعجز من ألقى بحموله وهمومه وآماله وأحلامه أمام مولاه وطلب منه الغوث والمعونة

لذا تجد النبى ﷺ فى موطن آخر يقول «أعجز الناس من عجز عن الدعاء»

فإنسان قطع الصلة بينه وبين ملاذه وسنده جدير بأن يهتز ويعجز وتتراخى ثقته ويهن عزمه

أما المسلم الموصول بربه المتوكل عليه توكلا مقرونا بالبذل والتفانى قدر وسعه فحرى به ألا يعجز أبدا وتكون حياته دوما تفعيلا عمليا لتلك القيمة الراقية

«نعم نستطيع»

و على هذا المنوال نجد الأمثلة كثيرة من هدى الأنبياء فى القرآن الكريم

فتارة تنبهر نفسك بكلمة موسى عليه السلام التى أطاش بها عجز بنى إسرائيل حين لحق بهم فرعون وحصرهم إلى البحر فقالوا إنا لمدركون فما كان من موسى - رغم أنه لم يكن يدرك من أين سيأتى الفرج - إلا أن قال «كلا إن معى ربى سيهدين»

و تارة أخرى تمس قلبك كلمة أب حزين على فقد ولده لعشرات السنين لم تستطع أن تحفر لليأس ممرا فى قلبه فقال بصوت يتهدج بالأمل: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾

و تارة ثالثة تقف مشدوها بين يدى نبى الله هود وهو يقف فى مواجهة أعتى قوة مادية على وجه الأرض فى زمانه ويصدع فى وجه إرم ذات العماد

التى لم يخلق مثلها فى البلاد قائلا ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾

و تارة رابعة وخامسة وسادسة إلى ما شاء الله من النماذج والأمثلة التى تتوالى تترا ويرسخ بها القرآن فى قلوبنا هذا المبدأ وتلك القيمة الراقية

قيمة المثابرة والعزم الذى لا ينثنى مهما كانت الظروف والمعطيات ولا يعجز أو ييأس مهما كانت التحديات والعوائق قائلا لنفسه دائما: أنت تستطيع

نعم تستطيع

يونس عليه السلام فى بطن الحوت وفى خضم الابتلاء لم ييأس أو يعجز أو يركن لخوف أو إحباط بل سبّح وتاب واعترف وتضرع إلى ربه فأنجاه من الكرب الذى هو فيه ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾

و كذا فعل أيوب عليه السلام حين مسه الضر ووقع به البلاء فقال ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٨٣) فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾

وأيضا فعل نوح عليه السلام حين بنى سفينته فى صحراء لا تقربها إلا

أمواج السخرية والتلاسن التى يقذفها عليه قومه فتتهشم على صخرة عزيمته وإصراره وجلده وهو يرد عليهم بكل قوة ﴿ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

للأسف الشديد كثير من الناس يستصعبون تلك القيمة وتأبى نفوسهم إلا الراحة والدعة فيتعاملون من منطلق العجز والهوان لأنه أسهل وأكثر راحة ربما دون أن يشعروا

و ما أسهل أن يختار الإنسان الركون إلى الراحة بحجة أنه لا فائدة والمسألة كما يقولون «خربانة خربانة» أو كما يحلو للبعض بدلا من إيقاد شمعة البذل الاكتفاء بلعن ظلام العجز قائلا «ياكش تولع»

و هذا هو أقصى ما يريده عدوك منك

أن تنكسر عينك وأن يقصف قلمك وأن يخرس لسانك

أن تنهزم وتخفض رأسك وتنحنى عاجزا محبطا تنهشك ذئاب اليأس وتأتى على ما تبقى منك ضباع العجز فلا تتركك إلا حطام إنسان ليس فيك من الحياة إلا النبض والنفس وما هى بحياة فلا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة كما قال مصطفى كامل رحمه الله

هذه الحالة من الموات الروحى هي أخطر ما يبثه الطغاة في نفوس الشعوب التي يعلون عليها

ذلك الإحباط والانكسار الذى هو أشد ضررا على تلك الشعوب من أعتى الأسلحة

أن يفقد الإنسان الأمل والثقة وأن ينعدم لديه الطموح فى التغيير وأن يترسخ فى وعيه أنه لا يستطيع

مهما بلغ القمع والأذى والاستبداد فكل ذلك إن كان فى مواجهة نفوس قوية لا تتزعزع فإنه سيتحطم على صخرتها وسيزول إن آجلا أو عاجلا إن شاء الله

إن قتل الحلم والأمل فى القلوب جريمة لا تقل قسوتها - لا حكمها - فى نظرى عن قتل النفس التى حرم الله قتلها وإن البعض لا يستنكف أن يئد تلك الأحلام والآمال دون أن يطرف له جفن بدعوى واقعية مزعومة وربما لا يدرك هؤلاء أنهم بوأدهم لتلك الأحلام والآمال فى نفوس الشباب يصنعون جيلا منبطحا يائسا يعانى من سفول الهمة ودنو الغاية

جيلا مستسلم لقهر الإحباط تسيطر عليه مشاعر السخط والرغبة فى الفرار من واقعه الذى فقد الأمل فى تغييره

وأحيانا يكون الإحساس باليأس خيارا مريحا خصوصا اليأس من التغيير وفقدان الأمل في الإصلاح

وقد يلجأ البعض لهذا الخيار دون شعور منهم وربما دون تصريح لكن

لسان حالهم وربما بعض مقالهم يصرخ بتلك المحصلة

ما فيش فايدة

قفلت

أغلقت

إلى آخر تلك التعبيرات التي يقررون فيها الانهزام نفسيا والاستسلام لليأس

وإن من أعلى درجات الانهزام النفسي أن يعظم قدر الباطل وأهله في النفس فيظن ذلك المهزوم أنهم قد أحاطوا علما وقدرة بالأسباب حتى أن شيئا لا يخرج عن إرادتهم أو أن كل زلاتهم وأخطائهم وضعفهم إنما هي بقصد منهم وتدبير ومكر من صنع أيديهم

فيفسد عليه دائما هذا الظن فأله الحسن ويتسرب إلى نفسه اليأس من حيث لا يشعر وينسى في خضم تعظيمه المستتر لأهل الباطل والظلم والطغيان وانبهاره الخفي بهم أن له ربا يمكر فوق مكرهم وأن مكر أولئك هو يبور وأنهم ما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون وأن الله هو خير الماكرين

وثمة مساحة دقيقة بين الحذر والتربص والحيطة وبين التعظيم المَرَضي للطغاة والخوف المذموم من القوم الجبارين واليأس من الفتح بين أهل الحق وبينهم

هذه المساحة تذوب بسهولة إلا عند أهل العقيدة حيث يعلقون قلوبهم بالله الفتاح ويعتقدون دائما أن له التصريف والإحاطة بخلقه وأنه ما عليهم إلا بذل الأسباب وطرق الأبواب لكن مبدأ الأمر ومنتهاه بين يدي ملك الملوك ورب الأرباب

وإن العادة المطردة التي لا تتبدل أن أكابر مجرمي كل قرية يمكرون فيها ويدبرون ما يؤذيها أو يؤذي مؤمنيها

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ﴾

وقد يكون هذا المكر من الضخامة والتغلب بمكان حتى أنه يقال عنه

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾

لكن المؤمن الحق الذي يعرف الفتاح يوقن بأن عاقبة هذا المكر ليست فقط إلى زوال ولكن إلى نتيجة عكسية تصيب أولئك المجرمين حين يفتح الله بينهم وبين المؤمنين فيصير مكرهم بأنفسهم ويرتد تدبيرهم إلى نحورهم

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

وبعد أن وصفوا في إجرامهم بأنهم أكابر يتحول كبرهم عند الله إلى صغار وعذاب أليم بما كانوا يمكرون

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴾

ومن عرف كل ذلك يستحيل مهما كانت المغاليق أن ييأس

فـ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

إلا من لم يعلموا عن فتحه

إلا من لم يدركوا الوجهة ولم يعرفوا من أين يأتي الفتح

حينئذ ييأسون ويقنطون من روحه ويستسلمون لمغاليق الحياة والمهات

إن المعركة الحقيقية هي معركة النفوس وقدرتها على التحمل والصمود وعدم التردى فى دركات الضعف التى ذكرها ربنا متتابعة فى قوله ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

لكن الربيين كانوا أقوى مما نتصور

فرغم عظم البلاء وفداحة المصاب ؛ إلا أن المتبقين من الربيين ثبتوا وتجلدوا ولم يهتزوا أو ينقلبوا كما حذر الله فى السورة نفسها - آل عمران: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ ﴾..

لم يتدرج الربيون فى مهاوى العجز، ولم يتردوا فى هاوية الاستكانة

هاوية أول دركاتها الوهن؛

و ما أدراك ما الوهن ؟!

الوهن هو بداية ضعف القلب وتصدع بنيان الثوابت واختلال المبادىء والقيم،

الوهن هو حب الدنيا والتعلق بأهدابها جنبا إلى جنب مع كراهة الموت فى سبيل الله،

الوهن الذى طالما حذر منه ربنا فقال: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، وقال: ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾، وقال: ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾.

لقد أدرك الربيون خطورة تلك الدركة على سلم الفشل فلم يطئوها كما وطئها للأسف كثير من الخلق ممن استدرجوا إلى الوهن والإحباط

لم يهن الربيون وبالتالى لم ينحدروا لما بعد الوهن وهو الضعف الظاهر وبداية العجز الذى يؤدى آخر المطاف إلى الشلل الكامل، وهو ما سماه الله بالاستكانة وهى الاستسلام والخضوع والذلة أمام ضربات العدو المتوالية:

﴿ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾،

لقد استعاضوا عن دركات ومهاوي الفشل والاستسلام بأجنحة الصبر، وتمسكوا بحبال الأمل رغم كل الصعاب والمصائب التى ألمت بهم وبأنبيائهم،

وإن أهم ما ينبغي أن يتعلمه المرء من تلك التجارب السابقة والمعاصرة ويحرص الكثيرون على التشكيك فى إمكانية حدوثها والتى لا ينبغى أن نسمح لأحد أبدا أن ينتزعها منا مهما كان الثمن هي تلك القيمة العظيمة

قيمة الأمل والمثابرة واليقين بأننا بإذن الله وفضله وعونه وقوته نقدر على التغيير

قيمة أن الأمر ممكن

و نعم .... نستطيع



الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الكتاب	٥
١- ثمن الخوف	١١
٢- دول اعداء الوطن	١٧
٣- زومبي	٢٣
٤- ولكل سنمار جزاؤه	٢٧
٥- فى بلاد العميان	٣٢
٦- ميتة برجر	٣٥
٧- العلبة دي فيها فيل	٤١
٧- وما ادراك ما الفيل ؟!	٤٦
٨- فكر بشكل مختلف	٥١
٩- كيبورديون وكيبورديات	٥٦
١٠- من ادخل الخنزير	٦٧
١١- اسم ليس على مسمى	٧٢

الموضوع	الصفحة
١٢- بلوك !!	٧٨
١٣- «سى» السيد يغرد	٨١
١٤- لماذا نكره النقد	٨٤
١٥- المبرراتي !!	٩٠
١٦- المزايداتي !!	٩٤
١٧- ذلة للتابع وفتنة للمتبوع	٩٨
١٨- فى ظلال الاستبداد وغيابات الاستعباد	١٠٣
١٩- حوار مع صديقى المتعصب	١١٣
٢٠- بل هم المتصفيون	١٢٢
٢١- بل هم المتطرفون	١٢٦
٢٢- مغسل وضامن جنة	١٣١
٢٣- قبل أن تضغط الزناد	١٣٤
٢٤- أن تكون مجرد رقم	١٣٦
٢٥- ولو كان يهوديا	١٤١
٢٦- كشف هيئة	١٤٤
٢٧- حتى على صوت المعركة	١٥١
٢٨- كفاكم امتحانا للناس	١٥٥

الموضوع	الصفحة

٢٩- ملائكة وشياطين ١٥٩

٣٠- فتش عن الاسوار ١٦٢

٣١- ضد التيار ١٦٦

٣٢- امعاء اخر شيخ ١٦٩

٣٣- «هاتوا له راجل»!! ١٧٣

٣٤- صناعة الارهاب ١٧٧

٣٥- للعجوة آكلون ومن السفن قافزون ١٨٢

٣٦- مسمار جحا ١٨٦

٣٧- عايز ايه ؟ ١٩٣

٣٨- قاع قد ازدحم ١٩٧

٣٩- كلم نفسك ٢٠١

٤٠- الرداحة ٢١٣

٤١- حين تصير الفظاظة أسلوب حياة........ ٢٢١

٤٢- آفة الانحدار اللفظي ٢٢٥

٤٣- «نزله» من على المنبر !!........ ٢٢٧

٤٤- إغلاق !!........ ٢٣١

٤٥- تكفيريون وان انكرتم (١-٢)........ ٢٣٥

الموضوع	الصفحة
٤٦- تكفيريون وان انكرتم (٢-٢)........................	٢٤٠
٤٧- خدعوك فقالوا الشريعة مطبقة فى مصر	٢٤٤
٤٨- تشابه البقر عليهم (١-٢)	٢٤٩
٤٩- تشابه البقر عليهم (٢-٢)	٢٥٤
٥٠- الدولة القضا - القراطية	٢٦١
٥١- عودوا من حيث اتيتم	٢٦٧
٥٢- حبظلم !!	٢٧١
٥٣- بين تفريغ شحنات وغضب للحرمات	٢٧٦
٥٤- من الامام ؟!	٢٨٠
٥٥- الحل السحرى	٢٩٤
٥٦- التعايش بالحق ومع الحق	٣٠١
٥٧- حالة إنكار	٣٠٨
٥٨- هل اتاك حديث الارهاب	٣١٢
٥٩- اسمه جوزيف	٣٢١
٦٠- ثقافة العناوين	٣٢٦
٦١- نعم. نستطيع	٣٣٢
الفهرس	٣٤٣